صورة الصاحب بن عبّاد في نظر أدباء عصره

إعداد

هوازن عمر سلامة

المشرف

الدكتور ياسين عايش

قدّمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللّغة العربية وآدابها

الجامعة الأردنية

كلية الدراسات العليا

آب، ٢٠٠٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قرار لجنة المناقشة

نوقشت هذه الرسالة (صورة الصاحب بن عباد في نظر أدباء عصره) وأجيزت بتاريخ ٢٠٠٩/٨/٤

أعضاء لجنة المناقشة	التوقيع
الدكتور ياسين عايش خليل ، مشرفاً أستاذ مشارك- الأدب العباسي	.....
الأستاذ الدكتور عبد الجليل عبد المهدي ، عضواً أستاذ- الفاطمي والأيوبي والمملوكي	..... 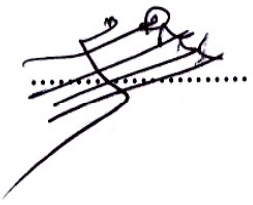
الدكتور محمد علي أبو حمدة ، عضواً أستاذ مساعد- النقد الأدبي	.....
الدكتور خليل سالم الرفوع ، عضواً أستاذ مساعد- الأدب الجاهلي (جامعة مؤتة)	.....

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإهـــداء

أهدي هذا الجهد المتواضع إلى والدي ووالدتي الكريمين ، اللذين كانا الداعم الأكبر لي ، والمشجع لي في اتمامه ، وأتمنى لهما دوام الصحة والعافية ، كما أهدي هذا الجهد إلى رفيقة دربي ولاء سرحان التي أعانتني في إنجاز هذا الجهد ، ولا أنسى إخوتي الأعزّاء الذين منحوني الثقة والتشجيع المعنوي ، وأخص بالذكر أخي الصغير معتز الذي أعانني في كتابة هذا الجهد ، وإلى زملائي وزميلاتي في الدراسة والعمل ، فجزاهم الله عني كل خير .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشكر والتقدير

بعد شكر الله وحمده على فضله ونعمته في إتمام هذا البحث ، أتوجه بالشكر الجزيل لأستاذي الكريم الدكتور ياسين عايش ، الذي أشرف على هذا البحث خير إشراف ، وكان المعين لي بعد الله عزّ وجل ، وخير موّجه لي في كتابتي هذا البحث ، كما أتقدّم بالشكر إلى أعضاء لجنة المناقشة الذين تفضلوا بقبول مناقشتهم لهذا البحث ، شاكرةً لهم آرائهم وملاحظاتهم التي ستثري هذا البحث حتى يخرج على أكمل وجه ، ويفيد المكتبة العربية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهرس المحتويات

الموضـــــوع	رقم الصفحة
قرار اللجنة	ب
الاهداء	ج
الشكر والتقدير	د
فهرس المحتويات	هـ
الملخص باللغة العربية	ط
المقدمة	١
التمهيد	٣
الفصل الأول : صورة الصاحب بن عبّاد في نظر كتّاب عصره	١٣
١ : أ- صورة الصاحب بن عباد في نظر أبي حيان التوحيدي من خلال كتاب مثالب الوزيرين	١٤
ب- صورة الصاحب بن عباد في نظر أبي حيّان التوحيدي من خلال كتاب الإمتاع والمؤانسة	٤٥
٢ : صورة الصاحب بن عبّاد في نظر الزعفراني	٥٦
٣ : صورة الصاحب بن عبّاد في نظر المسيني	٥٨
٤ : صورة الصاحب بن عباد في نظر الخوارزمي	٥٩
٥. صورة الصاحب بن عبّاد في نظر أبي الطيب النصراني	٦٠
٦ : صورة الصاحب بن عبّاد في نظر ابن العميد	٦٢
٧ : صورة الصاحب بن عبّاد في نظر التميمي الشاعر (الرغيب)	٦٥
٨ : صورة الصَاحب بن عبّاد في نظر الجيلوهي	٦٧
٩: صورة الصاحب بن عبّاد في نظر أبي راغب العُتبي.	٧٠
١٠ : صورة الصاحب بن عبّاد في نظر الغويري	٧٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الموضـــــوع	رقم الصفحة
١١ :صورة الصاحب بن عباد في نظر أبي الوفاء المهندس	٧٧
١٢ : صورة الصاحب بن عبّاد في نظر الخليلي	٧٨
١٣: صورة الصاحب بن عباد في نظر أعلامِ آخرين ممن ذكــرهم التوحيدي	٧٩
١٤: صورة الصاحب بن عباد في نظر أبي سليمان المنطقي	٨١
١٥: صورة الصاحب بن عبّاد في نظر أبي إسحاق الصابئ	٨٣
١٦ : صورة الصاحب بن عبّاد في نظر أبي بكر الخوارزمي	٨٨
١٧: صورة الصاحب بن عباد في نظر أبي السلم الشاعر	٨٩
١٨: صورة الصاحب بن عباد في نظر أبي منصور الثعالبي	٩٠
استنتاجات	٩٨
الفصل الثاني: صورة الصاحب بن عباد في نظر شعراء عصره	**١٠٠**
١ : صورة الصاحب بن عباد في نظر شعراء المدح	١٠٠
أ – أبو الحسن البديهي	١٠١
ب– أبو القاسم الزعفراني	١٠٢
ج – أبو طاهر بن أبي الربيع	١٠٥
ء – أبو إبراهيم إسماعيل بن أحمد الشاشي العامري	١٠٦
هـ – أبو سعيد الرستمي	١٠٩
و ــ العميري	١١٠
٢ : صورة الصاحب بن عباد في نظر شعراء الهجاء	١١٠
أ – أبو الحسن السلامي	١١١
ب – أبو بكر الخوارزمي	١١١
ج ــ أبو العلاء الأسدي	١١٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الموضـــــوع	رقم الصفحة
ء – أبو الحسن الغويري	١١٣
هـــ– أبيات لأحد الشعراء	١١٣
و– ذكر الحموي في معجم الأدباء	١١٣
٣ : صورة الصاحب بن عباد في نظر شعراء الرثاء	١١٤
أ – أبو القاسم بن أبي العلاء الأصبهاني	١١٥
ب – أبو سعيد الرستمي	١١٧
ج – أبو الفرح بن ميسرة	١١٧
د – أبو الفياض سعيد بن أحمد الطبري	١١٨
هـــ – أبو العباس العلوي الهمذاني	١٢١
و – أبيات لبعض أهلي نيسابور	١٢٢
ز – الشريف الرضي	١٢٣
رابعاً : صورة الصاحب بن عباد من خلال قـصائد اقتـرح علـى أصحابه من الشعراء نظمها ، وهي قصائد الـديارات والبرذونيـات والفيليات	١٢٩
أ – الديارات	١٢٩
ب – البرذونيات	١٣٤
ج – الفيليات	١٣٧
الاستنتاجات	١٤٠
الفصل الثالث: دراسة فنية	**١٤٢**
أولاً: النصوص النثرية	١٤٢
١ : في نثر أبي حيان التوحيدي	١٤٢
٢ : في نثر أبي قاسم الزعفراني	١٤٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الموضـــــوع	رقم الصفحة
٣ : في نثر المسيني	١٤٩
٤ : في نثر أبي الطيب النصراني	١٥٠
٥ : في نثر التميمي	١٥١
٦ : في نثر الجيلوهي	١٥٣
٧ : في نثر الغويري	١٥٤
٨ : في نثر أبي راغب العتبي	١٥٥
٩ : في نثر أبي بكر الخوارزمي	١٥٨
١٠ : في نثر أبي اسحاق الصابئ	١٦٠
١١: في نثر أبي الوفاء المهندس	١٦٣
١٢: في نثر ابن العميد	١٦٤
١٣: في نثر أبي منصور الثعالبي	١٦٦
ثانياً :النصوص الشعرية	١٦٨
١ – قصائد المدح	١٦٨
٢– قصائد الهجاء	١٧٢
٣– قصائد الرثاء	١٧٣
٤– قصائد الديارات والبرذونيات والفيليات	١٧٦
الخاتمة	١٧٩
المصادر والمراجع	١٨١
الملخص باللغة الانجليزية	١٨٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صورة الصاحب بن عبّاد في نظر أدباء عصره

إعداد

هوازن عمر سلامة

المشرف

الدكتور ياسين عايش

ملخـــــص

لقد ركّزت هذه الرسالة على توضيح آراء الكتّاب والشعراء في الصاحب بن عبّاد ، وقد احتوت هذه الرسالة على تمهيد تحدّث فيه الباحث بشكل موجز عن الصاحب بـــن عبّـــاد ، وذكر بعض مؤلفاته ، ووزارته ، وثلاثة فصول بيّن الأول والثاني منها نظرة الكتّاب والشعراء لشخصية الصاحب بن عبّاد ، وكان التوحيدي أكثر الكتّاب توضيحاً لنظرته من خـــلال كتابيـــه (مثالب الوزيرين ، والإمتاع والمؤانسة) ، فقد اتّصل به وعرف أخلاقه وتعاملـــه معـــه ومـــع الآخرين .

و جاء الفصل الثاني مبيناً نظرة الشعراء للصاحب بن عبّاد من خـــلال قـــصائدهم التـــي تنوعت بين مدح وهجاء ورثاء ، وَوَصْفٍ لفضائل الصاحب وذكر صفاته من خـــلال قـــصائد الديارات والفيليات والبرذونيات التي نظموها في وصف داره والفيل الذي حصل عليه ، ورثاء البرذون الذي فقده أبو عيسى ، استجابة لأمر الصاحب في ذلك .

وانتهت الرسالة في الفصل الثالث الذي تناول فيه الباحث دراسة فنية للنصوص النثريـــة والشعرية ، واستعراض ما تضمنته هذه النصوص من أســـلوب ، وألفـــاظ ، وصـــور فنيـــة ، ومحسنات لفظية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبعد ، فقد استخدم الباحث في كتابة هذه الرسالة المنهجين التاريخي والإجتماعي ، واتّكأ بعض الاتكاء على منهج القراءة النصية ، وقد خرجت الرسالة بالنتائج الآتية :

١. إن الصاحب بن عبّاد في نظر الباحث شخصٌ جامع للعلم والأدب، والسياسة، ومكارم الأخلاق، ولا يخلو من العيوب، لكن ليس إلى حدٍّ تلك العيوب التي وصفها التوحيدي وغيره من الكُتَّاب التي تنفي أخلاقه الحسنة وشخصيته البارزة، فالعيب الذي اتصف به هو الإعجاب بنفسه كثيراً لقدرته على الكتابة في مختلف مجالات الأدب والعلم، والتصرف في الأمور السياسية، وهناك عيب آخر في كتابته وهو كثرة استخدامه للسجع والالتزام به والإكثار منه، على الرغم من جمال ألفاظه، وحسن تعبيره عن أفكاره.

٢. إن الصاحب بن عبّاد في نظر بعض الكُتَّاب مثل الخوارزمي، والصابئ وابن العميد، والثعالبي، شخصٌ ذو مكانة رفيعة في المجتمع وصاحب قدرة على تحمل المسؤوليات الصعبة، وذلك لتقلده منصب الوزارة، والاهتمام بالعلم والأدب، والتشجيع عليهما، والتأليف فيهما، وقد تبين هذا في الرسائل التي وجهوها إليه مادحين له، ومبينين مكانته، كما رأينا في ترشيح ابن العميد له لتهذيب مؤيد الدولة، وبيان أهميته عند الخوارزمي عندما فارقه، واستنجاد الصابئ له في مساعدته.

٣. تختلف صورة الصاحب بن عباد في نظر الشعراء باختلاف الغرض المستخدم في قصائدهم ، فمن خلال غرض المدح يتبين أن ابن عباد في نظر شعراء المدح ، وزير ذو أخلاق كريمة ، وأنه كان مأنوساً من أصدقائه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤. يتبين من خلال ما عُرض من آراء للكتاب والشعراء في الصاحب بن عباد في الفصلين السابقين ، أن الفريقين يتفقان في وصف الصاحب بن عباد بصفات الكرم ، والجود ، وحسن التصرف في الأمور السياسية والاجتماعية ، والتشجيع على الأدب ، واكتساب المعرفة في شتى المجالات الحياتية ، والعلمية ، وقد اعتبروه صديقاً مميزاً و اختلفوا في وصف سلبياته ، فقد ركّز الكتّاب على وصفه بالجنون والرقاعة ، والغرور بنفسه ، والتكبر أمام الآخرين ، والاشتمال على كلّ الرذائل .

ويتمنى الباحث أن تكون هذه الدراسة بحثا للدارسين في المستقبل ، والله ولي التوفيق .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المقدمـــــة

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله ، إنّ السبب لكتابة هذه الرسالة التـــي جائـــت بعنوان (صورة الصاحب بن عباد في نظر أدباء عصره) ، هو اطلاع الباحث على كتاب (مثالب الوزيرين) الذي ألّفه أبو حيان التوحيدي ، وقد تبين له من خلال قراءة موضوعات الكتاب إفراط التوحيدي في ذكر مساوئ الصاحب ، ولم يكتف بذلك بل أراد معرفة رأي التوحيدي وغيره من الكتّاب والشعراء الذين عاصروا الصاحب بن عبّاد ، ووجهة نظرهم في هذه الشخصية الأدبيـــة والسياسية ، كما وجد الباحث أنّ الدراسات السابقة لم توضح هذه الآراء ولم تعرض لها ، إذ إنّها ركزت على الجانب الشخصي من حياة الصاحب بن عباد ، ودراسة لأبرز كتبه وهو (المحـــيط في اللغة) التي قامت بها الدكتورة (بسمة الرواشدة) ، ومن هنا نَبَعَتْ أهمية هذا البحث في تسليط الضوء على آراء الكُتّاب والشعراء الذين عاصروا الصاحب بن عبّاد ، والذين استطاع الباحـــث أن يصل إلى آثارهم المنثورة في ثنايا الكتب .

وقد قسّم الباحث هذه الرسالة إلى ثلاثة فصول ، بعد كتابته تمهيداً عرض فيه موجزاً عن حياة الصاحب بن عبّاد الشخصية والأدبية السياسية ، مبيناً أبرز ما أثرى به الأدب العربي مـــن نتاج نثري و شعري .

وقد خصص الباحث الفصل الأول للحديث عن أبرز آراء الكتّاب الذين عاصروا الصاحب بن عباد مثل : أبي حيّان التوحيدي ، وابن العميد ، وأبي بكر الخـــوارزمي ، وأبـــي اســـحاق الصابئ ، وأبي الحسن الغويري ،وذلك من خلال ما عثر عليه الباحث لهؤلاء مـــن نـــصوص نثرية .

أما الفصل الثاني فقد تناول فيه القصائد الشعرية التي توضح آراء الشعراء الذين عاصروا الصاحب بن عبّاد من أمثال : أبي القاسم الزعفراني ، أبي الحسن الجرجاني ، الشريف الرضي

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

، حيث تنوعت قصائدهم بين مدح و هجاء ورثاء ، وذكروا وصفاً لفضائل الصاحب بن عبّاد من خلال قصائد الديارات والبرذونيات والفيليات التي نظموها استجابةً لطلب الصاحب في وصف داره والفيل الذي حصل عليه في وقعة جرجان ورثاء البرذون الذي فقده أبو عيسى .

وقد عرض الفصل الثالث دراسة فنية لأساليب الكُتّاب والشعراء ، ومضمون نصوصهم وشكلها وألفاظها وما ورد فيها من محسنات لفظية ومعنوية وغيرها .

هذا أبرز ما احتوته هذه الرسالة ، ويتمنى الباحث أن يكون قد قدم دراسة متميزة عن الصاحب بن عبّاد ، لم يسبق إليها من قبل ، ويقدم الباحث شكره الجزيل للأستاذ الدكتور ياسين عايش الذي أشرف على هذه الرسالة خير إشراف وكان للباحث خير معين بعد الله – سبحانه وتعالى – فجزاه الله عنه كل خير .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تمهيـــــد

كثيرة هي المصادر التي تحدثت عن الأديب العباسي الصاحب بن عباد الذي ذاع صِـيتُه ولمع نجمه في سماء عصره (القرن الرابع الهجري)، وعلى الرغم من تعدد هذه المـصادر إلاّ نّها اتّفقت على التعريف بِاسْمِه الذي أَشْتُهِرَ بِه ، فهو إسماعيل بن أبي الحَسَن عبّاد بن العبّاس بن عبّاد بن أَحْمد بن ادْرِيس الدَّيْلَمِي الأَصْفَهَانِي القَزْوِينِي الطَّالَقَانِي أبو القَاسِم المُلَّقَّـب بالـصّاحب كَافي الكَفُاة ، ويُنسب إلى طالقان وهي ولاية بين قزوين وأبهر[١].

تحدَث ياقوت الحموي في معجم الأدباء عن تاريخ مولد الصاحب بن عبّاد فقال : (مولده في ذي القعدة سنة ست و عشرين و ثلاثمائة) ، (ومات الصاحب ــ فيما ذكره أبو نعيم الحافظ في الرابع والعشرين من صفر سنة خمس وثمانين وثلاثمائة بعد بلوغه سبعة وخمسين عامـاً ، ونُقل بعد وفاته إلى أصبهان ودفن في قبة بمحله تُعرف بباب دَرْيَة [٢]، ويذكر صـاحب كتـاب أعيان الشيعة السيد محسن الأمين أنّه لم يسعد أحد بعد وفاته حيث أغلقت له مدينة الرّي واجتمع الناس على باب قصره ينتظرون خروج جنازته فلما خرج نعشه إلى الباب على أكتاف حامليـه للصلاة عليه قام الناس بأجمعهم إعظاماً وصاحوا صيحة واحدة وقبّلوا الأرض وخرقوا ثيـابهم ولطموا وجوههم و بالغوا في البكاء والنحيب عليه جهدهم وابتدر الدَّيلم إلى تقبيل الأرض أمـام جنازته ثمّ حملت إلى موضع الصلاة وصلّى عليه أبو العباس الضّبي الذي تولّى الوزارة بعـده ومشى فخر الدولة أمام جنازته وقعد للعزاء أياماً وبعد أن صلّواعلّقوا نعشه بالسلاسل في سقف

---

(١) الحموي ــ ياقوت أبو عبدالله الرومي الحموي ــ معجم الأدباء ، تحقيق : إحسان عبّاس ، دار الغرب الإسـلامي ، ١٩٩٣ ، ط١ ، ج٢ ، ٦٦٢ .

(٢) انظر المصدر السابق ،ج٢،ص ٦٦٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بيتٍ ورفعوه عن الأرض إلى أن حُمل إلى أصبهان و دُفن هناك)[١]وَقَدْ اشتُهِرَ إسماعيل بن عبّاد بِلَقَب الصَّاحِب كَافي الكُفَاة كَما أَسْلَفنا وذَلِكَ لأنّه كان يَصْحَبُ أستاذه أبا الفَضْل بن العَميد حيث أُطلق عليه هذا اللقب عند توليه الوزارة .

وذكر الحموي أيضا:

"نشأ أديبنا في بيت علم وفضل و وجاهة وأقبل على طلب العلم منذ صغره ، حيث وَرِثَ العِلمَ من أبيه عبّاد الذي كان من أهل العلمِ والفضلِ ، سمعَ من أبي خَلِيفة الخبَّاب وغيره من البغداديين و الرازيين و الأصبهانيين وصنّف كتاباً في أحكام القرآن نصرَ فيه الاعتزال"[٢].

وَزَرَ الصّاحبُ بن عبّاد لِمُؤّيد الدّولة أبي مَنصور بُوَيْه بن رُكْن الدّولة أبي علي الحَسن بن بويه و أخيه فَخْرِ الدّولة ثمانِيَ عشرةَ سنةً وشهراً واحداً ، حَظي خلالها بأحسن رعاية وأروع تعظيم من قبل فخر الدولة وقيل إنّه لم يعظِّم وزيراً مخدومَهُ ما عظّمهُ فخر الدولة إيّاه[٣].

وفي ذكر المذهب الذي ينتمي إليه الصّاحب بن عباد يقول ابن أبي طَيْ في (لسان الميزان) : "كان الصّاحب إمامي الرأي ، وأخطأ من زعم أنّه كان مُعْتَزِلِياً " [٤]، على الرغم من تأليفه كتاب (الإبَانة في مَذهب العَدْلِية) فإنّه لا ينفي كونه شيعياً إمامياً ، أما نسبتُه إلى المعتزِلة فقد يكون المراد منها موافقة الشّيعة في بعض الأصول المعروفة ولعّله كان يتعصّب للجَاحظ أحد رؤساء المعتزِلة لأدَبِه لا لِمذهبِه حيث أنّهُما يشتركان في صنعةِ الكتَابة والبَلاغة .

---

(١) العاملي ـــ السيد محسن الأمين ،أعيان الشيعة ، ط١ ، حققه وأخرجه ولده حسن الأمين ، مطبعة الإنصاف ،بيروت ،١٩٦١ م،ج١١،ص٢٣٢ .

(٢) الحموي، معجم الأدباء ،ط١،ج٢ ،ص ٦٦١ .

(٣) انظر الحموي، معجم الأدباء ،ج٢ ، ص ٦٦٣ ، وابن الجوزي ـــ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ،ج١٤ ،ص ٣٧٥ .

(٤)العسقلاني ـــــ الامام الحافظ أحمد علي بن حجر العسقلاني ـــــ لسان الميزان ، اعتنى باخراجه وطباعته سلمان عبد الفتاح أبو غدّة ، مكتبة المطبوعات الاسلامية ، ط ١، ٢٠٠٢ م ، ج٢ ،ص١٤١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تخرَّجَ الصّاحب بن عبّاد من مدرسةٍ احتضنَت داخلَ أسوارِها أساتذةً أفاضل يُشهَدُ لهم بالعلمِ والأدبِ الغزيرين والمكانةِ الأدبيةِ العظيمة ، حيث أخذ العلوم الأدبيةَ من أبي الحُسَين أَحْمَد بن فَارس اللُّغوي النّحوي صاحب كتاب المُجْمَل[١]، وأخذ عن ابنِ العميد [٢]الأدبَ والشعرَ والترسُّل ، وعن أبي سَعيد السِّيرافي[٣] والقَاضي أبي بَكْر بن كَامِل[٤] ، كما روى عن البغداديين والرازيين وسمع العلم والحديث من أبيه .

وبما أنّه أخذ علمه من هؤلاء العلماء البُلغاء فلا بد أن يكون لهذا الأديب الأستاذ تلاميذ يأخذون عنه كل علم نفيس وفن بديع ، فكان منهم : العالم البياني المشهور عبد القاهر الجَرْجَانِي[٥] ، والقاضي أبو الطّيب الطبّري[٦]، وكان الصّاحب يُحدِّث ويَقْعُد للإملاء و كان له ستة مُسْتَمْلِينَ وجميع من كان يحضر مجالسه هم تلاميذه .

والصّاحب لم يكن مجرد أديب عادي بل كان أديباً بارعاً في مختلف مجالات الأدب نَثْرِه وشِعره ونقده وهو يصرِّح بذلك قائلاً في مقدمة رسالة الكشف عن مساوئ شعر المتنبي:

---

(١)ابن فارس ـــــ أحمد بن فارس بن زكريا القزويني ، ت (٣٦٩ هـــ) ، له من التصانيف كتاب المجمل ، وكتاب متخير الألفاظ ، أنظر ياقوت الحموي ـــــ ج٢ ، ص ٤١٠ ، والذهبي ـــــ سير أعلام النبلاء ، ج ١٢ ، ص ٥٥ .

(٢)ابن العميد ، الوزير الكبير ، أبو الفضل ، محمد بن الحسين بن محمد الكاتب ، وزير الملك ركن الدولة الحسن بن بويه الدّيلمي ، يلقب بالجاحظ الثاني ، ت (٣٦٠ هـــ) ، أنظر معجم الأدباء ، ج١ ، ص ١٩٩ ، و سير أعلام النبلاء ، ج ١٢ ، ص ٢٧٥ .

(٣)السيرافي العلاّمة ،امام النحو ، أبو سعيد ـــ الحسن بن عبدالله بن المرزبان السيرافي ،صاحب التصانيف ، ونحوي بغداد ،من مصنفاته (شرح كتاب سيباويه) و (وألفات القطع والوصل) ، ت(٣٦٨) هـــ ، انظر وفيات الأعيان ،ج٢ ، ص ٧٨ ،سير أعلام النبلاء ،ج١٢ ،ص٣٤٩ .

(٤) القاضي ، أبو بكر أحمد بن كامل ، (ت ٣٥٠ هـــ) ، وهو من أصحاب الطبري وكان يروي تاريخه، الكامل في التاريخ .

(٥)الجرجاني ، شيخ العربية ، أبو بكر ، عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني ، (ت٤٧١ هـــ) ، من مصنفاته: دلائل الاعجاز ، و أسرار البلاغة ، سير أعلام النبلاء ، ج ١٣ ، ص٣٤٩ .

(٦)أبو الطيب ، الطبري الإمام العلامة ، شيخ الإسلام ، القاضي أبو الطيب ، طاهر بن عبدالله بن طاهر بن عمر ، الطبري الشافعي ، فقيه بغداد ، (ت ٤٥٠ هـــ) – سير أعلام النبلاء ، ج١٣ ، ص ٤٣٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"وهاأنا منذ عشرين سنة أُجالِس الكُبراء ،و أباحث العلماء ، وأجاري الشُعراء ، بالجبال تارّة وبالعراق مرّة أخرى ، وآخُذ من رُوَاة مُحمد بن يَزيد المُبَّرِد[١] ، وأكتب عن أصحاب أحمد بن يَحيى ثَعْلب"[٢] [٣] ، ويذكر الصّاحب بن عبّاد أثر أُسْتَاذِه في تخريجه وفضل معرفته في قوله:

" فما رأيت من يعرف الشعر حق معرفته ، وينتقده نقد جهابذته ؛ غير الأستاذ الرئيس أبي الفَضْل بن العَميد أدام الله أيامه ،وحصن لديه أنعامه ، فإنّه يجاوز نقد الأبيات إلى نقد الحروف و الكلمات ، ولا يرضى بتهذيب المعنى حتى يطالبَ بتخيّر القافية والوزن . وعن مجلسه أعلاه الله أَخَذْتُ ما أتعاطى من هذا الفن ، وبأطراف كلامه تعلقتُ فيما أتحلّى به من هذا الجنس "[٤] .

(١)المبرد ، إمام النحو ، أبو العباس ، محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الأزدي ، البصري ، النحوي ، الإخباري ، صاحب الكامل ، (ت ٢٨٦ هـ) ، أخذ العلم عن أبي عثمان المازني وأبي حاتم السجستاني – سير أعلام النبلاء ، ج١١ ، ص ١٠١ .

(٢)ثعلب ، العلامة المحدث ، إمام النحو ، أبو العباس ، أحمد بن يحيى بن يزيد الشيباني مولاهم البغدادي ، صاحب (الفصيح والتصانيف) ، (ت ٢٩١ هـ) – له من الكتب : اختلاف النحويين ، والقراءات – سير أعلام النبلاء ، ج ١١ ، ص ١٠٩.

(٣)الصاحب بن عبّاد ،الكشف عن مساوئ شعر المتنبي ، تحقيق : محمد حسن آل ياسين – مطبعة المعارف – بغداد – ط١ – ١٩٦٥م – ص٣١ .

(٤) الصاحب بن عبّاد ، الكشف عن مساوئ شعر المتنبي، ص٣١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أدب الصاحب بن عبّاد

لقد عاش الصّاحب بن عبّاد في عصر الدولة البويهية ذلك العصر الذي نشط فيه الأدب نشاطاً واضحاً في كل ناحية من نواحي الحياة ،وقد تكّيف الأدباء مع هذا العصر من خلال اتّصالهم بحياة القصور ووصف مافيها من ترف وزينة ، وتصوير الحالة السياسية والإدارية وما فيها من نصر وهزيمة وعدل وظلم وتَوْلية وعزل وتهديد ووعيد وترغيب وترهيب ، كما عرضوا لعلاقة الفرد بالفرد وعلاقة الفرد بالجماعة فنراهم بين تهنئة وتعزية ومدح وهجاء وعتاب واستعطاف ، حتى إنّ الحياة الشعبية كان لها نصيب من ذلك الوصف والتصوير، وكان لكل نوع من أنواع الأدب خصائصه المميزة له وألفاظه المناسبة له ، حيث يمتاز أدب المُثّقفين بالتّأنق والتجويد والحِلْية اللفظية ويمتاز أدب العّامة بالبساطة وعدم التّكلف ، وهكذا فقد كان الأدب البويهي مرناً في كل حالة وكل مجال من مجالات الحياة. (١)

وقد تأثّر الصّاحب بهذا كله كما تأثر أقرانه من الأدباء ، فنجده يصف مجالس الشراب الأنيقة في البيئات الثرية التيَ تَفَنَنَ أصحابها في إرضاء الذوق المترف وإشاعة البَهجة والسرور في كل جارحة من جوارح الإنسان، وله الكثير من الاستزارات في وصف مجالسه الخّاصة ومجلس الوزير المُهَلّبي في بغداد .

(١)الزهيري ،محمود غناوي الزهيري ،الأدب في ظل بني بويه ،مطبعة الأمانة ،القاهرة ،١٩٤٩م، ص ٨٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكما وُصفت المجالس وُصفت الأحوال الإجتماعية اليومية التي يعيشها الشعراء من فرح وترح ومرض وشكوى وعتاب ، فهذا الصّاحب يشكو لعبد الرحمن الشيرازي علّة النقرس قائلاً:

عَنانـــــــــي من الهمِّ ماقد عَناني فأعطيتُ صرفَ الليالي عنانيِ

أَلِفتُ الدموعَ وعِفْتُ[١] الهجـــوع[٢] فعينايَ عينانِ نضّاختـــــانِ

لسُقـــم ألحّ على سيـــــــــدٍ به قد غفرت ذنوبَ الزمـــانِ[٣]

ويتضح لنا تأثر الصّاحب بالحياة السياسية من خلال تصويرها، فهو حين يكتب لأميره في البشائر والفتوح يسبغ عليه من السجايا ما يجعله مثلاً أعلى بين الأمراء ، وحـين يكتـب إلـى العمّال والقضاة والمحتسبين في وصاياه وعهوده يشحنها بالأوامر والنواهي التي تـصدر عـن وعي ديني وحفظ الآي من القرآن الكريم .

الصاحب الناثر

لقد أغنى الصاحب الأدب العبّاسي بما لديه من أدب نثري وشعري فمـن أدبـه النثـري مؤلفاته التي استغرقت أكثر العلوم من الكلام واللّغة و الأدب والتاريخ والعـروض والأخبـار والأخلاق والنثر والنَظم على الرغم من كَثرة مشاغله الوزارية حتى إنّه تفوق على أستاذه ابـن العميد في كثرة مصنفاته ، فقد بلغ عدد هذه المصنفات ثلاثةً وثلاثين مصنفاً منها ماهو مطبـوع مثل (المحيط في اللغة) ، (والكشف عن مساوئ شعر المتنبي) ،(والإقناع في العروض) (وديوان رسائله) و(ديوان شعره) ، وأغلب مصنفاته مفقودة مثل : (جوهرة الجمهرة) و (كتاب الأنـوار)

---

(١)عفت : عفّ عفتاً وعفافاً : كفّ عمّا لا يحلّ ولا يجمل من قول أو فعل .

(٢)الهجوع : هجع هجعاً وهجوعاً :نام ليلاً.

(٣)انظر ديوان الصاحب بن عباد تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين ، مكتبة النهضة ، بغداد ، طبع على مطبعة المعـارف ـــ بغـداد ، ١٩٦٥م ، ط١، ص ٢٩٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

و(كتاب الزيدية) و (وكتاب الوزراء) و(كتاب الشواهد) ، وغيرها من المصنفات التي أثرى بها الأدب العربي .

ومن أدبه النثري أيضاً توقيعاته وأجوبته وكلماته القصيرة التي نجدها مذكورةً في كتاب يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر لأبي منصور الثعالبي ، فمن كلماته القصيرة التي تلتزم السجع القصير والحكمة المفيدة :

من استماح البحر العذب استخرج اللؤلؤ الرطب .

من غرّته أيام السلامة حدثته ألسن الندامة .

الضمائر الصحاح أبلغ من الألسنة الفصاح. [١]

أما رسائله[٢]فقد تنوّعت بين وصف وتهنئة وتعزية ومدح وغيرها من الأغراض الأدبية التي تدل على روعة الصّاحب وقدرته على التفنن في الكتابة والتصنيع ، الأمر الذي يجعل القارئ أكثر اعجاباً واندهاشاً بشخصيته الأدبية العريقة التي ميزته عن باقي معاصريه ، فقد كان يفتتح بعض رسائله بعبارة (أما قبل) ويعقب بعدها بقوله (أما بعد) ، ومما كان يميّز هذه الرسائل أيضاً ولوعه بالسجع وتكلفه فيه حيث قال أبو حيّان في ذلك : (كان كلفه بالسجع في الكلام والقلم عند الجد والهزل يزيد على كلف كل من رأيناه في هذه البلاد) .

وقال ابن المُسَيِّب عندما سأله أبو حيّان أين يبلغ ابن عبّاد في عشقه للسجع ؟ فقال : (يبلغ فيه ذلك لو أنّه رأى سجعة تنحلّ بموقعها عُروة الملك ويضطرب بها حبل الدولة ويحتاج من

---

(١)الثعالبي ، أبو منصور عبد الملك الثعالبي النيسابوري ،يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ،ط١ تحقيق د.مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية ،بيروت ــ لبنان ،١٩٨٣ ، ج٣ ،ص ٢٨١ .

(٢)رسائل الصّاحب بن عبّاد،صححها وقدم له :عبد الوهاب عزّام ، شوقي ضيف ، دار الفكر العربي، ط١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أجلها إلى غُرم ثقيل وكُلفة صعبة وتَجَشُم أمور وركوب أهوال لما كان يخُف عليه أن يُفرِّج عنها ويُخَلِّيها بل يأتي بها ويستعملها ولا يعبأ بجميع ما وُصفْتُ من عاقبتها) . [١]

وهذا إن دلّ على شيء إنّما يدل على براعة الصّاحب في صَنْعة الكتابة فسجعه يمتاز بالخفة والعذوبة والقِصَر والتجانس فإن طالت عادَل بين ألفاظه معادلات تخرج بها من شذوذ الطول إلى ما يشبه القِصَر ، ولفظه أكثر تنغيماً وصفاءً من معاصريه من كتّاب الدواوين ،

ومن جانب آخر عُنِيَ الصّاحب بألوان البديع يحلّي بها جَيِّدَ أساليبه وخاصة لَوْنَيْ التصوير والجناس إذ كان يكثر من استخدام الجناس الناقص في رسائله ويَبْرَع في أوصاف الطبيعة حتى لَتتحول جوانب من رسائله الى ما يشبه الشعر المنظوم ، كقوله يصف مجلس أُنس (قد قابلتني شقائق كالزنوج تجارحت فسالت دماؤها وضعفت فبقي ذماؤها ، وسامتتني أشجار كأّن الحُورَ أعارتها أثوابها وكستها أبرادها ، وحضرتني نارِنجاتٌ ككرات من سفن ذُهِبّت أو ثُدي أبكار خلقت) [٢] .

وقد أخذ الصّاحب مكانة مرموقة في عصره جعلت أصحاب الإمارات الفارسية يحسدون أصحاب الري والجبل من البويهيين عليه ويتمنون أن لو صار إليهم ، كما كان أستاذ البلاغة في عصره ، بلغ في مذهب التصنيع مبلغاً عظيماً من الزخرف والزركشة والتنميق والتطريز فهو تلميذ ابن العميد الذي كان كذلك أستاذ البلاغة في عصره .

---

(١)التوحيدي ـــــ أبو حيان ، علي بن محمد بن العباس ، مثالب الوزيرين ، أخلاق الصاحب بن عباد وابن العميد،تحقيق د. ابراهيم الكيلاني ، دار الفكر دمشق ـــــ سورية ، ودار الفكر المعاصر بيروت ـــــ لبنان ، ١٩٩٨م ، ط ٢، ص ١٠٧ .

(٢)التوحيدي ،مثالب الوزيرين ،ج٣ ،ص ٢٨٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصاحب الشاعر

ومثلما برع الصّاحب في نثره برع في شعره [١] أيضاً حيث نظم سبعاً وعشرين قصيدة في مدح أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أخلى من كل قصيدة حرفاً من حروف العربية وبقيت عليه خالية الواو فأكملها سَبْطَة وجعلها في مدحه، ولم يقتصر شعر الصّاحب على قصائده في مدح أمير المؤمنين ومناقبه ، بل تعداه إلى النظم في سائر الأغراض الأدبية والحياتية مثل الأدب والحكمة وعيادة المريض والمديح والغزل و الصفات والشوق والحنين والهجاء والرثاء واختار لذلك كله ألفاظاً حلوة المعنى عذبة التعبير تروق القارئ وتجذب انتباهه .

فمن شعره في الأدب والحكمة يقول :

إذا ولاّك سلطـــــان فـــزدهُ من التعظيم واحذَرْهُ وراقـــب

فما السلطانُ إلا البحرُ عظمـــاً وقُرب البحر محذور العواقـب*

وله في الهجاء أبيات تُطْرِف القارئ وتبعث في نفسه الضحك وتجعله أكثر انسجاماً مع معانيها

حيث يقول في قاضٍ :

يا قاضياً بات أعمـــــــى عـن الهلال السعيـــــــد

أَفْطَرت في رمضـــــــان وصمت في يوم عيـــــــد *

ويقل في وصف الخط واللفظ :

بالله قل لي أقرطاس تخط به مـــــن حلّة هو أم ألبَسْتُه حللا

بالله لفظك هذا سال من عسل أم قد صبب على أفواهنا عسلا[٢] *

---

(١)انظر ديوان الصاحب بن عبّاد ، تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين ، مكتبة النهضة ــ بغداد ــ طبع على مطبعة المعارف ــــ بغداد ــــ ط ١ ــــ ١٩٦٥م .

(٢)انظر ديوان الصاحب بن عبّاد ط ١ ــ ١٩٦٥م،* ص١٩١، * ص٢١٦ ، * ص ٢٦٨ ، *ص٢٩٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وله في عيادة المريض :

حقّ العيادة يوم بعد يومين وجلسة مثل ردِّ الطرف في العــين

لا تَبرمّن مريضاً في مُساءلــة يكفيك من ذلك تسآل بحرفيـــــن *

الصاحب الناقد

كان الصاحب من النقادِ الذين يعتدّ بآرائهم ونظراتهم الصائبة إلى الفن الأدبـــي ، ويعــود السبب في ذلك إلى سعة اطلاعه وكثرة حفظه من الروائع الأدبية .

وتعدّ رسالته في الكشف عن مساوئ شعر المتنبي رسالة نقدية بين فيها آراء بعض الكّتاب في المتنبي وشعره .

هذا موجز عن حياة الصاحب بن عبّاد وأدبه نثراً وشعراً ، وسنتناول في الفصلين القادمين صورة الصاحب بن عبّاد في نظر كتاب وشعراء عصره تجلّت فيما وجدناه لهم مــن رســائل وأشعار إن شاء الله تعالى.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الأول

صورة الصاحب بن عبّاد في نظر كتَّاب عصره

لقد جمع الصاحب بن عبّاد في شخصيته بين العلم والأدب، ومكارم الأخلاق، وحُسن التصرف في الشؤون السياسية والاجتماعية، لكن شخصيته لم تخلُ من بعض العيوب التي وُصف بها، وعلى الرغم من ذلك فقد قصده عدد من الكُتَّاب الذين عاصروه، فمنهم من كان مادحاً له بأحسن وألطف ما فيه، ومنهم من ذكره بأسوء ما فيه وقذفه بكلام لاذع، وسيتطرق هذا الفصل لإجلاء صورة الصاحب في نظر هؤلاء الكُتَّاب من خلال ما عثرت عليه من رسائل وكتب وآراء أَلَّفوها في ذكر محاسنه ومساوئه.

وفيما يلي قائمة بأسماء هؤلاء الكُتَّاب ومواضع ذكر هذه الآراء من الكتب.

١- أبو حيان التوحيدي	مثالب الوزيرين-أخلاق الصاحب بن عباد وابن العميد والإمتاع والمؤانسة
٢- أبو القاسم الزعفراني	مثالب الوزيرين
٣- المسيني	مثالب الوزيرين
٤- أبو بكر الخوارزمي	رسائل الخوارزمي
٥- أبو الطيب النصراني	مثالب الوزيرين
٦- أبو الفضل بن العميد	مثالب الوزيرين
٧- التميمي (الرغيب)	مثالب الوزيرين
٨- الجيلوهي	مثالب الوزيرين
٩- أبو راغب العُتْبي	مثالب الوزيرين

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٠- الغويري	مثالب الوزيرين
١١- أبو الوفاء المهندس	مثالب الوزيرين
١٢- الخليلي	مثالب الوزيرين
١٣- أبو سليمان المنطقي	مثالب الوزيرين
١٤- أبو إسحاق الصابئ	المختار من رسائل الصابئ
١٥- أبو السَلْم	مثالب الوزيرين
١٦- أبو منصور الثعالبي	يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر.

وفيما يلي توضيح لرأي كل واحد منهم:

١: أــ صورة الصاحب بن عباد في نظر أبي حيان التوحيدي من خلال كتاب مثالب الوزيرين[١]

اتصّلَ أَبو حَيان التوحيدي بالصاحب بن عباد، وكان هدفه من الاتصال به والتقرب منه الحصول على مكانةٍ مرموقةٍ في المجتمع والتخلص من حرفة الوراقة التي وصفها بحرفة الشؤم إذ لم تجلب له سوى كَفافِ العيش والتعاسة والفقر، لكنه لم يجد مناله عند الصاحب بن عباد، إذ لم يكن الصاحب يُطيق التوحيدي لما يتصف به من غرورٍ بنفسه، والغرام بثلب الكرام، والطعن في أخلاقهم، ولم تتفق شخصية التوحيدي مع شخصية الصاحب بن عباد لما في نفسيتهما من حقد وضغينة، ويصرح أبو حيان التوحيدي بهذا قائلاً:

(١) التوحيدي، أبو حيان علي بن محمد بن العباس، ت٤١٤هـ ، له من الكتب مثالب الوزيرين،والإمتاع والمؤانسة،انظر معجم الأدباء، ج٥ ،ص١٩٢٣،وفيات الأعيان ،ج٥،ص١١٢،سير أعلام النبلاء،ج١٣،ص٦٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" ولكّني ابتليتُ به، وكَذَلِكَ هُوَ ابتُلِي بي، ورماني عَنْ قَوسِهِ معروقاً، فَأُفْرَغتُ ما كانَ عِندِي على رَأْسِهِ مُغيظاً وَحَرَمَني فَازدَرَيْتُهُ وحَقّرَني فَأَخْزَيتُه، وخَصّني بالخيبةِ التي نَالَتْ مِنيِّ، فُخَصَصْتُهُ بِالغِيْبةِ التي أَحْرَقَتْه، والبادِي أَظْلَم، والمُنْتَصِفُ أَعْذَر " (١)

فقد ابتلي الواحد منهم بالآخر، وعلى ضوء ذلك ألف أبو حيان التوحيدي كتابه الذي سماه (مثالب الوزيرين – أخلاق الصاحب بن عباد وابن العميد)، تحدث فيه عن مساوئ الصاحب بن عباد وأستاذه ابن العميد وطعن في أخلاقهما وبالغ في ذلك ويؤكد هذا بقوله:

"ولَئِنْ كَانَ مَنَعَنِي مَالَهُ الذَّي لَمْ يَبْقَ لَه، فَمَا حَظَر عَلَيَ عِرْضَهُ الذَّي بَقِيَ بَعْدَه، ولَئِنْ كُنْتُ قَدْ انْصَرَفْتُ عَنْهُ بِخُفَيْ حُنْين لَقَدْ لَصِقَ بِهِ مِنْ لِسَاني وَقَلَمِي كُلُّ عَارٍ وشَنَارٍ وَشَيْن، ولَئِنْ لَمْ يَرَني أَهْلاً لِنَائِلِه وبِرّه، إني لأَراهُ أهلاً لِقَولِ الحقّ فيه، وَنَتٍّ مَا كان اشْتَمَلَ عليه مِنْ مَخازي، ولَئِن كَان ظَّن أنَّ ما يَصيرُ إليّ مِن مَالِه ضَائِع، إنّي لأيقِنُ الآن أَن ما يَتَصِلُ بِعِرضِهِ مِنْ قَوْلي شَائِع" (٢).

وكان حديث التوحيدي عن مساوئ ابن عباد متفوقاً على حديثه عن محاسنه، ويوضح التوحيدي أن الفائدة من حديثه عن ابن عباد وابن العميد هي في قوله:

"فإنَّ الفائِدةَ المَطْلوبَةُ في أَمْرِهِمَا، وَشرِح حَدِيثهمَا تأديبُ النّفْسِ، واجْتلابُ الأُنْس، وإصلاَحُ الخُلُق، وتَخْليص مَا حَسُنَ مِمّا قَبُح، وتَسْليطُ النَظَرِ الصّحِيحِ مَعْ العَدْلِ المَحْمودِ فيما أُشْكِل، واشْتُبِهَ بَيْنَ الحُسْنِ المطْلَق والقُبْحِ المُطْلَق " (٣).

---

(١) التوحيدي، مثالب الوزيرين ، ص٨٣ .

(٢)انظر المصدر السابق، ص٨٣ .

(٣)انظر المصدر السابق ص٣٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهو يقصد من حديثه عنهما بيان ما كانت عليه أخلاقهما وتصرفاتهما والاستفادة من محاسنهما واجتناب ما اتصفا به من مساوئ وخلق قبيح، فهو لم يهمل ذكر المحاسن والصفات الجيدة فيهما، لكنها لم تأخذ نصيباً من كلامه مثلما أخذته المساوئ.

فمن المساوئ التي ذكرها التوحيدي في الصاحب بن عباد شدة الغضب على الرغم مما أوتي من الحظ والمكانة العالية في مجتمعه، فهو يشبه غضبه بغضب الخيل على اللُّجم الدِلاص[١]، والتوحيدي لا يبالي بغضب الصاحب، فغضبه عنده مثل رضاه لأنه أقبل على الصاحب بن عباد طالباً التقرب والتودد والإعانة بمالٍ يفتحُ له طريقَ السعادة والنجاح، فقابله الصاحب بالجِفاء والعداء، وهذا واضح في قوله:

"لَمْ أَسَرْ بَرِضَاهُ لَمَا رَضِيَ فَأَسَاءَ بِغَضَبِهِ وَقَدْ غَضِبَ، وَلا نَفَعَنِي إِقْبَالُهُ فَيَضُرّني إِعْرَاضُهُ، لأنّهُ بحمد الله كما قلت:

فَتى إِنْ يَرْضَ لا ينفعْكَ يَوْماً وإِنْ يَغْضَب فإنّكَ لا تُبالي

ويتابع التوحيدي قائلاً: لَسْتُ واللهِ أَحْفِلُ بِه، أَقْبَلَ أَمْ أَدْبَر، وَسَكَنَ أَمْ نَفَر، ولا أُبَالي بحالتَي سَخْطِهِ ورِضَاه، ولا بأولَى أَمْرِهِ ولا بِأُخْرَاه، فَأَدَامَ اللهُ لَهُ سَوْرَةَ النُبوة والإعْراض، وأَعَانَهُ على الجَفْوَةِ والانْقِبَاض،ولا أَخْلاهُ مِنَ الغَضَبِ والامْتِعَاض، فَقَدْ رَضِيَنا بِذلِكَ فيهِ حَظّاً، واكتفينا به فيه وعظاً "[٢].

فالتوحيدي لا يبالي فعلاً بغضب الصاحب أو رضاه، ويدعو له بدوام حاله من الغضب والامتعاض، والجفوة والإعراض، ويجعله عِبْرة وعظة لغيره، وكأنه يهزأ بالصاحب ويسخر منه.

---

(١) الدلاص(هذا المعنى من جهد المحقق): اللينة البّراقة – المثل " غضب الخيل على اللّجم " يضرب لمن يغضب غضباً لا ينتفع به، ولا موضع له.

(٢)التوحيدي، مثالب الوزيرين ص٦٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن التوحيدي يعترف بصحة ما يذكره في حق ابن عباد وابن العميد، فهو لا يكتب عنهما إلا ما سمعه عنهما، ولقيه منهما جرّاء تعامله معهما، وهو لا يدعي عليهما ولا يختلق شيئاً ليس فيهما، حيث يقول:

(ولَسْتُ أدّعي عَلى ابن عَبّاد مَا لا شَاهِدَ لي فيه، ولا نَاصِر لي عَلَيْه، ولا أذْكر ابنَ العَميد بِمَا لا بَيِنَةَ لي مَعَه، ولا بُرهَانَ لِدَعوايَ عِندَه، وكَمَا أَتّوخى الحقَ عَنْ غيرهِمَا إنْ إعْتَرَضَ حَدِيثُهُ في فَضْلٍ أو نقصٍ كذَلِك أُعَامِلُهُما بِه فيمَا عُرِفَا بَيْنَ أَهْلِ العَصْر باسْتعمَالِه، وشُهِرا فِيهِم بالتّحلِي بِه، لأنّ غَايتِي أنْ أَقُولَ ما أَحَطْتُ بِهِ خُبراً، وَحَفِظْتُهُ سَمَاعاً "[١].

تحدث التوحيدي في كتاب (المثالب) عن الصاحب بن عباد ساخراً منه بـذكر الـصفات التي تجعله في نظر الناس حسن الأخلاق والمعاملة .

وأول ما ذكره من هذه الصفات عندما تحدث عنه وعن أستاذه ابن العميد جامعاً بينهمـا، أنه لا مثيل لهما في اصطناع الناس ، وبذل المال ، وأنهما بلغا غايتهما مـن المجـد و العلـم والفضل ، فهو يقول:

(سَهْلٌ عليّ أَنْ أَقولَ: لَمْ يَكُنْ في الأَولينَ والآخِرينَ مِثْلَهُمَا، ولا يكُونُ إلى يوم القِيَامَةِ مَنْ يَعْشِرْهُما، اصْطِنَاعاً لِلْنَاس، وَحِلْماً عن الجُهَّال، وقِيَاماً بالثَوَابِ والعِقَاب، وَبَذْلاً لقُنْيةِ المال، ولِكُلِ ذُخْرٍ مِنَ الجَواهِرِ والعُقَد، وأَنْهُما بَلغَا في المَجْدِ الذَرْوةَ الشَمّاء، وأَحْرَزَا في كُـلّ فَـضْلٍ وَعلْـمٍ قَصَبَ السَبَقَ، وأَنّ أَهْلَ الأَرْضِ دَانُوا لَهُمَا، وَخَضَعُوا لِفَعَالِهما، وأنّ النَقْصَ لَمْ يُشْنِهُمَا بَوجْهٍ مِنَ الوُجوه، وأنّ العَجْزَ لَمْ يَعْتَرْهُمَا في حَالٍ مِنَ الأَحْوال، وأَنّهُما كانا في شِـعارِ إمَـامِ الرافِـضَةِ وعِصْمَتِهِ المَعْروفَة، وأنّ الاسْتِثْنَاء لَمْ يَقعْ في وَصْفِهِمَا في حَال، لا في الصِناعَةِ والمَعْرِفة، ولا

(١)التوحيدي، مثالب الوزيرين، ص٧٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في الأخلاقِ والمُعَامَلةِ، ولا في الرِئَاسَةِ والسّياسَة، ولا في الأبُوةِ والعُمومَةِ، ولا في الأمُومَةَ والخؤَولَة "[١].

ثم يذكر سبب تسمية ابن العميد وابن عباد بهذه الأسماء، فابن العميد سمَي بذلك لنباهةِ أبيه، وسمي ابن عباد بابن الأمين لكثرة ما عنده من خير وعلم، فقد ورث كل واحد منهما هذه التسمية عن والده، حيث كان والد ابن عباد كاتباً لركن الدولة البويهي، ومعلماً بقرية من قرى طالقان، وشخصاً متديناً ومتقرباً إلى الله تعالى، وَوَرَّث هذه الصفات لابنه الصاحب بن عباد حين أصبح وزيراً وأديباً معروفاً بين الناس، يقول:

"وأنّه كما يُقَال لِهَذا ابنُ العميد لِنباهةِ أبيه، كَذَلِكَ يُقالُ لِذاكَ ابنُ الأمينِ لِخيرٍ كَثير كَان فيه، وأَن العميَد وإنْ كَان مُقّدَماً في الكِّتَابَة، فَقَدْ كَانَ الأمينُ مُعَظَّماً في الدِّيانَةِ، والكِتَابةُ صِناعة تُدْرِكُها الخُلوقَةِ ،والديانَةِ حِلْيةً لا تَزْدَادُ إلاّ الجّدة، وتلك الدُّنيا وهي زَائِلة، وهَذه هي الآخرةُ وَهِيَ باقِية. والله تعالى يقُولُ: (والآخَرةُ خَيرٌ وأَبْقى) (سورة الأعلى ١٧/٨٧) .

(وما عند الله باق) (سورة النحل: ٩٦/١٦)، على أنّ الأمين كَتَب لِرُكنِ الدَولةِ[٢] كَمَا كَتَبَ العميدُ لِصَاحبُ خُراسَان، والأمينُ كَانَ يَنْصُر مَذْهَبَ الأَشْنَاني[٣] تَدَيُناً وطَلَباً لِلزُلفَى عِنْد رَبّه، والعَميدُ كَانَ يَعْمَلُ لِعَاجِلَتِه، وإنْ قُلْتَ كَانَ الأمينُ مُعَلِماً بِقرية مِنْ قُرى طَالَقَانِ الدَيلم[٤].

ويتابع التوحيدي حديثه عن الصاحب وابن العميد ساخراً من علمهما بالسياسة وحب الناس لهما ، ويظهر هذا في قوله:

---

(١)انظر المصدر السابق ص٧٩.

(٢) هو الحسن بن بويه الديلمي أحد ملوك بني بويه صاحب أصبهان والري وهمذان وجميع عراق العجم، كان ملكاً جليل القدر، حليماً كريماً عادلاً بعيد الهمة، متديناً توفي سنة ٣٦٦هـ، وكان عمره ٩٩ سنة وزر له أبو الفضل ابن العميد . أنظر الأوراق للصولي ،أخبار الراضي والمتقي،ص ٢٣٤.

(٣) الأشناني، القاضي أبو الحسين عمر بن مالك الشيباني، وله من الكتب: فضايل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب،كتاب الخيل ، أنظر الفهرست لابن النديم ص١٢٧.

(٤)التوحيدي، مثالب الوزيرين، ص٧٩-٨٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"وأَنّهُما كَانَا بالسِياسَةِ عَالِميْن، ولِأوْلِياء نِعمِهمَا نَاصِحيْن، وإلى الصَغير والكَبير مُتَحَبّبَيْن، وَعَلى القَاصِي والدَّانِي حَدِبيَن، ولأمْوَالِهما بَاذِلَيْن، ولأعْراضِهما صَائِنَين، وفي مَرْضَاةِ اللهِ دَائبينَ، وعلى هَدْي أَهْلِ التُقى جَارِيَيْن، ومِنْ كُلِ دَنسٍ وَنَطفٍ بَعيديْن، نَزِهَين وأَنَّهُما لَو بقيا لَنَزَلَ عَلَيهما الوَحي، ولَتَجَدّد بِهِمَا الشَرع، وسَقَطَ بِمكَانِهِمَا الاخْتلاف، وَزَالَ بِنَظرِهِمَا مَا فيهِ الأُمةِ مِنْ هَذا العيشِ النكد، والشُؤْمِ الشَامل، وَالبَلاءِ المُحيط، والغَلاءِ المتصِل، والدِرهَم العَزيز، والكَسْب الدَنِس، والخَوفِ الغَالِب، ولَكَانَتْ الأَرضُ تُخْرِجُ أَثْقَالَهَا، وتَلْفِظُ كَنُوزَهَا، ويَسْتَغْني مِنْ ألمِ الفَقْرِ أَهْلُها، ومِنْ فَضِيحَةِ الحَاجَةِ أَرْبَابُها، ويَعُود ذوي الدّينِ ناضِراً، وخَامِلُ المُروءةِ نَبيهاً"(١).

يظهر لنا مما سبق براعة التوحيدي في خلط الجد بالسخرية ، فإنّ من يقرأ ما كتبه التوحيدي عن الصاحب بن عباد من صفات يتضح له في بداية الأمر مدحه للصاحب لكنه في حقيقة الأمر يسخر منه .

يذكر أبو حيان التوحيدي الكثير من مساوئ ابن عباد، منها ما هو مُباشر، صرَّح به ووجهه للصاحب بلسانه، ومنها ما هو على صورة أحاديث سمعها من أشخاص تعاملوا مع الصاحب، وتبين لنا سوء أخلاق الصاحب بن عبَّاد وبذاءةِ لسانه على حد رأي التوحيدي، ومنها ما جاء جواباً من بعض الكتّاب الذين عاصروا الصاحب على أسئلة أبي حيان التوحيدي، وسنعرض لها لاحقاً بعد الفراغ من رأي أبي حيان في الصاحب بن عباد.

فَمِن المساوئ التي انتقدها في الصاحب بن عبَّاد رقاعته، أي الحمق الذي كان فيه وانتكاث مريرته، وسعة كلامه وفصاحة لسانه في توجيه الكلام اللاذع لمن قابل من الناس عندما رجع من همذان بعدما فارق عضد الدولة، فقد استقبلهم واجتمع بهم في الري، مما أدى إلى احتقار الناسِ له، وغروره بنفسه، ويصرح التوحيدي بهذا قائلاً:

---

(١)انظر المصدر السابق ص٨٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"فَأَولُ مَا أَذْكُرُهُ مِنْ ذَلِكَ مَا أَدُلُّ بِهِ عَلى سِعَةِ كَلامه، وَفَصاحَةِ لِسانِه، وقُوَةِ جَأْشِه، وشِدّةِ مُنّتِه، وإنْ كَانَ في فَحْواهُ ما يَدَّلُ عَلى رَقاعتِه، وَانْتِكاثِ مَريرَتِه، وضَعْفِ حَوْلِه، وَرَكاكةِ عَقْلِه، وانحلالِ عَقْدِه".

ولما رجع من همذان سنة تسع وستين وثلاثمائة بعد أن فارق حضرة عضد الدولة استقبله الناس من الري وما يليها واجتمعوا بساوة[١]ودونها وفوقها، وكان قد أعد لكل واحد منهم كلاماً يلقاه به عِنْدَ رُؤيتِهِ وأيْنَ كانُوا يَقَعُونَ مِنه، وأيْنَ كَانُوا يَبيتُونَ عِنْدَه، وهَذا الذِي ذَهَبَ بِهِ فِي الإعْجَابِ والكِبَر، وبَعَثَهُ عَلى احْتِقَارِ النّاس، وتَرْكِه فِي التَيْه المُضِل[٢].

فقد قال للزعفراني، رئيس أصحاب الرأي[٣]:

" أَيُّهَا الشَيْخُ سَرّني لِقَاؤُكَ ، وَسَاءَني عَنَاؤُك، وقَدْ بَلغني عَدْواؤُك[٤]، ومَا يَتَخَيّلُه إليكَ خُيلاؤُك، وأَرْجُو أَنْ أَعيشَ حتى يُردَّ عَلَيكَ غُلْواؤُك، مَا كَان عِنْدي أنّك تُقْدِمُ على مَا أَقْدَمتَ عَلَيه، وتَنْتَهي في عِداوتكَ لأهْلِ العَدْل والتَوحِيد الى مَا انْتَهيتَ إليه، ولي مَعَكَ ، إنْ شَاءَ اللهُ نهارُ لَهُ ذَيْل، ولَيْلٌ يَتَبَعُهُ ليل، وَثُبُورٌ[٥]يتصل به وَيْل، وقطرٌ يَدومُ مَعَهُ سَيل (وَسَيَعْلَمُ الكُفّارُ لِمَنْ عُقبَى الدّار) (سورة الرعد:٤٢/١٣). قال الزعفراني: (حَسْبُنا اللهُ ونِعْمَ الوَكيل) (سورة آل عمران: ١٧٣/٣) [٦].

---

(١) مدينة بين الري وهمذان.

(٢)التوحيدي، مثالب الوزيرين ص٨٨ .

(٣) الزعفراني رئيس فرقة الزعفرانية وهي فرقة من البخارية أتباع الحسين بن النجار الذين وافقوا أهل السنة في أصول القدرية وانفردوا بأصول. انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل،ج٢،ص٥١ والإمتاع والمؤانسة،ج٢،ص٧٨ وفيه تعداد لأصحاب المذاهب والنحل.

(٤) العدواء: الشغل الذي يصرفك عن الشيء.

(٥) الثبور: الهلاك والخسران.

(٦)انظر المصدر السابق،ص ٩٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يبدو أن الزعفراني أساء لأهل العدل والتوحيد، وأظهر عداوته لهم، والصاحب بن عباد كان منهم، ولأجل ذلك وجه للزعفراني تهديداً وتخويفاً يدافع فيه عن هذا العداء.

وعلى ذلك فالصاحب بن عباد يوجه الكلام اللاذع لمن يُظهر له العداوة والكره، ويُنقص من قدره، فَهَاهُو يقول للعبداني[١] أَيُّها القَاضِي! أيَسُرُّكَ أَنْ أَشْتَاقَكَ وتسلُو عَنّي، وأَنْ أَسْأَلَ عَنْكَ فَتَنسَلَّ مِنّي، وَأَنْ أُكَاتِبَكَ فَتَتَغَافَل، وأُطالِبَكَ بِالجَوابِ فَتَتَكَاسَل؟ وَهذَا مَالا أَحْتَمِلُهُ مِنْ صَاحِبِ خُراسَان، وَلا يَطْمَعُ مِنّي فِيه مَلِكٌ مِنْ سَاسَان، متَى كُنْتَ مِنديلاً لِيَد ؟ وَمتَى نَزَلْتَ عَلى هَذَا الحَدّ لأحَد، إنْ انْكَفَأْتَ إليّ بالعُذرِ انكْفاء، وإلا إنْدَرَأتُ عَلَيْكَ بالعذلِ اندِرَاء، ثمَّ لا يَكوُنُ لكَ مَعِي قرارٌ بِحال، ولا يَبقى لَكَ بِمَكَاني اسْتِكْثَارٌ إلا على وَبَالٍ وخَبَال[٢].

فالصاحب لا يحب أن ينسى أو يُغافل أو يُهمَل من أحد، ويبدو أن العبداني فعل ذلك، فما كان من ابن عباد إلا أن خيره بين الاعتذار له أو التقليل من شأنه عنده، كما قال لأبي محمد كاتب الشروط[٣]:أيُّهَا الشيخ! الحَمْدُ لِلَهِ الذّي كَفَانَا شَرَّك، وَوَقَانَا عرَّكَ[٤]، وَصَرَفَ عَنّا ضَرَك، وأَرَانَا فَيْحَك[٥] وَحَرّك، دببتَ الضّرَاءَ لَنا، وَمشّيْتَ الخَمّر[٦]علينَا، ونَحْنُ نَحيُس لَكَ الحَيْس[٧]،

---

(١) لم أجد له ترجمة في كتب المصادر .

(٦) التوحيدي، مثالب الوزيرين ص٩١ .

(٣) لم أجد له ترجمة في كتب المصادر

(٤) العر: السوء

(٥) فيحك: الفيح: خصب الربيع في سعة البلاد. ويقال: أفّح عنك من الظهيرة: أبرد.

(٦) الخمر: المخاتلة، يقال: أهو يدب لنا الضراء ويمشي له ، الخمر لمن ختل صاحبه.

(٧) الحيس، حاس يحيس الشيء: خلطه والحيل: مثله.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونَصِفُكَ بِاللّبَابَة[١] والكَيْس[٢] ونَقُولُ: لَيْسَ مِثْلَهُ لَيس، وَأَنْتَ فـي خِـلال ذَلِـك تُقابِلُنـا بِـالوَيْحِ والوَيس[٣] لَولا أَنّكَ قَرْحَان[٤]سَقَطَ العَشَاءُ بِكَ مِنَّا عَلى سِرْحَان[٥].

ولعل الصاحب يقصد من هذا الكلام أن أبا محمد في نظره شخص يتصف بالفطنة والذكاء لكنه أخطأ مع ابن عباد في التفجع عليه والحديث عنه بالسوء والضرر، ففوجئ به ابـن عبـاد وواجهه بهذا الكلام– لكن الصاحب لا ينسى من كان في نظره ذا مكانةٍ وفضلٍ عنده، فهو يشكو من أبي طاهر الحنفي[٦] عدم مكاتبته خلال بُعده عنه، ويشكو إليه أنه يحدث عنه أمـام النـاس وَشَّوَقَهُمْ لمعرفته، لكن الصاحب يحمد الله على أنه رجع إلى الري ليتواصل مع من أحب مـن العلماء والأدباء، فهو يقول لأبي طاهر الحنفي:

"أيها الشَيخُ ما أدْري أأَشْكُوك أَمْ أَشْكُو إلْيك؟ أَمَّا شِكْواي مِنْكَ فَلأنّك لَمْ تكاتبني بِحَـرْف، حَتّى كَأَنّا لَمْ نَتَلاحَظ بِطَرْف، ولم نَتَحافَظ على إلْف، ولَمْ نَتَلاقَ عَلى ظَرف، وَأَمّا شَكَوايَ إلْيـكَ، فهي أني ذَمَمْتُ الناس بَعْدَك، وَذَكَرْتُ لَهُم عَهْدَك، وَعَرَضْتُ بينهُمْ وُدّك، وَقَدَحْتُ عَلَيهم زَنْـدَك، وَنَشرْتُ عِنْدَهُم غرائِبَ مَا عِنْدَك، فَاشْتَاقُوا إليكَ بتشْويقي، واسْتصْفُوكَ بِتَرويقِي، وَأَثْنـوا عَلَيْـكَ بِتَنْمِيقي وَتَزْويقِي. وهَكَذَا عَمَلُ الأَحْبَاب إذا نبَأَتْ[٧]بِهِمْ الرِّكـاب، والتَـوَتْ دُونَهُـم الأعْنَـاق، واضْطرَمَتْ في صُدورِهِم نَارُ الاشتياق، فالحَمْدُ لِلهِ الذي أَعَادَ الشَعْبَ مُلْتَئِماً، والشَمْلَ مُنْتَظِمـاً،

---

(١) اللبابه: العقل .

(٢) الكيس: العقل والظرف والفطنة.

(٣) الويح: كلمة ترحّم وتفجّع. ويس: بمعنى ويح.

(٤) القرحان: من أصابه القرح

(٥) السرحان: الذئب يضرب هذا المثل في طلب الحاجة يؤدي صاحبها إلى التلف.

(٦) لم أجد له ترجمة في كتب المصادر

(٧) نبأ ونبؤ : خرج من أرض إلى أرض .

(١) التوحيدي، مثالب الوزيرين ص٩٢-٩٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والقُلوبَ وادِعَة، والأهْواءَ جَامِعة، حَمْداً يتَصَلُ بِالمَزيد ، على عَادةِ السَادةِ مَعَ العَبيد، عِنْدَ كُـلِ قَريبٍ وَبعيدَ"[١].

فأبو طاهر الحنفي محبب عند الصَاحب بن عباد، فقد بين مدى حبه له بالإشـتياق لـه، والتعريف به أمام الناس. كما قال لابن القطان القزويني[٢]:

" أيُها الشيْخُ كِدْتُ واللهِ أحْلُم بِك في اليقظة، وأَشْتَمِلُ عَليك دُون الحَفَظَةِ، لأنّكَ قَدْ مَلَكْـتَ مِنّي غَايةَ المَكانَةِ والحظوَة، واللهِ مَا أسَغْتُ بَعْدَكَ رِيقاً إلا عَلى جَـرَض[٣]، ولا سَـلَكْتُ بَعْـدَكَ طَرِيقاً إلاّ عَلى مَضَض، ولا وَجَدْتُ للظرفِ سُوقاً إلاّ بالْعَرَض، سَقَى اللّهُ رَبْعـاً أَنْـتَ سَـاكِنُه بِنَزَاهَتِكَ، وَطَبعاً أَنْتَ طَابِتُه[٤] بِبرَاعتِكِ، وَمغْرَساً[٥] أَنْتَ أَيْنَعَتَه[٦] بِنَبَاهَتِك، وأصلاً أَنْـتَ فَرْعُـهُ بِفَقَاهَتِكَ[٧].

فابن القطان في نظر الصاحب عالم نزيه، ونبيه، وظريف، وفقيـه، وذو غايـة ومكانـة رفيعة عنده، فلم يقل فيه إلا ما استحسن من الكلام والدعاء له بما يسر نفسه، فهو مفضل عنـده لدرجة أنه لا يستطيع أن يسلك طريقاً إلا وهو معه، ويتبين لنا من خلال هذه الآراء والأقوال أن الصاحب في نظر أبي حيان إنسان مادح لمن أظهر له الأدب والقول الحسن والمكانة العاليـة، وأعطاه من الرفعة والتقدير، وهو من ناحية أخرى يقلل من قيمة من هو معـادٍ ومجـافٍ لـه، ويقابله بما يستحق من الكلام، فهو يعطي كل شخص ما يليق به وبفعاله سواء أكانت جيـدة أم سيئة.

---

(١) لم أجد له ترجمة في كتب المصادر.

(٢) جرضه ـــ جرضا :خنقه وفلان بريقه ـــ جرضا:بلعه

(٣) الطاب: الطيب والطابة: مؤنث الطاب.

(٤) المغرس: موضع الغرس.

(٥) في الأصل ينعه

(٦)انظر المصدر السابق ص١٠٢.، ص٩١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن المساوئ التي لاحظها أبو حيان التوحيدي على خصمه الصاحب بن عباد قلة دينه وادعاؤه بنصرته مذهب العدل والتوحيد، وقلة صلواته وتقربه إلى الله، والتثقل من حفظ آيات من القرآن الكريم، على الرغم من قدرته على الحفظ الغزير، إذ لم يكن يستخدمها إلا للاستدلال بها في المناظرات والمذاكرة حيث يقول:

"وكان مع هذا المذهب الذَي يَدّلُ به ويُسميه العَدلُ والتوحيد قَليلَ التّوجه إلى القِبلة، قليلَ الركوع والسُجود،وكَان مَعْ حِفْظِه الغَزير، عَليه مؤَونَةٌ في تِلاوَةِ آيةٍ مِنّ كِتَاب اللهِ عَز وَجّل إذا أَرادَ أَنْ يَسْتَدِلَّ بِهَا في المُنَاظَرَةِ والجَدَل، أَوْ يَذْكُرَ وَجَهاً مِنْ وُجُوهِها في المُذَاكرة، ولم يَكُنْ عَلَيهِ طَابِعُ العِبَادَةِ وَلا سِيَما المُتَأَلِهين[١].

ويواصل أبو حيان التوحيدي ذم الصاحب بن عباد واتهامه بحسده لمن يكون أفضل منه علماً وأدباً ومعرفة، فإذا سمع أحداً مجيداً في الخط، أو مبدعاً في الكتابة، أو مقوّماً لكلامه، غضب غضباً شديداً، وحدّث بقتله أو نفيه، أو إلزامه بغرامة مالية والدليل على ذلك قوله:

"كَانَ مَعْ ذَلِكَ سَفّاكاً لِلدِماء، قَتّالاً لِلنَظراءِ والأكفَاء، وكَانَ شديدَ الحَسَد لأهْلِ الفَضْل والدِرَاية، ولأصْحَابِ الحِفْظِ والرِوَاية، وكانَ جُلُ حَسَدِه لمن كَتَبَ فَأَحْسَنَ الخَط، وأجَاد اللَفْظ، وتَأَتّى لِلْرسْم، وَملَّح في الاسْتِعارةَ، وَكَانَ إذا سَمِعَ مِنْ إنسانٍ كلاماً مَنْظُوماً، وَمَعَنىً قَويماً، ولَفْظاً مَسْجُوعاً،وَنَثْراً مَطْبوعاً، وَبياناً بَلِيغاً، وَعرَضاً حَكيماً، انْتَقَد طِبَاعُه، وَذَهَبَ عليْه أَمْرُهُ، وَتَبَدَد حِلْمُهُ، وَزَالَ عَنْه تَمَاسُكَه، والْتَهَبَ كَأَنّهُ نار، واضْطربَ كَأَنَه شَرار، وَحدَّثَ نَفْسَهُ بِقَتْلِه أَو نَفيه، أو إغْرامِه[٢] وإبْعادِه وَحِرْمانه[٣].

---

(١)التوحيدي، مثالب الوزيرين ط٢، ص١٠٢.

(٢) أغرمه: ألزمه بوفاء الدين.

(٣)انظر المصدر السابق ص١٠٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن مساوئه أيضاً قلة عطائه لمن يَرِدُ عليه من الكتَّاب والشعراء والمستفيدين من أدبه وعلمه، فلما ورد عليه البديهي وعلمه العروض والقوافي، لم ينل منه سوى خمسة آلاف درهم طوال مدة بقائه عنده، ويقول التوحيدي إن عطاياه لم تتجاوز أكثر من ذلك، وهذا دلالة على بخل الصاحب وقلة منحه العطايا والأموال، يقول التوحيدي:

" هَلْ تَرى هَاهُنَا صِلةً تَرتَفِعُ عَنْ مَائَةِ دِرهَمْ إلى أَلْف؟ أَلَيْسَ أَنْبَلُ مَنْ وَرَدَ عَلَيهِ البَديهي[١] وهو شَيْخُه في العَروض، وَعَنْه أَخَذَ القَوافِي وَتَفَتَّحِه وهِدايَتِه؟ قَالَ الشِعْر؟ هَلْ زَادَهُ في طُولِ مُقامِهِ إلى رَحيلِهِ عَلى خَمسَةِ آلافِ دْرهَمٍ تَفَارِيق؟ وإنَّ أَقَلَّ ضَيْفٍ بِمِصْرَ يَصيرُ إليه مِثلَ هذا في أوّلَ يوم"[٢].

كما عاب التوحيدي على الصاحب كتابته التي وصفها ابن عبيد الكاتب[٣]عندما سأله أبو حيان عنها فقال:

"هِيَ شَوهَاء، فِيهَا شيءٌ في غاية التَقَبُّح، وفيها شَيءٌ في غَايةِ الرَكَاكَة، وَبَينَهُما فُتُورٌ رَاكِدٌ بمذاهب المُعَلِمينَ الحَمْقَى المُتَعَاقِلِينَ أَشَبَهُ مِنْهَا بِمَذَّاهِبَ السَلَفِ الأَوَلِينَ مِنَ الكُتَّابِ وَأَصْحابِ الدّواوين[٤]". فكتابة الصاحب في نظره مشوهة ويَعيبها الركاكة، وقليل من التقبح، ولعله يقصد بذلك عدم جمالها من ناحية الأسلوب أو انتقاء الألفاظ، أو البلاغة، ويصف هذه الكتابة باتباعها طرائق الكُتّاب القدماء، أي أنها قديمة وليس فيها تجديد في شيء.

ثم يقول إنه يلتزم في كتابته السجع ويتكلف فيه، وهو يرى أن السجع شيء جيد في الكلام أو الكتابة، لكن يجب أن يكون السجع منظماً ومتزناً ودقيقاً، تماماً مثلما يخاط الثوب ويُطرز على

---

(١) البديهي، علي بن محمد أبو الحسن البديهي الشاعر، سمع أبا بكر بن دريد ، وإبراهيم بن محمد بن عرفة نفطويه، وأبا بكر بن الانباري ، انظر تاريخ بغداد ، ج١٣ ،ص٥٥٩،ووفيات الأعيان،ج١،ص٤١٤.

(٢)التوحيدي، مثالب الوزيرين، ص١٠٣.

(٣) لم أجد له ترجمة في كتب المصادر

(٤)انظر المصدر السابق، ص ١١٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أكمل وجه، وأدق صورة وأروع جمال، كي لا يمل القارئ وينفر من قراءة النص، فابن عباد يلجأ إلى استخدام البديع ويكثر منه في كتابته، لكن ابن عبيد الكاتب لا يرى هذا البديع إلا زيادة في الركاكة في فنون الكلام وينبغي أن يراعي الكاتب في كتابته التنوع في استخدام أنواع البديع من جناس وطباق وسجع ، وغيرها حتى تكون كتابته متناسقة ومفهومة، ويبين هذا في قوله:

"السَجَعُ الذي يَلْهَجُ بِه هُو مِما يَقَعُ في الكَلام، وَلكِنْ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ كالطِّرازِ في الثَوب، والصِنْفَةِ[١]في الرِّداء، واللَحْظِ في القَصبِ[٢]، والمِلْحِ في الطَعَام، والخَال في الوّجه، ولو كَانَ الوجهُ كلّه خَالاً لَكَانَ مَقْلِياً. قال: وبَديعُهُ في هذا الفّنِ لا يَسْتُرُ رَكَاكَتَهُ في سَائِر فُنونِ الكَلام، فإنّ فُنونَ الكَلام مُحَصِّلَةٌ على التقريبِ بَينَ البَدَد والسَجَع، والوَزْنِ وَمَا يُسميهِ قَوْمٌ تَجْنيساً وتَطْبيقاً، قال: وَمِنْها شيءٌ يَجِبُ أَنْ يُسمَى المُسَلسَل وأمْثِلَتُه في كلامِ أبي عُثمان[٣]موجودة"[٤].

ويوضح ابن عبيد الكاتب شروط الكتابة الجيدة والبعيدة عن الركاكة والضعف، إذ ينبغي على الكاتب أن يتجنب التكلف واستعمال الغريب والغامض من الألفاظ، واستخدام الألفاظ التي تفسد المعنى المراد من إيصاله للقارئ وأن يستخدم الكاتب المعنى الصحيح،واللفظ المتخير والملائم للمعنى، واتباع الأسلوب السهل في الكتابة، وتنظيم الكلام وتسلسل الأفكار، والرونق في الألفاظ والمعاني وتجنب الوقوع في الفضاء، وهو عدم الربط بين الفصول أو الأفكار التي يعرضها الكاتب، وتجنب التهجين أو الخلط بين الأمور، ويرى أن الركاكة وما يشابهها تسبب مشقة على اللسان في القراءة وانزعاج الأذن عند السماع بها، حيث قال:

---

(١) في الأصل الصنيفة والصَّنيفة: حاشية الرِّداء والثوب أو جانبه الذي لا هدب له أو الذي فيه هدب .

(٢) القصب: ثياب ناعمة كتان.

(٣)الجاحظ، (ت٢٥٥هـ)، من مصنفاته كتاب " الحيوان "، وكتاب " البيان والتبيين "،انظر معجم الادباء،ج٢،ص٢١٥٧، وفيات الأعيان ، ج٣،ص٤٧٠.

(٤)التوحيدي، مثالب الوزيرين، ط٢ ،ص ١١٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" والذّي يَنْبَغي أَنْ يُهجَرَ رَأساً، ويُرغَبَ عَنْهُ جملةً في التَكَلُّـفِ والإِغْـلاق، واسْـتِعمال الغريب والعَويص، وما يَستهلكُ المعنَى أو يُفسِدُهُ أو يُحيله، وَيَنْبَغي أنْ يَكُونَ الغَرَضُ الأولُ فـي صحة المَعنَى،والغرض الثَانِي في تَخيُّرِ اللَفْظ ،والغرض الثَالِثُ في تسهيلِ النَظْمِ وَحَلاوةِ التَأليف، واجْتِلابِ الرَوْنق، والاقتِصادِ في المواخاةِ، واسْتِدامَة الحَال لَيْستَمِرَ الثاني عَلى الأَوَل، والثَالِـثَ عَلى الثَانِي، وأنْ تَتَوقَى الفَضَاءَ الذْي يَعْرِضُ بَينَ الفَضْلِ والفَصْلِ . قلتُ: مَا معنى الفضاء؟ قَال: عَدَمُ الرِّباطِ بَيْنَ المُتَقَدِم والمُتَأَخِر وَهُوَ النُّبوُّ العارضُ في النفس عندَ سَـماعِه وتحـصيله: قَـال والهُجنَةِ التّي لَيسَ بَعْدَها هُجْنَة، وَالركاكةِ التي لَيْسَ فَوقَها ركاكَة الوُلُوعُ بالغَريب وَما يُشْكِل فيه الإعْرابُ وَيَتَجاذَبُهُ التأويل، فإنَّ هذا ومَا شَاكلَهُ كُلْفَةٌ على النَفْسِ عِنْدَ سَمَاعِه، ومَؤُونَةٌ عَلى الطَبْعِ عِنْدَ تَخَيُرِه، وَمَشَقَةٌ على اللسانِ عَنْهُ باللَفْظِ به[١].

ويؤكد التوحيدي ولع الصاحب بالسجع بذكر أمثلة تبين مدى إفراطِهِ في استعماله، حيـث يقول:

"وممّا يَدُلُ على وُلُوعِ ابن عبّاد بالسَجع، ومُجاوزَةِ الحدّ فيه بالإفْراطِ، قَولُهُ يَوماً: حَـدَّثَنَي أَبُو علي ابن بَاش، وَكَانَ مِنْ سَادَةِ النَاش، جَعَل السين شيناً". ومرَّ في الحديث وَقَال: هَذه لَغَـة، وكذب، وَكَانَ كَذُوُباً، وَكَانَ أَبُو مالك مَرةً بين يَديه، (فَقَالَ لَهُ) إنّما أَنْتَ حَظّ وقَطٌ فَقَـطِ، وَقبَّـتْ أطْرافَهُ بِحَرَكَاتِه تَخْنُثاً وتَأَنُثاً. وَقَالَ لِعَبدِ اللهِ المُعَلّم وَقَدْ أَنْشدَهُ: يا عبدَ اللهِ أَنْتَ طويلُ النَفَس، عتيقُ القَوسِ، شَديدُ المَرس، وَقَالَ لشيخ من خُراسَان في شيء صبرى: واللهِ لَـولا شَـيءً لقطعتُـكَ تَقْطِيعاً، وبَضَّعْتُكَ تَبضيعاً، وَوَزَعْتُكَ تَوزِيعاً، وَمزعتُكَ تَمزِيعاً، وَجَزَعْتكَ تَجزِيعاً، وأَدْخلَتُكَ فـي حرِّ أمِك، ثُم وقفَ وقَفَةً وَقَال: جميعاً. "[٢]

---

(١)التوحيدي، أبو حيان علي بن محمد بن العباس، ت٤١٤هـ ، له من الكتب مثالب الوزيرين،والإمتاع والمؤانسة،انظر معجم الأدباء، ج٥ ،ص١٩٢٣،وفيات الأعيان ،ج٥،ص١١٢،سير أعلام النبلاء، ص١١٣-١١٤ .

(٢)التوحيدي، مثالب الوزيرين، ط٢،ص ١١٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويضيف أبو حيان بأن هذا السجع لا يصلح بالسماع فقط، بل يكون أكثر بمشاهدة الشخص الذي يسجع في كلامه مع تحريك أعضائه ومفاصل جسمه وهزَّ أكتافه، والتغني والترنح، وهذا ما كان يفعله الصاحب بن عباد فعلاً، وأرى أنها شيء إيجابي لأنها تعبر عما يريد الساجع إيصاله للشخص الآخر، لكنها سيئة بعض الشيء لأنها تجعل الطرف الآخر يركز نظره على الإيحاءات والحركات التي تحدث أمامه، وينسى ما يُقال له، فهي تُحدث نوعاً من التشويش، وهذا واضح في قوله:

"ومِلْحُ هذهِ الحِكَايةِ يَنتَثِرُ في الكِتَابة، وبَهَاؤُهَا يَنْقُصُ بالرواية دُونَ مُشَاهَدةِ الحَال، وسَمَاع اللَفْظِ، ومَلاحَةِ الشَكل في التّحَرُكِ والتَثّني، والتَرَنُحْ والتَهَادِي، ومَدِّ اليَد، ولَيْ العُنُق، وَهُزّ الرأْسِ والأكْتاف، واسْتِعْمالِ جميعِ الأَعْضاءِ والمَفاصِل[١].

وقد بين التوحيدي سيئة أخرى في الصاحب بن عباد وهي احتقاره للناس، واستهزائه بأشكالهم ومظاهرهم، وخير مثال على ذلك أنه قال يوماً لأحد حُجَّابه عندما أراد الركوب على رَحله: نظَّف الطريق مِن هَذِه الخَنَافِسْ والجُعْلانِ[٢] والحَرابي والغِربَان. فَقُلْتُ لِبَعضِ مَنْ كَانَ إلى جانِبي: مَنْ يَعْني؟ قالْ: يَعْنِي هَؤُلاء الواردينَ مِنَ الحِجَاز لِسَوادِ أَلْوانِهم، وَتَفَلْفُلُ شُعورِهم، ودَمامَةِ وُجُوهِهم، وانحِطَاطِ قَدُورِهم، وقِلةِ دِماثَتِهم،واخْتِلافِ حَرَكَاتِهم وَشَمَائِلِهم"[٣].

لقد حدَّث الزعفراني التوحيدي بهذا الكلام، فقد عاب على الصاحب استهزاءه بمن هو أقل منه مستوى وحالة اجتماعية، ويرى أن الصاحب يتعالى على غيره، ويُفضل نفسه على الآخرين، ويرى أنه يدعي الولاء والانتماء للزيدية، وليس في أفعاله ما يدل على ذلك، حيث يقول:

---

(١)انظر المصدر السابق، ط٢ ،ص١١٧ .

(٢) مفردها جعل: نوع من الخنافس.

(٣)التوحيدي، مثالب الوزيرين، ط٢، ص ٢٠٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" أفهذا مِنَ التَشّيعِ والوَلاءِ وما يَجِبُ لِهذَا البَيتِ . ثم يَدعَي أنّهُ زيدي، فإذَا قرَضَ قَـصيدةً غَلا وَزَادَ عَلى العُوفي والناشئ[١].

ومن المساوئ التي وجدها التوحيدي في الصاحب بن عبَّاد، بذاءة لسانه، وحدته في الكلام مع الآخرين، فيروي التوحيدي أن الصاحب خرج يوماً من عند مؤيد الدولة فرأى عجوزاً قـد مدت يدها، ويبدو أنها تريد المعونة، أو قضاء حاجة لها، وقد دعت للصاحب بأدعية حسنة، فلم يعجبه سؤالها ولا طلبها، فقذفها بكلام لا يحسن بوزير مثل الصاحب أن يتفوه به، حيـث قـال التوحيدي:

"خَرَج يَوماً مِنْ دار مُؤيّد الدْولةَ مِنْ بَاب غَامِضٍ هَرَباً مِنْ قَومٍ كَانُوا يَرقَبُونَهُ عَلى البَـاب المشهْورِ مِنَ السَّحَر الأَعْلى، وَهُوَ وَحْدَهُ بَيْنَ يَدّيهِ رِكابي، فَعرَفَتْهُ عجوزٌ فَقَامَـتْ فـي وَجهـهِ، وَدَعَتْ لَهُ، وَمّدتْ يَدَهَا بِقصَة مَعَها، فَقال: ما تُردينَ يا بْظراء، يَا بَخْراء ، يا عَفْلاء، يَا فَقْماء[٢]. عَلى هَذا إلى أَنْ تَبَاعَدِ، فَبَقيتِ العَجوزُ مَبهوتَةً وَقَالتْ: مِسْكينٌ هَذَا الرّجُلُ قد جُن، فَقُلْتُ لِـبَعْضِ أَصْحَابه: مَا هَذا النذْلُ[٣] والفَحْشُ والخِفةُ والطَيش؟ فَقَال: هذا دَأْبُه إذا جَاع! فَقلْتُ: أَجاع اللّه كِبدَهُ وَسَلَبَهُ نِعمَتَهُ[٤].

ومن المساوئ التي بينها التوحيدي في الصاحب، تحُدثه بالأحاديث والقـصص الـسخيفة التي يتنزه عنها الرؤساء ويذكر مثالاً عليها حيث يقول:

---

(١)انظر المصدر السابق ص٢٠٥ .

(٢) بخراء: طويلة البظر/ بجراء: كريهة رائحة الفم/ عفلاء: من العفل وهو شيء يخرج من قبل النساء. فقماء: مؤنث أفقم وهو من تقدمت ثناياه العليا فلا تقع على السفلة.

(٣) النذل(هذه المعاني من جهد المحقق): الوسخ والقذارة.

(٤)التوحيدي، مثالب الوزيرين، ص٢٠٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"ومِنْ أَحادِيثه السَخيفَة التي يَتَنَزَهُ عَنْها الْرؤَسَاءُ قَال: قَالَ عُبَادة: اخْتَصَمَ الحِرُ والجُحْرُ في الجلدةَ التي بَيْنَهُما، فَكَانَ كُلٌ يَدَّعيهَا فَتَقَدما إلى الأَكْبر فقال: لَيْسَت لأَحَدِكُمَا، قالا: فَلِمَن هِي؟ قَالْ: هِيَ لي إذَا دَخَلْتُ حَطَطْتُ عَلَيها رَحْلِي، وإذَا خَرَجْتُ اسْتَرْحتُ عِنْدَها مِنْ كَربي"(١).

وكان طبعه السُخف والمجون والرواية عن أصحاب الفكاهة والنوادر، ووضع الأحاديث الفاحشة الكاذبة عن بني ثوابة، ويتكذب على اليزيدين، ويقول:

" وَكانَ دَيْدَنُهُ السُخْفَ والخَلاعَةَ والمُجُون، والرِواية عَنْ مَزْبِّد المَدَني ، وأبي الحَارِثَ جُمَّيز(٢)، وعُبّاد وجَحْظةِ ونَضلةِ بَراليك وَمَنْ أَشْبَهَ هَؤُلاءِ.

وَكَانَ يَضَعُ أَحَاديثَ مَنَ الفَواحِشِ على بني ثوابةَ ويَرويهَا عَنْهُم، وَيَسمهُم بِهَا، وَكَان القُومُ مُعاذينَ مِنْها على مَا حَدَّثَنا شُيوخٌ جلّة كُرِماء، لَهُمْ دِينٌ وَمُروءة، وَكَانَ يَتّكذَبُ عَلى اليزِيدين وغيرِهم، وَكَان أَكثرُ هَذا فِيه، وإنّما كانَ يتّحَدَثُ بِمِثْلِه تَبرءاً ونَزَاهَة، وَكانَ أَدْنَسَ مِنَ الخِنْزير"(٣).

إن التوحيدي يناقض نفسه، فهو يقول إنه ليس الوحيد الذي عاب على ابن عباد ونقده، بل وجه إليه أبو راغب العتبي رسالة عاتبه فيها على تصرفاته السيئة، وهو يخاطب القارئ ويطلب منه أن لا يتسرع في الحكم على ابن عباد بالعيوب التي فيه، فالتوحيدي يكشف كذبه واختلاقه على ابن عباد ويقول للقارئ لا تتسرع في العيب على هذا الرجل حتى تتبين صدقه، وسنأتي لذكر ما قاله العتبي عن الصاحب لاحقاً إن شاء الله تعالى ، فقد قال أَبُو حَيّان:

---

(١)انظر المصدر السابق، ص١٢٣ .

(٢) في الأصل جُمّين، ويرجح صاحب القاموس والأغاني جميز، وهو من أرباب النوادر والفكاهة، عاصر الجاحظ ودعبل، انظرالأغاني ،ج١،ص٨٣ ،ج٥،ص١٩٢ .

(٣)انظر المصدر السابق، ص١٢٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" ولمثل هذه الخِصَال كَتَبَ إِليهِ أَبو رَاغِبُ فَتىً مِنْ آل أبي جَعْفَر العُتْبي الوَزير بخُراسان رِسَالة هَتَكَهُ بِهَا، وأَنَا أَروِيها لِيَعلَمَ أَنّي لَمْ أَنْفَرِد بِتَهْجِينه، وَالنَكيرَ عَلَيه، بَلْ كُل حُرٍ كريم، وكُـلُ دينٍ مَذْكور، وَكلُ ذي مُروءةٍ ظَاهِرةٍ مَعي فِيمَا نَثَوتُ وَكرهتُهُ مِنَه، فَإِنْ لَم تَعْبأ بِما تَسْمع مِنّـي فاعبأ بِمَنْ لَعّلهُ عِنْدَكَ أَشّفَ مِنّي، ولا تتَسَرَع إلى عَيْبي هَذا الرّجُلِ بِما قَدْ دَوّنْتُهُ حَتّى يَتَبَيَنَ الأَمْرُ عَلى حَقّه وصِدْقِه[١].

ويزيد أبو حيان في تأليف الكلام على الصاحب فيقول: إنّهُ يَتَفَاخَر بِعلْمِه ومُنَاظَرتِهِ لِكِبَارِ عُلَمَاء النحو والأدب وإفادتهم بما لديه من علم ومعرفة، أكثر من الاستفادة منهم، وَهؤلاء العلماء هم: أبو سعيد السيرافي، وعلي بن عيسى، والمراغي، لكن أبا حيان عندما سأل السيرافي عـن كلام ابن عباد أنكره ونفاه، حيث قال: يَقُول، يَعني الصّاحب بن عَباد:

"دَخَلْتُ بغْداد فَلَقيتُ أبا سِعيدَ السيرافي، وعلي بن عيسى، والمراغي[٢]، وَناظَرتُ المراغي في عَسَى ولَعّلَ وَكَادَ وغيرَ ذلكَ فأُبرِزْتُ وذُكِرتُ وَأَشِير إليّ بالأَصَابِع، وفُسِحَ لي في المَجَامع، وكذلِكَ نَاظَرتُ فُلاناً وفُلاناً، وأفدْتُهم أكثرَ مِما اسْتَفَدتُ مِنْهم. وسألْتُ أنا أبا سِعيدَ عَنْ هَذا فَقَـال: سُبْحان الله! وَسَكَتَ اسْتِعظاماً لِهذَا الحديث وَنَفْياً لهُ وَهُوَ كما أَوْمَأ إليه"[٣].

إن التوحيدي غير محق في ذلك لأن العالِم لا ينبغي له أن يحتكر العلم لنفسه، بل عليـه إفادة غيره حتى لو كان غيره أكبر منه درجة في العلم، وما الخطأ في أن يُطلِعَ الـصاحب أبـا سعيد السيرافي أو غيره على ما لديه من علم، وإفادته بما هو جديد، فالعلم ليس متوقفـاً علـى

---

(١)التوحيدي، أبو حيان علي بن محمد بن العباس، ت٤١٤هـ ، له من الكتب مثالب الوزيرين،والإمتاع والمؤانسة،انظر معجم الأدباء، ج٥ ،ص١٩٢٣،وفيات الأعيان ،ج٥،ص١١٢،سير أعلام النبلاء،،ط٢، ص١٢٣ .

(٢) ابن المراغي هو أبو الفتح محمد بن جعفر الهمذاني وكان معلماً في دولة أبي منصور ، وكان حافظاً نحوياً بليغاً إخبارياً في نهاية الشرف والحرية ، وله من الكتب كتاب البهجة على مثال كتاب الكامل ،الإمتاع والمؤانسة ، أبو حيان التوحيدي ، ج١ ، ص ١٣٣ .

(٣)التوحيدي، مثالب الوزيرين، ص١٣٠-١٣١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القديم، بل على المرء أن يستفيد من القديم والحديث أيضاً، ويفيد غيره، لكن حسد التوحيدي من علم الصاحب هو الذي جعله يقول هذا الكلام على الرغم من أن التوحيدي لديه علمه ومعرفته وكتبه التي تعتبر مرجعاً أدبياً قيماً.

ويواصل أبو حيان التوحيدي الحديث عن مساوئ الصاحب، وكان منها تفاخره وغروره بنفسه، وتخويف الآخرين منه حيث قال:

"أنا الذَّعَافُ[١]لمن حَسَاني، والجَرّافُ لِمنْ عَصَاني، والجّحاف[٢] لِمَنْ عَنَانِي أو حرّك عِنَاني، أَخْمَصِي[٣] فَوقَ هَامة الدَهر، أين ابن الزَّيات مِنا[٤]؟ أين ابن خَاقَانَ[٥] من غُلامِنَا، يَعني أَبَا العبَّاس الضّبي، ومِنْ عَلي بن عيسى الحَشْوي، ومِنْ ابنِ الفُرات[٦]الأَرْعَن، ومِنْ ابن مُقْلَة الخّطاط؟ ومِنْ الحَسَنِ بن وَهَب[٧]الضّراط؟ هَل كَانُوا إلا دُونَنَا إذَا ذُكِرَتْ سِيَادَتُنَا، وشُوهِدَتْ سَعَادَتُنا؟ وُلِدْتُ والشعرى في طَالِعي، ولَوْلا رَبيعةَ لأدركتُ النُبوةِ، وَقَدْ أَدْرَكتُ النُبوةَ إذ قُمْتُ بالذّبِ عَنْها، والنّصْرَةِ لَها، فَمَنْ ذَا يُجارَينا، وَيُمارينا، ويُبارينا، ويُعادينَا، ويُضَارينَا، ويُسارِينَا، ويُشَارِينَا؟ وَكَاد الخَتْعمِي لا يَقْطَعُ هَذَا المَجْلِسَ لِطُولِ مَا مَرَّ فِيه، وَشدّةِ مَا أَهمّهُ مِنْه، فهَذا كَما تَرى"[٨].

---

(١) الذعاف: ساقي الذعاف وهو السم القاتل سريعاً.

(٢) جحف: جرف

(٣) أخمص القدم: ما لا يصيب الأرض من باطنها، وربما يراد به القدم كلها.

(٤) محمد بن عبد الملك بن الزيات الوزير الأديب المنشيء (١٧٣-٢٣٣هـ)، انظر وفيات الأعيان،ج٥،ص٩٤ .

(٥) الفتح بن خاقان بن أحمد بن غرطوح أديب وشاعر، وزير المتوكل وقتل معه سنة ٢٤٧هـ ،له من التصانيف:(كتاب الصيد والجوارح)،انظر معجم الأدباء ،ج٥، ص٢١٥٧ .

(٦) أبو الفتح الفضل بن جعفر بن محمد بن الفرات وزير المقتدر بالله العباسي، توفي سنة ٣٢٧هـ، انظر وفيات الأعيان،ج٣، ص٤٢٤ .

(٧) الحسن بن وهب بن سعيد بن عمرو بن حصين، كاتب وشاعر، كان معاصراً لأبي تمام والبحتري، توفي سنة ٢٥٠هـ، انظر وفيات الأعيان ، ج٢، ص١٥ .

(٨)التوحيدي، مثالب الوزيرين ص١٣٤-١٣٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالتوحيدي يرى أن الصاحب يفتخر بنفسه وأنه أحسن أدباً وأعظم مكانة من أشهر الكتاب والشعراء مثل ابن الزيات، وابن خاقان، وابن الفرات، وابن مقلة وغيرهم، ولا أحد يساويه في السيادة والعظمة والشهرة، وصفَةُ الغرور والعجب بالنفس موجودة في ابن عباد، وهي السبب الأكبر الذي أدى لوفاته.

ويتحدث التوحيدي عن غرور الصاحب في موضع آخر فيقول:

قَال يَعْنِي الصَاحِبَ بِنْ عَبَّاد (وأَيّ عَقْلٍ يَكُونُ لِمَنْ يقولُ: لِمَ يَكُنْ في الدَوْلَتَين الأُمَوِيةَ والعَبَاسِيَة مِثْلِي. وَهَذا الكَلامُ قَدْ دَوَّنَهُ في بَعضَ كُتُبه، وَقَدْ حَكيتُ هَذا بمدينةِ السّلام، فَسَمِعَهُ قَوْمٌ كِرام يَرْجِعُونَ إلى فَضْلٍ كثير، وَبَصائرَ حَسَنة، مِنْهُم ابنُ البقّالِ الشَاعر[١]، ومُحسن ابنُ التَنُوخي، وابنُ قَنّاش المَصْري، فضَحَكُوا وَهَزِئُوا وَشَعَّثوا عِرْضَهُ وَجَحَدَوُا مَحَاسِنَهُ التي لَوْ سَكَتَ عَلَيْها لَسَلِمَتْ لَهُ وَلا دَّعى في جُمْلَتِها أَكْثر مِمّا يدّعيه لِنَفْسِه. وَلِعُمْري ما كَانَ لَهُ مِمّنْ تَقَدّمَ في الدّولَتَينِ مِثْلٍ، ولا شَبيه، ولكِنَ في الخَلاعَة والمُجُون، والرَقَاعَةِ والجُنُون. قَال: وَمِنَ العَجَب أَنّهُ يَدَّعي العَدْلَ والتَوحِيد وهُو لا يُفيّقُ مِنْ قتلِ مَنْ ظَّنَ بهِ عَدَاوَتَه، والوقيعَةَ فيه، أو القَدْح في رقعهِ له، وإنْ كَانَ ذلِكَ الإنسانُ مِنَ الصَالحينَ وَالعَابِدين"[٢].

وهذا القولُ يُثبِتُ غُرور الصَاحِب، والتوحيدي يَنفْي تَفرّدَ الصَاحب وتميزه عن غيره من المشاهير في الدولتين الأموية والعباسية، ويقول إنه لا مثيل لـه فيهمـا، لكـن فـي الخلاعـة والمجون، والادعاء بالعدل والتوحيد، وهو لا يريد لأحد أن يتقدم عليه في شيء حتى لو كان من

(١) أبو الحسن علي بن يوسف نديم الوزير المهلبي، شاعر مجيد، اشتهر أيام عضد الدولة، أحضره المهلبي فأنشده بحضرة المتنبي فقال هذا: (ما رأيت ببغداد من يجوز أن يقطع عليه اسم شاعر إلا ابن البقال) – ورد ذكره في الامتـاع والمؤانـسة،ج ٢،ص٩٠، ١٩٥، ٢١٣ .

(٢)التوحيدي، مثالب الوزيرين، ص١٤٧ – ١٤٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصالحين والعابدين، وأنه إذا ظن بشخص يظهر له العداوة والبغضاء في كلامٍ أو تصرف، يهم يقتله وقدحه بالشتم والإيذاء.

ويذكر التوحيدي من مساوئ الصاحب، عدم كفايته، أي أن لقبه كافي الكفاة منفي عنه، لأنه لم يعرف شيئاً في الحساب، ولم يُجِب على كتاب من كُتب العمالة، ولم يناظر خائناً، ولا يعرف شيئاً في أمور الدولة وأنه لا عمل له سوى الحمق والجنون والتثني والتمايل والكلام بما ليس فيه فائدة، وأن الذي لقبه بكافي الكفاة على وهم وخطأ، يقول أبو حيان في ذلك :

" وإذا أَضْرَبَت عَلى بَاب الدّين، ورَجعْتَ إلى الكِفايةِ التي زَعِمَ أنّهُ بِها تَكَفّى، وأنَّهُ كَافي الكُفَاةِ، وأنّهُ واحِدُ الدُنيا! أهَل كَانَ يَعْرِفُ مِنَ الحِسَابِ بَاباً، هَلْ عَقَدَ جَماعَة، هَل عُقِدَتْ لَهُ فَتَكَلّم عَلَيْها، هَل قَرَأَ مُؤَامَرَةً[1]، هل عَرِفَ مِنْها حَدّاً، هَلْ أمْكَنَهُ أن يَحتّجَ عَلى عَامِل، أَو يُنَاظِرَ نَاظِراً، أَو يُخاطِبَ مُشْرِفاً، أو يَرْسُمَ في العَمَلِ رَسْماً، أو يُجيبَ عَنْ كِتابٍ وَاحدٍ في العَمَالة؟ وفيما يَتَعَلّقُ بِأَبْوابِ النَظَر في العِمارة، هَلْ نَاظَر خَائِناً مُقْتَطِعاً، أو اسْتَدْرَكَ مالاً مختلساً، هَل فَصَلَ حُكومةً بين كاتِبين، أو قَطَعَ خُصومةً بينَ جُنْدِيَيْن؟ هَلْ رَأَيْنَا ثَمَّ إلا الرَقَاعَةَ والتُدَفُقَ والجُنونَ والهَذَيَانَ والتَسايُلَ والتَمايلُ، والبَقْبَقَة والطَقْطَقَة، والقَرقَرة والبَرْبرَة، إلا أنّهُ غَلطَ فيه، ووَثَقَ به، ووَكَلَ إليه الرأي، ولَمْ يَؤْذَنْ لأحَد في تَحْريكه بِكَلمة، ولا في مُضادَاتِهِ بِحرف، حتّى تمَّ لَهُ ذَلِكَ كُلّهُ بأَسْهَلِ وَجْه مَعَ الجِدّ المُواتي، والأمْر المُنْقَادَ، وحُبَّ أَنْ يَعْتَقِدَ أَنّ ذَاكَ كِفَايةً في الصّنَاعَةِ، وحِذْقٍ في العَمل، وَسِعَةِ عِلْمٍ بالكتابةِ الديوانية، والرسومِ الخَراجيّة؟" [2].

ومما يدل على إعجاب الصاحب بنفسه أيضاً الإشارة إلى من يُعجب بنفسه ويغتر بأفعاله وأقواله، وينسى الصاحب ما يقوم به من الإعجاب والغرور بنفسه، فهو يعيب غيره ولا ينظر إلى ما في نفسه عن ذلك العيب حيث يقول التوحيدي:

---

(١) المؤامرة: مجموع الأوامر التي يصدرها السلطان في توزيع أرزاق الجند.

(٢)التوحيدي، مثالب الوزيرين، ص١٦٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" وكان لا يبعثهُ عَلَى هّذا النَّمط إلا الذَهابُ بِنَفْسِهِ والتّيهُ الذَي يَحُولُ بَينَــهُ وبَــيْنَ عَقلِــه، والعَجَبُ أنّهُ كَانَ يَعيبُ غَيْرَهُ بِجُزءٍ مِنْ هَذَا البَابِ لا يَتَجَزأُ ويقولُ: انْظروا إلى تيهِــهِ وَصَــلفِهِ وَمدْحِهِ لِنَفْسِهِ واسْتِبْدادِهِ برأيه، وَعَلَى هَذا حَتَى إذا صَارَ إلى نَفْسِهِ وَحَدِيثِهِ وَخواصِ أَمْرِهِ جَهَــلَ وَذَهِلَ وخَرَجَ في مَسْكِ[١] مَنْ لَمْ يَسْمَعْ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، ولَمْ يَفطنْ لَه، وَلَمْ يَأْبَه لِقْبحِه، ولم يَــأْنَف مِنْ شَنِيعه"[٢].

إن التوحيدي يركز على تفاخر الصاحب وإعجابه بنفسه، وعلى الوقاحة والمجون الــذي يتصف به، ويورد من الأدلة ما يؤكد ذلك ، ويروي التوحيدي أنّ الصاحب شنّع على ابن العميد أي قال كلاماً ليس هو قائله، ويزيد على ذلك بقوله، إنَّ الصَاحِبَ تشدد وبالغ في مخاطبته مــع الناس، ومطالبتهم بما لا يقدرون عليه، ويفوق حد طاقتهم، ويخرج عن عاداتهم، كما أنه يجــد اللذة والمتعة في تقلده أمور الولاية، ولولاها لعاش مثل غيره من الناس، وتبــسط فــي لباســه وطعامه، وفي كلامه حيث قال التوحيدي :

" هذا مِنْ تَشْنيعهِ عَلَى أَبي الفَضْل، وكَانَ مَعْ ذَلِكَ رُبَّما قَال: كَانَ واحدُ الدُّنْيا!وهَــذَا كَمَــا تَرَى وَهُوَ يَدْخُلُ في بَابِ المُناقَضَةِ، والأَمْرُ الذّي تُشَدَّدَ فيه – أَعْنِي ابنَ عَبّاد– وبَلَغ الحَدّ الأَبْعَــدَ مِنْه، وَزَادَ على جَمِيعِ الناسِ فيه: بَابُ المُخاطَبات، وأنّهُ كَانَ يُطَالِبُ أَصْنَافَ النّاسِ بِمَا لَيْسَ في الطَّاقَة، ولم تَجرِ به عادة، وَكَانَ يَقُول: هَذَا الذّي بِهِ أَجِدُ طَعْمَ ولا يَتِي، ولَولا هَذِهِ اللّذةُ والشَّهْوةُ مَا بَالَيتُ أَنْ أَتقلّبَ فِي مُرقّعَةِ خَلِق، وَثَوْبٍ رَثٍّ بَالٍ أَجُوبُ بِلادَ الله، وأَلْقى عِبَادَ الله، وآكُلُ رِزْقَ الله[٣].

---

(١) المسك: الجَلد

(٢)انظر المصدر السابق ص ١٧٨-١٧٩ .

(٣)التوحيدي، مثالب الوزيرين ،ص١٩٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويعيب التوحيدي على ابن عباد تغافله عن أموال الدولة، مما أدى إلى اختلاسها، وكان مفسداً للبلاغة والبيان، ويصف من يكتب إليه بصفة العبودية ويصف نفسه بصفة المولوية، كما أنه يخلط بين الأمور في الكتابة، ويخرج عن المعنى الذي يريد إيصاله، ويتضح ذلك في قول التوحيدي:

"ولَقَدْ خُدِعَ في هَذَا عَنْ أَمْوالٍ خَطِيرةٍ اختُلِسَتْ فَتَغَافَلَ عَنْها، إمّا عَنْ جَهْلٍ وجُنُون، وإمّا عَنْ غَيْرِهَما. وأَفْسَدَ البَيانَ والبَلاغةَ على النَّاسِ بِهَذَا السّبَب لأنّهُ كَانَ يَسُومُ كُلَّ مَنْ كَتَبَ إِليهِ أنْ يُكَنِّيَ عَنْ نَفْسِهِ بِالْعُبودِيَة، وعنه بِالْمَولَويَة، ثم يَعْرِضُ في هاتَيْنِ الكِنَايَتَيْن وكتَابةِ الحَديثِ والأَمْرِ والشَأْنِ.

وَمِنَ الحَديثِ عَنْهُ أوّلُهُ أَوْ فِيه، فَرُبمّا تَشَاجَرَتْ كِتَاباتٌ، وَتَداعَتْ مَعَانيها عَلَى الكَاتِبِ فَلا يَخْلُصَ إلى تحقيقِ مُراد، واسْتِبَانَةِ وَجْه، وَهَذا الذي أَقُولُهُ يَعْرِفُهُ مَنْ دُفِعَ إليّه، ودُهِيَ بِه"(١).

وذكر التوحيدي من مساوئ ابن عباد، أنه مفسد للعطاء، أي أنه يَمُّنُ في أُعْطِياتَه، وهباته، وأفعاله الخيرة، وأنه لو لم يكن كذلك لكان عطاؤه أكثر من ذلك، لكنه أفسده بالمَّنِ والتكبر، والحماقة، فهو يقول في حقه:

"سقى الله ابن عباد، فإنه وقف نفسه على الغرباء، وطلبهم بأكثر مما تعرضوا له، وسأل عنهم بأكثر مما رجوه فيه، ولولا أن كان يفسد هذه الأفعال بالرقاعة والتخيل والعجب والتطاول، وذكر الطعام والمائدة، وما يعطي ويهب لكان قليله أكثر من كثير ذلك، وصغيره أكبر من كبيره، ولكن لكل حسن مقبح، ولكل عزيز مذلل، ولكل جديدٍ مبلِ(٢).

(١)انظر المصدر السابق ، ص١٩٩-٢٠٠.

(٢)التوحيدي ، مثالب الوزيرين ، ص٢٩٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويبين التوحيدي مخازي الصاحب بن عباد من خلال ما سمعه من الخثعمي[١]الذي نعته بمثالب كثيرة ، فهو يجمع المخازي والمقابح والفواحش والغباء ،والوقاحة يقول :

" مَا رَأَيْتُ في طُول عُمْري، مع علوِّ سنيِّ، وكَثْرَة تَجارِبي؛ وشِدَّةِ تَتَبُّعي رَجُلاً أجْمَعَ لِلْمِخَازي والمقابِح والرَّقَاعَات والجَهَالاتِ والخَساسَاتِ والفَواحِشِ والخَبَائِثِ مِنْ ابن عَباد، أفيَلُ النّاسِ رَأياً إذَا ارتَأَى، وأَنْكَلُهُمْ عَنّ الخَصْمِ إذَا تَراءى، وأَقَلُّهُم وَفَاءً لِمَنْ جَعَلَهُ اللهُ ولِيَّ نِعْمَتِهِ، وَأَوْقَحُهُمْ وَجْهاً مَعْ كُلّ إنْسَان، وأَحَدُّهُمُ لِساناً بِكُلَّ خَنىً وفُحْشٍ، وأَحْسَدُهُم لِنَظِير، ولَمِنْ دُونَ النَظِيرِ، وأَسْعَاهُم بِالْفَسَادِ عَلى الصَغيرِ والكَبير، وأَخْطَبُهم [٢]على الدِين، وأضَرُّهُمَ لِلْمُسلِمين، وأَفْجَرُهُم مِنْ بَيْنِ العَالَمينِ"[٣].

فالصاحب في نظره شخص يشتمل على جميع الفواحش والسيئات، والرذائل، وهو وقح مع غيره وقليل الوفاء والإخلاص لمن أحسن إليه، وحادٌ في كلامه إذا غضب من أحد، وحاسد لمن هو مثله أو دون مستواه، ويسعى في الفساد على الصغير والكبير وهو مضرٌ للمسلمين، وهو جالبٌ للمكروه.

ثم يسأل أبو حيان التوحيدي عن سبب اتصاف ابن عباد بهذا كله، فيقول الخثعمي:

" لم يَبقَ فيمَنْ فَوْقَهُ مَنْ يَنْتَقِد، ولا فَيمَنْ دُونَهُ مَنْ يُزَاحِم، فَقَدْ خَلا لَهُ الجّوُ فَهُو يَبيضُ ويَصْفِرُ، وَيَتَمَطّى ويَبُوع[٤]، ويَقُولُ سَبْعاً في ثَمَان، لم يَذَلَّ لِأَحَدٍ وذَلَّ لَه كُلُّ أَحَد، وَأَمَر كُلّ إنْسَانَ وَمَا نَهاهُ إنْسَان، وضَرَّعَ إليهِ كُلُّ مُحتَاج وَمَا احتاجَ إلى غَيْرِه، نَشأَ على البطرِ والحُبون، وَعَلَى الخَلاعةِ والمُجون"[٥].

---

(١) الخثعمي، محمد بن عبدالله أو عبدالله ابن محمد ، له من الكتب : (كتاب الشعر والشعراء)،انظر الفهرست لابن النديم ص١٢٢ .

(٢) الخطب :الامر المكروه

(٣)انظر المصدر السابق، ص١١٨-١١٩ .

(٤) باع يبوع: بسط يده ومدّ باعه.

(٥) التوحيدي، مثالب الوزيرين،ط٢،ص١١٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذا كلام أبي حيان في الصاحب بن عبَّاد، وقد أساء كثيراً في وصفه وتجريده من كل فضيلة وخلق حسن، كما بالغ كثيراً في التلفيق والكذب واختلاق الكلام عليه، فرأينا أنه وصفه بالغرور واللؤم، والرقاعة والجنون، والبخل والغضب، وعدم الكفاية، وغيرها من الصفات المشينة بالمرء، لكَّن الصاحب لم يكن كذلك فقد ذكر (بدوي طبانة) في كتابه (الصاحب بن عباد الأديب الوزير العالم) أنه كان يُعرف بمكارم الأخلاق، حيث كان مانحاً للعلم والمال لمن كان يقصده من العامة والخاصة، وقد تعود على ذلك منذ صغره اذ كانت والدته تعطيه في كل يوم ديناراً ودرهماً، الأول للنفقة، والثاني للتصدق على الفقراء، وكان يتخلق بِخلق الترفع والاعتزاز بالنفس، فهو كبير مع الصغار، وكبير أيضاً مع الكبار، ولكنها الكبرياء المترفعة لا الكبرياء البغيضة المتعجرفة، بل إننا لنراه في كثير من المواقف يتلطف لمن هم دونه، ويكبر من شأنهم، ويعلي من نفوسهم، واستطاع الصاحب بذلك أن يجعل للأدب دولة، وللأدباء مقاماً ودولة"[١].

وبلغت هيبة الصاحب في الصدور، ومخافته في القلوب، وحشمته عند الصغير والكبير، والبعيد والقريب، إلى درجة أن كان صاحبه فخر الدولة ينقبض عن كثير مما يريده بسببه، ويمسك عما تشره إليه نفسه لمكانه. وقد ظهر ذلك للناس بعد موت الصاحب، وانبساط فخر الدولة فيما لم يكن من عادته، فَعُلِم أنه كان يزمُّ نفسه[٢] لحشمته... ثم كان يحله محل الوالد إكراماً وإعظاماً، ويخاطب بالصاحب شفاهاً وكتاباً.

فأما أكابر الدولة فكان الواحد منهم إذا رأى أحد حجَّابه، بل أحد الأصاغر من حاشيته فإن فرائصه[٣] كانت ترتعد، وجوانحه كانت تصطفق[٤]، إلى أن يعلم ما يريده منه، ويخاطبه به.

---

(١) بدوي طبانة ، الصاحب بن عباد الأديب الوزير العالم ،وزارة الثقافة والإرشاد القومي ،المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، ص١٢٦ .

(٢) أي يمنع نفسه من الانبساط، يقال (زم البعير) أي خطمه.

(٣) الفرائص جمع فريصة، وهي لحمة بين الجنب والكتف، وعصب الرقبة وعروقها لأنها تثور في الغضب.

(٤) اصطفقت جوانحه : اهتزت واضطربت.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويروي ياقوت ما يخفف عن الصاحب بعض مثالب التوحيدي ، بل يشهد له بحسن السيرة، فقد تظلمت إلى الصاحب امرأة من أحد أصحاب فولاذ بن مانادر، وذكرت أنه ينازعها في حق لها، فما زاد الصاحب على أن التفت إلى فولاذ، وكان في موكبه يسير خلفه، فبهت وتحيَّر، وارتعد ووقف، ولم يبرح إلى أن سار كافي الكفاة، ثم أرسل إلى المرأة من أرضاها، وأزال ظلامتها"[١].

"وكان الصاحب بن عباد إنساناً وديعاً متواضعاً مع أهل العلم والأدب، يحيطهم بلطفه، ويرعاهم ببرَّه، وكأن هذه الطبقة هي طبقته الأصلية، ومعدنه الجيد الذي يعتز بالانتساب إليه، ويرى أنه إذ يكرمهم يكرم نفسه، لأنه يكرم علمه وثقافته وأصله الذي ينتمي إليه، ويستمد منه القوة والحياة"[٢]. كما كان الصاحب بن عباد دمث الخلق، ورقيق القلب، ولا يستحل قتل النفس التي حرَّم الله إلا بالحق، ولا يستحق العقوبة لقطع الأرزاق، ويبين(بدوي طبانة) صاحب كتاب (الصاحب بن عباد الوزير الأديب العالم) أن التوحيدي يُحتمل أن يكون كلامه عن الصاحب غير صحيح، أو يبدو أنه افتعله واصطنعه ليشوه سيرته ويشكك بأدبه وأخلاقه، فلم نجد فيما قرأنا من الكتب التي ترجمت للصاحب بن عبَّاد مثل هذا الكلام المبالغ فيه، الذي رواه أبو حيان، فقد كان أبو حيان مولعاً بتأليف الحكايات والروايات المنظومة بخياله الواسع وكلامه الطريف. ولقد ذكرنا سابقاً أن أبا حيان اتصل بالصاحب بن عبَّاد وأغلب الظن أنه كان يهدف من اللجوء إلى الصاحب، صحبته والاستظلال بكنفه، والاستماع إلى الأدباء، والحكم بين الشعراء ومناقشته العلماء، وإبراز علمه، ليشتهر ذكره بين الآفاق، ويُوَدِّع مهنة الوراقة التي سببت له الخمول والشؤم، فقد عرف أبو حيان أن باب الصاحب مفتوح لكل قاصد وطامح للعلم والمعرفة لكن

(١)ياقوت الحموي ، معجم الأدباء،ط١ ج٦، ص٢٤٨ .

(٢)بدوي طبانة ، الصاحب بن عباد الأديب الوزير العالم ، ص ١٣٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصاحب صَدَّهُ وأحبط مواهبه وتطلعاته التي تمناها على حدَّ قوله فما كان من أبي حيـــان إلا أن ألَّف في حقه كتاب (مثالب الوزيرين).

ويبين التوحيدي أسباب حقده على الصاحب من خلال ذكر مواقف تكشف عما كان يدور بينهما من صراع ، و فيما يلي بيان لذلك :

١- عندما لجأ إلى الصاحب مرتحلاً من بغداد ليتخلص من حرفة الوراقة التي لم تكـــن كافيةٍ لعيشه، استقبله الصاحب فسأله عن اسمه فأجابه، ثم قال له الصاحب: بَلَغَنِي أنّكَ تَتَأَدَب...

فَقَالَ أبو حيّان: تَأَدُّبَ أهلَ الزمان!

فَقَال الصاحب: " أبو حيّان" ينصرف أولا ينصرف؟

فَقَال أبو حيّان: إنْ قَبِلَهُ مولانا لا يَنْصَرف!

فلّما سَمِعَ الصاحِبُ هذا تنمّر، وكَأَنَّهُ لَمْ يُعْجِبْهُ...

ثُمّ قَالَ لأبي حَيّان: الْزَمْ دَارَنَا، وانْسَخ هَذَا الكِتَابَ...

فَقَالَ أبو حيّان: أَنَا سَامِعٌ مُطيع...

ولكّن التوحيدي لم يُعْجِبْهُ أَنْ يَنْسَخَ الكِتَابَ وظَنَّ أنّهُ تَخلّصَ مِنْ هَذِه المهنة، وأسمع بعض المقيمين في دار الصاحب: إنّمَا تّوجَهْتُ مِنَ العِراقِ إلى هَذا البَاب، و زَاحَمْـتُ مُنْتَجعـــي هَـــذَا الرّبيعَ لأتخلّص مِنْ حِرْفةِ الشُؤمِ، فإنّ الوِرَاقةَ لَمْ تَكُنْ بِبَغْدَادَ كَاسِدة!! فلمّا سمع الصاحب بهـــذا الكلام ازداد تنكراً وتعجباً من التوحيدي(١).

٢- سأل الصاحِبُ التوحيدي يوماً: يَا أَبا حيّان مَنْ كَنّاكَ بأبِي حيّان؟ فَأَجَابَهُ: أَجَلُّ النّـــاسِ في زمانهِ، وَأَكْرَمُهُمْ في وَقْتَهِ؟

فَقَالَ لَهُ الصَّاحِب: وَمَنْ هُوَ؟ ويْلَكْ..

(١)التوحيدي، مثالب الوزيرين، ص٢١٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فَقَالَ لَهُ أبوُ حيّان: أَنْتَ!

فَقَالَ الصاحِب: ومَتَى كَانَ ذَلِك؟

فقالَ أبو حيّان: حَينَ قُلْتَ.. يا أَبا حيّان، مَنْ، كنّاكَ بأبي حيّان" ؟!

فَأَضْرَبَ الصَّاحِبُ عن هَذا الحَديث، وأَخَذَ في غَيْره، على كَراهةٍ ظَهَرتْ عَلَيه[١]، ويتضّحُ مِنْ هَذا الكلام أنّ الصاحِبَ يَسْخَرُ مِنْ كنيةِ أبي حيّان.

٣- وسَأَلَهُ في يومٍ آخَر عن معرِفتهِ بِمَنْ يُكنى مِثل كُنيته؟

فَأَجَابَهُ قائلاً: أَعْرِفُ أَبا حيّانُ الدّارمي، وأبا حيّانَ ابن الجَعابي الحَافِظ، وأبا حيّانَ الـذي ذُكِرَ في قَوْلِ الشَاعِر:

لَوْ أنّ حيّا نجا لَفَاتَ أَبُـــــو

حيّانَ لا عَاجِزٌ وَلا وَكِلُ[٢]

الحُوَّلُ القُلَّب الأَرِيبُ وَهَــلْ

يَدْفَعُ صَرْفَ المنيّة الحِيَلُ[٣]

إذ كَان أَبُو حيّان الدّارمي مِنْ أَهْلِ البْصرَة، وَكَانَ ابنُ الجَعَابي الحَافِظ رَجُلَ صِدْقٍ يروي عن التابعين، أمّا أبو حيّان الثالث فَكانَ يتصف بالقدرة على التصرف فـي الأمـور والبـصير بمعرفتها، فَاكفْهّرَ وَجْهُ الصاحِب ولَمْ يَتَقَبلْ كلامَ التوحيدي، ويبدو أنَّ التوحيدي كَانَ يَجِدُ نفـسه أحد هَؤلاء الثلاثة.

---

(١)التوحيدي، مثالب الوزيرين ، ص٢١٢ .

(٢) الوكل: البليد الجبان العاجز .

(٣) الحول: ذو القوة والقدرة على التصرف، والأريب البصير بالأمور ـــ الأبيات ليزيد بن معاوية عندما حضر الموت أباه معاوية ، مثالب الوزيرين، ص٢١٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤- أمر الصاحبُ أبا حيان يَوماً بِنَسْخِ ثلاثين مجلّداً مِنْ كُتُبهِ ورسائله، فَرَأى ذلِكَ عِبئــاً عليه واقترح أن ينسَخ لَهُ من هذه الكُتب بعض الفِقر التي لو رقي بها مجنونٌ لأفــاقَ، أو نفــث على ذي عاهة لبَرِئ، فلّما سَمِعَ الصاحب ذلك اعتقد أنّ أبا حيّان يطعن في رسائِلِهِ ويَعيبها، فما كان منه إلا أن توّعَد أبّا حيّان وقال: واللهِ لِيَنْكِرَنَّ منّي مَا عَرَف، ولَيَعرِفَنّ حَظهُ إذا انْصَرف[١].

٥- وسأل الصاحب أبا حيان يوماً عن اتصاله بابن العميد، فأبدى أبو حيان معرفتــه بــه وحضوره مجالسه، ومعرفة أخباره، وما قاله في المدح، وذكره في أهل العلــم والأدب، وعــن اتصاله بأبي سعيد السيرافي، فعندما سمع الصاحب بمدح أبي حيّان لابن العميد تغير لون وجهه وأنكر ما حدثّه به، وغيّر الحديث إلى حديثٍ آخر، وطلب منه قراءة الرسالة التي توسّــل فيهــا لابن العميد، فقرأها عليه، فتغير واستعجب، وأبو حيّان يبين في هذا الحديث غيرة الصاحب من ابن العميد وكرهه لما يمدح به، لكن أيكره الطالب أستاذه لأنه مُدح وفضِل عليه؟

إنّ التوحيدي يريد أن يدلل على خبث مخبوء في نفسية الصاحب الذي كان يكره أهــل الفضل حتى لو كان ذلك أستاذه.

٦- يذكر ابن الصابئ في كتاب (الهفوات)، أنّ التوحيدي حضر مائدة الصاحب بن عبــاد يوماً فقدمت مضيرة[٢]، فقال له الصاحب: يا أبا حيان، إنها تَضُرُّ بالمشايخ! فقال التوحيدي: " إن رأى الصاحب أن يدع التطبب على طعامه فعل"! فكأنني ألقمته حجراً وخجل واستحيا، ولم ينطق إلى أن فرغنا. [٣]

---

(١)التوحيدي، مثالب الوزيرين ص٣١٦

(٢) المضيرة: مريقة تطبخ باللبن المضير أو الحليب، واللبن المضير الحامض منه.

(٣)الهفوات النادرة ، غرس النعمة أبي الحسن محمد بن هلال الصابئ ،ط١،تحقيق القدس للدراسات والبحوث ،المكتبــة الازهريــة للتراث ،القاهرة،ص٣٤٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٧- ومن القصص التي حدَّث بها التوحيدي و التي جـرت بينـه وبـين الـصاحب، أنّ الصاحب تلكأ يوماً في قبول شيء كان قد أعطاه إيّاه رجلٌ ما، وقال لابد من شيء يُعين علـى الدهر، (وقوله هذا عجز بيت من الشعر)فسأل الصاحب عن صدر هذا البيت فلم يجبه أحد، فقال التوحيدي إنه يعرفه، فنظر إليه الصاحب بغضب وقال: ما هو؟ فقال أبو حيان: نـسيت، فقـال الصاحب: ما أسرع ذكرك من نسيانك، فقال التوحيدي: ذكرته والحال سليمة، فلما استحالت عن السلامة نسيت! قال الصاحب: وما حيلولتها؟ قال التوحيدي: نظر الصاحب بغضب، فوجب فـي حسن الأدب ألا يقال ما يثير الغضب! قال الصاحب: ومن تكون حتى نغضب عليك ؟ دع هـذا وهات:

قال التوحيدي: قول الشاعر:

أَلامُ عَلَى أَخْذِ الْقَلِيلِ وَإِنَّمـــــــا

أُصَادِفُ أَقْوَاماً أَقلَّ مِنَ الذَّرِّ

وَأَدْفَعُ عَنْ أَمْوَالِهِمْ وَنُفُوسِهِـــــمْ

وَلابُدَّ مِنْ شَيءٍ يُعِينُ عَلَى الدَهْرِ[١]

٨- قال الصاحب يوماً: " فَعْل " و " أَفْعَال " قليل[٢]، وزعم النحويون أنه ما جاء إلا زنـد وأزناد، وفرخ وأفراخ، وفرد وأفراد!

فقال أبو حيان: أنا أحفظ ثلاثين حرفاً كلها فَعْل وأَفْعَال[٣].

فقال الصاحب: هات يا مدّع!

---

(١)التوحيدي، مثالب الوزيرين،ط٢ص٢٩٩.

(٢) يريد أن ما جاء من الأسماء على وزن "فعل " مجموعاً على وزن " أفعال " قليل.

(٣) أي أعرف ثلاثين اسماً على وزن " فَعْل " جمعت على وزن " أفعال ".

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قال أبو حيان: فسردت الحروف، ودللت على مواضعها من الكتب، ثم قلت: ليس للنحوي أن يلزم مثل هذا الحكم إلا بعد التبحر والسماع، ليس للتقليد وجه إذا كانت الرواية شائعة والقياس مطرداً. وهذا كقولهم: " فَعِيل " على عشرة أوجه، وقد وجدته أنا يزيد على أكثر من عشرين وجهاً، وما انتهيت في التتبع إلى أقصاه. فقال له الصاحب: خروجك من دعواك في " فَعْل " يدلنا على قيامك في " فعيل " ولكن لا نأذن لك في اقتصاصك[١]، ولا نَهبُ آذاننا لكلامك، ولم يف ما أتيت به بجرأتك في مجلسنا، وتبسّطك في حضرتنا... [٢].

فما كان من الصاحب إلا أنّ أهان التوحيدي أمام الحاضرين ونفى ما قاله واستهزأ بما وضَّحه من أمثلة، وهذا مما أدى إلى غيظ التوحيدي من الصاحب.

إن هذه المواقف هي التي أدّت بالتوحيدي إلى أن يعتبرها أسباباً للحقد على الصاحب وتأليف الحكايات والكلام الذي يسيء إليه، والذي زاده غيظاً أنّ الصاحب لم يعطه أجر ما خدمه من الكتابة والنسخ، وهي مهنة شاقة لكنها حافظت على عمل الصاحب من كتب ورسائل، ولم يكن أجره خلال السنوات الثلاث التي أقامها عند الصاحب سوى الطعام الذي يحفظ صحته والثياب التي تَكسوه.

وأرى أن كلاً من الصاحب والتوحيدي لم يُقَصِّر في حق الآخر في الكلام والمعاملة، فالصاحب لا يحب أن يكون في مجلسه من هو أعلى منه، حيث رأى عند التوحيدي علماً ودراية ليست عنده كما هو الحال في إخباره عن الأسماء التي تُجْمَع على وزن الأفْعَال، وصدر البيت الذي لم يعرفه أحدٌ غير التوحيدي وكان رَدُّ الصاحب قاسياً بقوله لا نقبل اقتصاصك،ولا نهب آذاننا لك، فقد كَرِهَ الصاحب أن يتكلم أبو حيان كما يشاء كون الصاحب رئيس مجلس العلم، لكن هذا مجلس علم ويجب أن يأخذ برأي الحاضرين فيه، ويبدو أن طريقة التوحيدي في عرض ما

(١) أي فيما تقصه علينا.

(٢) انظر المصدر السابق، ص١٦٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يعرفه من علم على الصاحب لم تكن متواضعة، بل كانت طريقة العالم المستعلي الذي يـرى أن ما عنده ليس عند غيره، مما أدى به إلى الزهو والتفاخر ونفور الصاحب منه، كما كان الصاحب إذا سأل أبا حيان عن سرّ بلاغته وجودة كلامه، كان أبو حيان يجيبه بأنه استقى ذلك من ثمـار علمه ورسائله القيمة، فيقول له الصاحب في خشونةٍ: كذبت وفجرت، كلامي في السماء وكلامك في السماد.

كما كان للسعاة دورٌ في إفساد العلاقة بين الصاحب بن عباد والتوحيدي، حيـث كـانوا يشعلون نار الفرقة بينهما، فقد كان أبو حيان يُطلق لسانه بصراحة في نقد بعض ما كـان مـن الصاحب، وضجره بالعمل، وهذا واضحٌ في قوله: " قلت لبعض الناس في الدار مسترسلاً: إنما توجهت من العراق إلى هذا الباب، وزاحمت منتجعي هذا الربيع لأتخلص من حرفة الشؤم، فان الوراقة لم تكن ببغداد كاسدة.. فنمى إليه هذا أو بعضه، أو على غير وجهه ، فزاده تنكراً".

ب ــ صورة الصاحب بن عباد في نظر أبي حيّان التوحيدي من خـلال كتـاب الإمتـاع والمؤانسة

لقد وجدتُ ذكراً للصاحب بن عباد في كتابٍ آخر لأبي حيّـان التوحيـدي وهـو كتـاب (الإمتاع والمؤانسة)، حيث تضمّن هذا الكتاب (٤٠) ليلة، كان الوزير ابـن سـعدان[١] يـسأل التوحيدي في كل ليلة عن شيء من الأشياء مثل الطبيعة والحيوان، أو عن أديب من الأدبـاء أو كاتِب من الكتّاب، وكان الصاحب بن عباد أحد الأشخاص الذين سأل عنهم ابن سعدان، وقد سأل التوحيدي عنه كونه أقام عنده وحضر مجالسه وعرض مَنْطِقَهُ وبلاغته، قال الوزير في سؤاله:

" إنّي أريد أن أسألك عن ابنِ عبّاد فَقَدْ انْتَجَعْتُهُ وخَبرْتُهُ وحَضَرْتُ مَجْلِسَه، وعَنْ أَخْلاقِـهِ وَمَذْهَبِهِ وَعَادَتِه، وَعَنْ عِلْمِهِ وبَلاغَتِه، وَغَالِبِ مَا هُوَ عَلَيه، وَمغْلُوبُ مَا لَدِيهِ، فَمَا أَظُنُّ أَنِّي أَجِـدُ

(١) ابن سعدان أبو عبد الله محمد بن عبد السلام بن عبد الله بن عبد الرحمن بن سعدان سمع جمح بن القاسم وغيره و حدث عنـه عبد العزيز الكتاني وروى عنه عبد الكريم السلمي ، أنظر سير أعلام النبلاء ، ج ١٧ ، ص ٦٣٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مِثْلَكَ في الخَبرِ عَنْه، والوَصْفِ لَه، عَلى أنِّي شَاهَدْتُهُ بِهَمَذانَ لَمَّا وافَى، ولكنّي لَمْ أَعْجُمْــه، لأَنَّ اللبْثَ كَانَ قَليلاً، والشُغْلَ كَانَ عَظِيماً، والعَائِقَ كَانَ واقعاً "(١).

فالوزير ابن سعدان لم يجد شخصاً أقدر على وصف الصاحب بن عبّاد من أبــي حيّــان التوحيدي، فإنّ إقامته عند الصاحب بن عبّاد مدّة ثلاث سنوات تكفي لمعرفته ومعرفة أخلاقه.

فَكانَ جواب أبي حيّان التوحيدي مصرّحاً بظلم الصاحب له ومعاتباً له لمــا عاملــه بــه، ومُغتاظاً لما حَرَمه إيّاه من الأجر مقابل خدمته له، كما صرَّح برســالة الــوزيرين، أي كتــاب (مثالب الوزيرين) قال التوحيدي:

"إنّي رَجُلٌ مَظْلُومٌ مِنْ جِهَتِه، وعاتِبٌ عَلَيهِ في مَعَامَلَتي، وشَــديدُ الغَــيْظِ لحِرْمَــاني، وَإنْ وَصَفْتُهُ أَرْبَيْتُ مُنْتَصِفاً، وانْتَصَفْتُ مِنْهُ مُسْرِفاً، فَلَوْ كُنْتُ مُعْتَدِلَ الحَالِ بَيْنَ الرضَا والغَــضَب، أَوْ عَارياً مِنْهُمَا جُمْلَة، كَانَ الوصْف أَصْدَق، والصِدْقُ بِه أَخْلَق؛ عَلى أنّي عَمِلْتُ رِسَالَةً في أَخْلاقِــهِ وأَخْلاقِ ابْنِ العَمِيدِ أَوْدَعْتُهَا نَفَسي الغَزير، ولَفْظِي الطَوِيلَ والقَصير"(٢).

إنَّ الرَجُلَ كَثيرُ المَحْفُوظِ حَاضِرُ الجَوابِ فَصيحُ اللِّسَانِ، قَدْ نَتَفَ مِــنْ كُــلِّ أَدَبٍ خَفِيــفٍ أَشْيَاء، وَأَخَذَ مِنْ كُلِّ فَنٍ أَطْرافاً، والغَالِبُ عَلَيْهِ كَــلامُ المُتَكَلِّمِــينَ المُعْتَزِلَــة، وكِتَابَتُــهُ مُهَجّنَــةٌ بِطَرَائِقِهِمْ، ومُنَاظَرَتُهُ مَشُوبَةٌ بِعِبَارَةِ الكُتَّابِ، وَهُو شَدِيدُ التّعَصُبِ عَلى أَهْلِ الحِكمَةِ والنَاظِرِينَ فِي أَجْزائِهَا كَالهَنْدَسَةِ والطِّب والتَنْجِيم والمُوسِيقَى والمَنْطِقِ والعَدَدِ، ولَيْسَ لَهُ بِالجُزْءِ الإلَهِيِّ خَبَــر، وَلا لَهُ فِيهِ عَيْنٌ وَلا أَثَر؛ وَهُوَ حَسَنُ القِيام بِالْعَروضِ والقوافي"(٣).

فقد وصفه في بداية كلامه مَادحاً له وذاكراً أحسن صفاته فهو كثير الحفظ، سريع البديهة وفصيح اللِّسان، وعنده معرفة من كل أدب وفن، فقد أَلّفَ في مختلف مجالات الأدب والمعرفــة

(١)التوحيدي، مثالب الوزيرين،ج١، ص٣٥ .

(٢)التوحيدي ، مثالب الوزيرين ،ص٣٥ .

(٣)انظر المصدر السابق ص٣٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما أسلفنا، ويغلب عليه كلام المعتزلة، ويتّبع أسلوبهم في الكتابة، وهو شديد التعصّب على أهلَ الحكمة، وبارع في علم العروض، ثم يبدأ بوصف الصاحب بن عبّاد سلباً واتهامه بأنــه يــنظم الشعر لكن ليس بذلك الشعر الجيد، ويصف روايته بالضعف، ويذكر طالعه وهو الجوزاء، وأنّ مذهبه التَشّيُع، ويصفه بعدم الرحمة، والتَسلّط والجرأة، وشدة إيقاعه العقوبة بالآخرين، وقلة ثوابه لمن يحسن إليه، وكثير المعاتبة، وبخيل لا يعطي إلاّ القليل، سريع الغضب ومتشائم وحاسد لأهل الفضل والكفاية حيث يقول التوحيدي:

"يَقُولُ الشِعْرَ ولَيْسَ بِذَاكَ، وَفِي بَدِيهَتِهِ غَزَارة، وَأَمَّا رَوِيَّتَهُ فَخَوّارَة، وَطَالِعُــهُ الجَــوْزَاء، والشِعْرى[١] قَرِيبَةٌ مِنْه ، ويَتَّشَيَعُ لِمَذْهَبِ أبي حَنيفَةَ وَمَقَالَةِ الزَيْدِية، وَلا يَرْجِعُ إلى الرِّقَةِ والرأفَةِ والرَحْمَة، والنَاسُ كُلُّهُمْ مُحْجمُونَ عَنْهُ، لِجُرْأَتِهِ وسَلاطَتِهِ واقْتِدَارِه وبَسْطَتِهِ، شَدِيدُ العِقَابِ طَفِيــفُ الثَّوابِ، طَوِيلُ العِتَاب، بَذِيءُ اللِّسَان، يُعْطِي كَثيراً قَليلاً (أَعْني يُعْطِي الكَثيرَ القَلِيــلَ)، مَغْلُــوبٌ بِحَرارةِ الرَأْسِ، سَرِيعُ الغَضَب، بَعِيدُ الفيْئَةِ قَرِيبُ الطِّيرَة[٢] ، حَسُودٌ حَقُودٌ حَدِيد، وحَسْدُهُ وَقَــفَ عَلى أَهْلِ الفَضْل، وحِقْدُهُ سَارٍ إلى أَهْلِ الكِفَايَة"[٣].

وهو يرى أنّ الكتّاب والمُتَصّرِفين والمُنتجعين اللاجئين إلى الصاحب يخــافون ســطوته وجفاءه، ويرى أنّ كلَّ هذه الصفات السيئة هي التي نفرّت هؤلاء منه وأبعدتهم عَنْهُ وهو ســهل الانخداع، حيث إنَّ الذي يأتي لأخذ العلم منه والاستفادة من أدبه وفصاحته يخدعه بمدحه، فيسعد الصاحب لذلك ويأذن له بالدخول عليه متى يشاء ويطلب ما يشاء، ويكافئه بإعطائه نسخة مــن رسائله مع شيء من الدراهم الفضية ويأذن له بحضور مجلسه متى يشاء، يقول:

---

(١) الشعِّرى: كوكب نير يطلع عند شدة الحر، وهُما شعريان، الشعرى العبور والشعرى الغميصاء(يريد أنه منحوس الطالع).

(٢) من طيرة ، فلان تطيّر أي تشاءم.

(٣)التوحيدي، الامتاع والمؤانسة، ص٣٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" أَمَّا الكُتَابُ والمُتّصرفُونَ فَيَخَافُونَ سَطْوَتَه، وأَمَّا المُنْتَجعُونَ فَيَخَافُونَ جَفْوَتَهُ؛ وَقَدْ قَتَلَ خَلْقاً، وأَهْلَكَ نَاساً، ونَفَى أُمّة، نَخوةً وتَعَنُّتاً وتَجَبُّراً وَزَهْواً؛ وَهُوَ مَعْ هَذَا يَخْدَعُهُ الصّبِيُ، ويَخْلُبُهُ الغَبِي؛ لأَنَّ المَدْخَلَ عَلَيهِ وَاسِع، والمَأْتى إلَيْهِ سَهْل؛ وَذَلِكَ بِأَنْ يُقَال: مَوْلانَا يَتَقَدَّمُ بِأَنْ أُعَارَ شَيئاً مِنْ كَلامِه، وَرَسَائِلَ مَنْثُورِه ومَنْظُومِه؛ فَمَا جُبْتُ الأَرْضَ إلَيْهِ مِنْ فَرْغَانَةَ ومِصْرَ وتَفْلِيسَ إلاّ لأَسْتَفِيدَ كَلامَهُ وأَفْصُحَ به، وأَتَعلّمَ البَلاغَةَ مِنْه؛ لَكأَنَّمَا رَسَائِلُ مَوْلانَا سُوَرُ قُرْآن، وفِقَرُهُ فِيهَا أيَات فُرْقَان؛ واحْتِجَاجُهُ مِنْ ابتِدائِهَا إلى انْتِهَائِهَا بُرْهَانٌ فَوْقَ بُرْهَان؛ فَسُبحَانَ مَنْ جَمَعَ العَالَمَ في وَاحِد، وَأَبْرَزَ جَمِيعَ قدْرَتِهِ في شَخْص. فَيَلِينَ عِندَ ذلِكَ ويَذُوب، ويَلْهَى عَنْ كُلّ مُهِمّ لَه، وَيَنْسى كُلَّ فَرِيضَةٍ عَلَيْهِ وَيَتَقَدّمَ إلى الخَازِنِ بِأَنْ يُخرِج إلَيْهِ رَسَائِلَهُ مَعَ الوَرَقِ والوَرِقِ[1] ويُسَّهلُ لَهُ الإذْنَ عَلَيه، والوُصُولَ إلَيْه، والتَمَكّنَ مِنْ مَجْلِسِه؛ فهذا هذا"[2] .

ثم يسوق أبو حيّان أمثلة يبدو أنه لا أساس لها من الصحة حيث يقول إنّ الصاحب يكتب الشعر في المناسبات والأعياد، ويتأنق في هذا الشعر ليحلي ألفاظه ويلائم بين معانيه، ثم يعطيه لأبي عيسى المنجم ويطلب منه أن يمدحه بها، حيث يقول:

"ثُمَّ يَعْمَلُ فِي أَوْقَاتٍ كَالعِيْدِ والفَصْل شِعْراً، ويَدْفَعُهُ إلى أَبي عيسَى بنِ المُنجِّم، ويَقُول: قَدْ نَحَلْتُكَ هَذِهِ القَصِيدَة، امْدَحْني بِهَا في جُمْلَةِ الشُعَرَاء، وكُنْ الثالِث مِنَ الهَمَجِ المُنْشِدين. فَيَفْعَلُ أَبُو عِيسَى– وَهُو بَغْدادِيٌّ مُحَكَّكٌ قَدْ شَاخَ عَلى الخَدائِعِ وتَحَنَّك – ويُنْشِد، فَيَقُولُ لَهُ عِنْدَ سَمَاعِهِ شِعْرَه في نَفْسِهِ وَوَصْفِهِ بِلِسَانِه، وَمدْحِهُ مِنْ تَحبيرِه: أَعِدْ يَا أَبَا عِيسَى، فَإِنَّكَ–واللهِ–مُجيدٌ زِه يَا أَبَا عِيسَى واللهِ، قَدْ صَفَا ذِهْنُكَ، وَزَادَتْ قَرِيحُتُكَ، وتَنَقَحَّتْ قَوافِيكَ؛ لَيْسَ هَذا مِنَ الطِّرازِ الأَولِ حِينَ أَنْشَدْتَنَا في العِيدِ المَاضِي، مَجَالِسُنَا تُخَرِّجُ النّاسَ وتهبُ لَهُمُ الذَكَاء، وَتَزِيدُ لَهُم الفِطْنَة، وَتُحَوِّلُ الكَوْدَنَ

(١) الوَرِق: الدراهم (من الفضة).

(٢)انظر المصدر السابق،ط٢ ص٣٦-٣٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عَتِيقاً[١] والمُحمَّرَ جَوَاداً؛ ثُمَّ لا يَصْرِفُهُ عَنْ مَجْلِسِهِ إلاَّ بِجَائِزَةٍ سَنِّية، وعَطِيّةٍ هَنِيّة،ويَغيظُ الجَماعَةَ مِنَ الشُعَراءِ وغَيرِهِمْ، لأَنَّهمُ يَعْلَمُونَ أَنَّ أبا عِيسَى لا يَقْرِض مِصْراعاً وَلا يَزِنُ بَيْتاً ولا يَذوقُ عَرُوضاً[٢] .

فما كان مِنْ أبي عيسى إلاْ أن لبى مطلب الصاحب وأنشد القصيدة، وأُعْجِبَ الصاحب بما أنشد، وأثنى عليه بجودةِ قريحته وصفاء ذهنه، وأنّ الذي أَنْشَدَهُ أفضل مّمَا أنشدَه في العيد السابق، ويبين أنّ الفضل يرجع إليه فهو الذي نقله وغيّره وحوّله ممّا كان فيه وهو الذي وهبه القدرة على الإلقاء، ولم يتوقف الأمر على ذلك، بل كافأه بجائزة قيمّة وأعطية هنيّة ، والتوحيدي يرى أنّ الصاحب بن عبّاد فعل ذلك ليغيظ الشعراء لأنّ أبا عيسَى في نظرِهِ لا يستطيع أن ينظم بيت شعرٍ واحد.

ويسخر التوحيدي من الصاحب الذي عزا شعره الذي نظمه وحفّظه أبا عيسى بأن قالَ شيئاً لا يخطىء ولا يقال له قصرت أو لحنْت ويقال له أصاب سيدنا وصدق مولانا ولله دَرُّه، وأنّهُ لا مثيل له فقد تفوّق على كثيرٍ من العلماء والأدباء مثل ابن سينا وابن نوبخت وابن كلَّس، ويُعْجبُ الصاحب بهذا الكلام ويتفاخر بنفسه ويزداد تيهاً وعُجباً ويُبدي تواضعه بقوله للناس: ولا كَذَا ثَمَرةُ السَّبْقِ لهُم، وقَصَّرْنَا أَنْ نَلْحَقَهُمْ، أو نَقْفُو أَثَرَهُمْ ونَشُقَّ غُبَارَهُمْ أَوْ نَرِدَ غِمَارَهُمْ[٣].

ويَصْحَبُ ذلك بالحركات الممثلة والتماثيل والتثني وإظهار الملامح المطلوبة في مواضعه مثل الرضا في وقت الغضب، أو الغضب في وقت الرضا، وينتمي إلى أصحاب السماجات، ونسي أنّ هناك من يراقب حركاته، وأخلاقه من نقاد الأخلاق والأدب الذين لا يجدون لهم مهنة

---

(١) الكودن: الفرس الهجين، العتيق: الفرس الكريم، الأصيل.

(٢)التوحيدي ، الامتاع المؤانسة ،ج١،ص٣٧ .

(٣)انظر المصدر السابق ، ج١ ، ص٣٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سوى تتبع أفعال الناس، سواء أكانوا من العامة أم الخاصة الذين يحتلون مناصب مهمة وأساسية في المجتمع، يقول في صورة ساخرة عابثة :

"وَهُوَ في كُلِّ ذَلِكَ يَتَشَاكى وَيَتَحَايَل، ويَلْوِي شِدقَهُ، ويَبْتَلِعُ رِيقَهُ، وَيَــرُدُّ كَالْآخِــذِ، وَيَأْخُــذُ كَالْمُتَمَنِّع، ويَغْضَبُ في عَرْضِ الرِّضَا، وَيَرْضى في لُبوسِ الغَضَب، وَيَتَهَالَكُ وَيَتَمَالَك، وَيَتَقَابــلُ وَيَتَمَايَل؛ ويُحاكي المومِسَات، ويَخْرُجُ في أَصْحَابِ السَمَاجَاتِ؛ وَمَعْ هَذَا كُلِّهِ يَظُنُّ أَنّ هذا خَــافٍ عَلى نُقّادِ الأَخْلاقِ وجَهَابِذَةِ الأَحْوالِ، والذينَ قَدْ فرَّغَهُمْ اللهُ لتُّتبعِ الأُمور، واسْــتِخْراجِ مَــا فــي الصُدور، واعْتِبَار الأسْباب".

إنّ أبا حيّان يكرر ما كَتبه ساخراً من الصاحب في رسالة الوزيرين، ولو سمح له الوزير ابن سعدان بالحديث ونقل ما به في رسالته من أخلاق ابن عبّاد التي كان أغلبها سيئاً لفعل ذلك، لكن الوزير اكتفى بهذا القدر وطلب من التوحيدي أن يعيد له تحرير الرسالة ويجلبها إليه، لكــي يقرأها ووعده ألا يراها أي مخلوق أو يسمع بها أي انسان ففعل أبو حيّان ذلك . وسأل الــوزير ابن سعدان عن بلاغة الصاحب وطريقته في الكتابة فقال له أبو حيّان:

" قَدْ سَأَلْتُ جَمَاعَةً عَنْ هَذا، فَأَجابني كُلُّ وَاحِدٍ بِجَوابٍ إِذَا حَكيتُهُ عَنْهُ كَانَ مَا يُقَــالَ فِيــه أَلْصَق، وكُنْتُ مِنَ الحُكْمِ عَلَيّهِ وَلَهُ أَبعْدَ"(١).

أي أنه ليس هو الذي حكم عليه بل هي آراء الذين سألهم عن كتابةِ الصاحب وأنّ هــذا الكلام منطبقٌ على الصاحب وهو يتصف به ، ويستحضر لذلك شهادات لــيس بالــضرورة أن تكون صادقة من ذلك زَعمُهُ أنه سأل ابن عبيد الكاتب عن كتابة الصاحب فقال :

" يَرْتَفِعُ عَنِ المُتَعلَمِينَ فِيهَا بِدَرجَةٍ أو بِدَرَجَتَين "(٢).

---

(١)التوحيدي، مثالب الوزيرين، ج١، ص ٣٩-٤٠ .

(٢)انظر المصدر السابق ج١ ، ص٤٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أيْ أنّ الصاحب على الرغم من كتاباته العديدة التي ألّفها إلاّ أنّه لا يتفوق على المجيـــدين بالكتابةِ أو يرتفع عنهم إلا بقليل.

ثم يستحضر شهادة ثانية عن علي بن قاسم قال فيها في نعت الصاحب:

" هو مَجْنُونُ الكَلام ، تارةً تَبْدُو لَكَ مِنْهُ بَلاغَةُ قِس ، وتارةً يَلْقَاكَ بِعَيِ بَاقِل ؛ تَحْرِيفٌ كثيرٌ فِي المَعَانِي ، وإحَالَةٌ فِي الوَضْع ، وغَلَطٌ فِي السَجَع ، وَشُرودٌ عَنْ الطَبْع ".

كما يستحضر شاهداً ثالثاً هو ابن المرزبان الذي يزعم أنه قال عن الصاحب :

"هُوَ كَثيرُ السَرِقَة، سَيئ الإنْفَاق، رَديءُ القَلْب والعَكْس، فَرُوقَةُ[١] في إيرادِه، هَزيمَتُهُ قَبـــلَ هُجُومِهِ وإحْجَامُهُ أَظْهَرُ مِن إقْدامِه"[٢].

وهكذا يتبدى أن الصاحب من مجموع هذه الشهادات ، سارق ألفاظ ومعان ، مدّع.

ويروي عن الصابئ أنه قال في صورة ساخرة قائمة على التقابل المضحك :

"هُوَ مُجْتَهِدٌ غَيْرُ مُوَّفَق، وَفَاضِلٌ غيرُ مُنَّطَق لَوْ خَطَا كَانَ أَسْرَعَ لَه، كَما أَنَّهُ لَمّا عَدَا كَـــانَ أَبْطَأَ عَلَيه، وطِبَاعُ الجبَلِيّ مُخَالِفٌ لِطِبَاع العِرَاقيّ، يَثِبُ مُقارِباً فَيَقَعُ بَعِيـــداً، وَيَتَطَـــاوَلُ صَـــاعِداً فَيَتَقَاعَسُ قَعيداً"[٣].

فَهُوَ في نَظَرِهِ شَخص مجتهد في الكتابة لكن لا يوفّق فيها وأنّه يقرّب البعيد ويبعد القريب، ويتقاعس في أداء عمله.

ويبدي علي بن جعفر[٤] رأيه في طبيعة كتابة الصاحب بن عبّاد فيقول:

---

(١) الفَرَق: الخوف الشديد، الفروقة: الشديد الخوف، والتاء فيه للمبالغة .

(٢)التوحيدي، الامتاع والمؤانسة، ط١، ج١، ص٤٠ .

(٣)انظر المصدر السابق،ج١، ص٤٠ .

(٤) أبو القاسم علي بن جعفر بن علي السعدي الصقلي ابن القطاع نزل مصر ، له مصنفات عدة منها (كتاب الأفعال و كتاب أبنية الأسماء)، ت(٥١٥) هـــ ، أنظر سير أعلام النبلاء ، ج١٩، ص٤٣٣ــ ٤٣٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"مِمَّ كَانت الطَبائِع! هُوَ يَكْذِبُ نَفْسَهُ بِحُسْنِ الظّنِ في البَلاغَة، وَطِبَاعُهُ تَصْدُقُ عَنْهِ بِالتَخلُّف، فَهُو يُشِينُ اللَفْظَ وَيُحيلُ المَعْنَى، فَأَمّا شينُه اللّفْظَ فبالجَفْوَةِ والغِلْظَةِ والإخْلالِ والفجَاجَة، وأَمَّا إحَالَتَهُ فَبالابْعَادِ عَنْ حَوْمَةِ القَصْدِ والإرَادَة؛ والعَجَبُ أَنَّهُ يَحفَظُ الطِّمَّ والرِّمَّ مِنَ النَثْـرِ والـنَظْمِ؛ ثُـمَّ إذَا ادّعَاهُمَا يَقَعُ دُونَهُمَا سُقُوطاً، أو يَتَجَاوَزُهُما فُرُوطاً؛ هَذَا مَعَ الكِبَرِ المَمْقُوتِ والتَـشَيّعِ الظَـاهِر، والدَعْوى العَارِيَة مِنَ البَينةِ العَادِلَة[١].

فَهُو برأيه يتظاهر بالإجادَةِ في مَعْرِفَةِ البَلاغَةِ في الكِتَابة و كيفية تطبيقها، ولكـنّ كتابتـه تظهر تَخلّفَهُ فيها، حيث أنه يشينَ ألفاظه بغلظتها والإخلال في صياغتها ويحيـل المعنـى، أي يحولّه عن القصد المراد توصيله، على الرغم من معرفته الواسعة بالأدب نثراً وشعراً، وحفظه الكثير من الكتب والأشعار، والعجب أنّه إذ دعا المعرفة بهما يقع في الخطأ في كتابةِ النثـر أو نظم الشعر.

كما ينقل عن ابن حبيب أنه قال فيه [٢]:

"وصَاحِبُنَا – يعني ابن عبّاد – مَريضٌ عِنْدَنَا، صَحِيحٌ عند نفسه، زَيّفٌ بنَقْدِنَا، جَيّدٌ بِنَقْدِه، ولَو قَامَتِ السُّوقُ عَلى سَاقِهَا، وتَنَاصَفَ المُتَعَامِلُونَ فِيهَا، ولَمْ يَقَعْ إكْرَاهٌ في أخَـذٍ وَلا إعْطَـاء، عُرِفَ البَهْرَج الذّي ضَرَبَ الدَارَ والجَيّدَ الذي ضُرِبَ دَاخِلَ الدَار[٣].

فابن عبّاد في رأيه مريضٌ ورديء في كتابته ومعاملته للناس، ويوازي ابن حبيـب هـذا الكلام بالسوق التي لا يتم فيها إكراه على أخذ أو عطاء ويتناصف المتعاملون فيه ويعرف الجيد من الرديء والصحيح من السقيم.

---

(١)التوحيدي، الامتاع والمؤانسة، ط١ج١ ،ص٤٠

(٢) ابن حبيب ، هو أبو جعفر محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو الهاشمي بالولاء من موالي بني العباس ، عالم بالأنساب والأخبـار واللغة والشعر والقبائل ، ولد في بغداد وتوفي في سامراء سنة ٢٤٥هـ ، انظر الصداقة والصديق ، أبو حيان التوحيدي ، ص ٣٠٠ .

(٣)انظر المصدر السابق،ط٢،ص٤١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويقول آخر شخص سأله التوحيدي عن كتابة ابن عبّاد، وَهُو أحمد بن محمد[١] بعدما وضّح صفات الكتابة عند العراقيين من اللطف في الطبع، وقُرْب المأخذ والملاءمة في السجع، والأناقة في اختيار الألفاظ، والحلاوة في التأليف، والموالاة المقبولة في السمع والدالة على كثرة الاغتراف من كلام العرب حيث قال:

"فأوّل ما بُلِي بهِ أنَّهُ فَقَدَ الطَبع، وَهُو العَمُود؛ والثّانِي العَادَة وَهَي المُؤَاتَية؛ والثَالِثَ الشَغَفُ بالجَاسِي[٢]مِنَ اللَفْظِ وَهُو الاخْتيارُ الرَدِيءَ؛ والرَابِعُ تَتَبُعُ الوَحْشِيّ، وَهُوَ الضلالُ المُبينَ؛ والخَامِسُ الذّهَابُ مَعَ اللّفْظِ دُونَ المَعْنَى؛ والسَادِسُ اسْتِكْرَاهِ المَقْصُود مِنَ المَعْنَى، واللّفْظ عَلَى النَّبْوَةِ؛ والسَابِعُ التَعَاظُلُ المَجْهُولُ بالاعْتِراض؛ والثَامِنُ إلْفُ الرُسُومِ الفَاسِدَةِ من غَيرِ تَصفُّحٍ وَلاَ فَحْص؛ والتَاسِعُ قِلَّةُ الاتّعاظِ بِمَا كَانَ – لِلْثقَةِ الواقِعَةِ في النَفْسِ– مِنَ الفَائِتْ؛ والعَاشِرُ تَنْفِيقُ المَتَاعِ بالاقْتِدارِ في سُوقِ العِزّ، وهَذِه كُلُّهَا سُبُل الضَلالَةَ، وَطرُقِ الجَهالَة"[٣].

فهو يُبيّن عيوب ابن عبّاد في الكتابة، ونقص كتابته من الصفات اللازمة الواجب تطبيقها فيها، وينهي قوله بنصائح تفيد الكاتب المبتدئ وترشده إلى كتابةٍ جيدة، فَقَدْ فَقَدَ ابن عبّاد في كتابته أسس الكتابة وسماتها الفنية وشوّهها بكثرة استخدام الألفاظ الوحشية والثقيلة على اللسان، والإكثار من الألفاظ التي لا معنى لها، والبعد عن المعنى المقصود، والرسوم الفاسدة، وقلّة اتعاظّه بالفائت مما وقع فيه غيره من الأخطاء.

وينصح الكاتب المبتدئ ويوعيه، فعليه أن يرى من نفسه الأشياء السيئة ويقوّمها، ولا يظن بنفسه الظن الحسن دائماً، والرجوع إلى من هو أعلم وأكثر خبرة منه، فكل شخص محتاج إلى

---

(١) أحمد بن محمد ، مسكويه ، هو أبو علي أحمد بن محمد مسكويه الخازن ، كان عارفاً بالفلسفة ، ألّف كتاب تهذيب الأخلاق وتجارب الأمم ، وكان قيماً على خزانة كتب ابن العميد ثم قيما على خزانة كتب عضد الدولة ثو اختصّ ببهاء الدولة البويهي وعظم عنده شأنه ومات سنة ٤٢١ ، الامتاع والمؤانسة ، أبو حيان التوحيدي ، ج١ ، ص ٣٢.

(٢) الجاسِي: الصلب

(٣)التوحيدي ، مثالب الوزيرين ،ط٢،ص٤١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المزيد من الثقافة والمعرفة في علمه، فإنّ الذي يتفرّد ويتميز بشيء عن غيره لا يصل إلى درجة الكمال، والمشورة لا تنقص من قدر المرء شيئاً، بل تفيده وتكسبه قدرة على تفهّم الأمور والتصرّف فيها بحكمة، وأنّ كُلَّ شيء في اللغة والأدب لا يبقى في حاله بل يتغير، فالمعنى واللفظ العربيان قد يُصبحان أعجميين، ويَكُونَان متوافقين فيشردان ويتغيران. وكذلك النظم والنثر، فقد يتبادلان أدوار بعضهما في الأدب، حتى المعّقد قد ينحّل ويصبح سَهلاً، والسَهل المنحلّ قد يصبح مُعَقداً وصعباً لا يمكن فهمه، كما ينبغي عليه استخدام الأسلوب الجميل الذي يبينَ مدى تذوقه للنص أو الموضوع، واجتناب الألفاظ التي تزعج أذن السامع عند سماعها، وينصح أيضاً بالرضا، والعفو على الاستكراه الواقع في البلاغة، ولعلّه يقصد ما يقع من أخطاء وعدم مراعاة القواعد المتبعة في البلاغة، وينصح بتخير الكلام، وتنظيم الأفكار المراد كتابتها وتوضيحها، ويذكر مثالاً على ذلك وهو أنّ ابن المقفّع كَان يقف كلامه كثيراً لاختيار الألفاظ والكلام المتوازن بسبب ازدحامه في فكره وعقله. فهو ينصح بذلك لأنّ الكاتب يختار كلامه أكثر من المخاطَب وينصح بالصواب والتحسين في الكتابةِ لأنّ القارئ لا يهتمّ بالسرعة والإبطاء،يقول في هذا كله :

"ولَيْسَ شَيْءٌ أَنْفَعُ لِلْمُنْشِيءِ مِنْ سُوءِ الظّن بِنَفْسِه، والرجُوع إلى غَيْرِهِ وإنْ كَانَ دُونَهُ في الدَرَجَةِ ولَيْسَ في الدُنْيا مَحْسُوبٌ إلا وَهُوَ مُحْتَاجٌ إلى تَثْقِيف، والمُسْتَعينُ أَحْزَمُ مِنَ المُسْتَبّد، ومنْ تَفَرَّد لَمْ يكْمُلْ، وَمَنْ شَاوَرَ لَمْ يَنْقُص، وَقَدْ يُستَعْجَمُ المَعْنَى كَمَا يُسْتَعْجَمُ اللّفظ، ويَشْرُدُ اللّفْظَ كَمَا يَنِدُّ المَعْنَى، وَيَنْتَثِرُ النَظْمَ كَما يَنْتَظِمُ النَثْرَ وَيَنْحَلُّ المُعَقّد كَمَا يُعقَّدُ المُنحلّ.

والمَدارُ عَلى اجْتِلابِ الحَلاوَةِ المَذوقَةِ بِالطَبْعِ، واجْتِنَابِ النّبْوةِ المَمْجُوجَةِ بِالسَمْع؛ والقَرِيحَة الصّافِية قَدْ تَكْدُر، والقَرِيحَةُ الكَدِرَةِ قَدْ تَصْفُو، وشَرُّ آفَاتِ البَلاغَةِ الاسْتِكراه، وأَنْصَحُ نَصَائِحَهَا

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الرِضَا بِالعَفْو. وَقَال: كَانَ ابنُ المُقّفع يَقِفُ قَلَمُهُ كَثِيراً؛ فَقِيلَ له في ذَلِك، فقال: إنَّ الكَلامَ يَــزْدَحِمُ في صَدْري فَيَقِفُ قَلَمِي لأتخيّرُه.

والكِتَابُ يُتَصفَّحُ أكْثَرُ مِنْ تَصَفُّحِ الخِطَاب، لأنّ الكَاتِبَ مُخْتَار، والمُخَاطِبُ مضطرٌّ؛ ومَــنْ يَرِدُ عَلَيهِ كِتَابُكَ فَلَيْسَ يَعْلَمُ أَسْرَعْتَ فِيهِ أَمْ أَبْطَأْتَ وإنَّمَا يَنْظُرُ أَصَبْتَ فيهِ أَمْ أَخْطَأت، وأَحْسَنْتَ أَمْ أَسَأْتَ؛ فَإبطَاؤُكَ غَيرُ إصَابَتِكَ كَمَا أنّ إسْرَاعَكَ غَيرُ مُعَفٍّ على غَلَطِك[١] .

لقد أجمع هؤلاء الأدباء جميعاً على سوء بلاغة ابن عبّاد، وركاكة كتابته، وتحريفه فــي الألفاظ والمعاني، وغلطه في السجع، وبعده عن توضيح المعنى المقصود، وغيرها من الأخطاء التي يجب تفاديها في الكتابة، وعلى هذا فإنهم فيما يزعم أبو حيان يطلقون عليه لقــب الكاتــب الرديء، وكأنهم يخرجونه من فئة الكتاب المجيدين والمتميزين والمبدعين في الكتابة إلا أحمد بن محمد، فقد بيّن ما وقَعَ فيه الصاحب بن عباد، لَكِنْ وجّهَ له وللكتّاب عامة النصائح التي يجــب إتباعها في الكتابة، وكان رأيه أكثر وضوحاً وصراحة.

والتوحيدي يناقض نفسه مَرَةً أخرى، عندما سأله الوزير ابن سعدان عن مكانة الــصاحب من غيره من الكتّاب فقال:

"في الجُمْلَةِ هُوَ أَبْلَغُ مِنْ ابنِ يُوسُف[٢]، وَأَغْزَرُ وأَحْفَظُ وأَرْوَى وَأَجَمُّ رَكِيّة، وَأَعْذَبُ مَوْرِداً، وَأَبْعَدُ مِنَ التَفَاوُتْ، وليس ابنُ يوسف من ابن عبّاد في شيء".

فالتوحيدي يتحدث عن الصاحب على حسب مِزاجه، فَتَارَةً يَمْدَحُهُ ويفضّلُهُ عَنْ غَيــرِه، وَتَارَةً يَنْقُمُ عليه ويذكُرُهُ بِأَسْوَأ المَسَاوئ.

---

(١)التوحيدي، مثالب الوزيرين،ط٢، ص٤٢ .

(٢)أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح الكاتب القفطي أبو جعفر ، من أهل الكوفة كان يتولى ديوان الرسائل للمأمون ، ت ٢١٣ أو ٢١٤ هـــ ، انظر معجم الأدباء ،ج٢،ص ٥٦٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢: صورة الصاحب بن عبّاد في نظر الزعفراني: [١]

كان الزعفراني من ندماء الصاحب وقد عرفه جيداً، وامتحن أخلاقه، وعَرِفَ نيّتَهُ، فعندما سأله التوحيدي عن رأيه فيه قال:

"وَجَدْتُهُ كَلِيلَ الكَرَمِ[٢]، حَادَّ اللُّؤْمِ، رَقِيعَ الظَاهِرِ، مُرِيبَ البَاطِنِ[٣]، دَنِسَ الجَيْبِ، مُثْرِياً مِنَ العَيْبِ[٤]، كَأَنّهُ خُلِقَ عَبَثاً مِمّا مُلِئَ خُبْثاً، سَفَهُهُ يَنْفِي حِكْمَةَ خَالِقِه، وغِنَاهُ يَدْعُو إلى الكُفْرِ بِرازِقِه، وأَنَا أَسْتَغْفِرُ اللهَ مِنْ قَولي فِيه ونِفَاقِي مَعَه، ولَعَنَ اللهَ الفَقْرَ فَهُوَ الذي يَخْبُلُ المرُوءَة ويَقْدَحُ[٥] في الديانَةِ، ولَوْ كَانَ لِي بِبَغَدادَ قُوتٌ يَحْفَظُ عَليَّ مَاءَ الوَجْهِ مَا صَبَرْتُ عَلى هَذا الرَقِيعِ البَارِدِ، والمَجْنُونِ المُطاعِ سَاعَة. ولكن ما أَصْنَعَ، قَدْ قلّبْتُ أَمْري ظَهْراً لِبطْن، مَالي إلى الرِّزْقِ بَابٌ إلاّ مِنْهُ"[٦].

فالصاحب بن عبّاد في نظره بخيل ولئيم، وغير أمين، فيه من العيوب والخبث ما يكفيه، والذي بعثه للجوء إليه هو الفقر والحاجة إلى المال، ولولا حاجته للمال وفقده له في بغداد، لَمَا لجأ إلى الصاحب، لكّن وضعه هو الذي دعاه إلى طرقِ بابه، ولم يجد أحداً عوناً له أكثر من الصاحب، وقد عبّر عن هذا في أبيات الشعر قال فيها:

---

(١) الزعفراني : أبو القاسم عمر بن إبراهيم الزعفراني ، انظرمعجم الأدباء،ج٢،ص٣٢٦، وفيات الأعيان ،ج١ ،ص٩٣.

(٢) كليل الكرم: ضعيف الكرم.

(٣) رقيع الظاهر: أحمق. مريب الباطن: كثير الشك.

(٤) مثرياً من العيب: كثير العيوب.

(٥) يخبل: ينقص . يقدح: يخرق .

(٦)التوحيدي، مثالب الوزيرين،ط٢، ص٩٥-٩٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والرِّزقُ كَالْوَسْمِيِّ رُبِّتمَـــا عَدَا رَوْضَ القَطَا وسقَـــى مَهَامِه جِلَّقِ[١]

فَإذا سَمِعْتَ بحُـــوَّلٍ مُتَأَلِّـــهٍ مُتَأَدِبٍ فَهُوَ الــذي لَـــم يُرْزَقِ [٢]

والرزِّقُ يُخْطِىءُ بَابَ عَاقِلِ قَوْمِهِ ويَبِيتُ بَوَّاباً لِبَــابِ الأحْمَـــقِ [٣]

فهو يرى أنّ الرزق يبتعد عن المرء الذي يتأدب ويتعبد، ويقصد باب الأحمــق الــذي لا يعتمد على شيء في حياته سوى الحماقة، وقال في أبياتٍ أخرى:

الرِّزَقُ قَدْ يَأْتِيكَ في وَقْتِـــهِ والحرصُ لا يُغني وَلا يُجدي

كَمْ قَاعِدٍ يُبَلِّـــغُ مَأْمُـــولَه وطَالِبٍ مُضْطَرِبٍ يُكْـــدِي

فَاسترزِقِ الرّازِقَ مِنْ فَضْلِه وارضَى بِمَا يُولِيكَ مِنْ رِفْدِ

وَثِقْ بِإحْسَانٍ لَهُ وَاسِـــعٍ فَهَكَذا عَاداتـــهُ عِنـــدْي[٤]

وَكَأَنّهُ في هذه الأبيات نادم على ما قام به من قصد الصاحب لتحصيل الــرزق بالعمــل عنده، أو مدحه بالقصائد لكسب المال، وينصح بأن ينتظر الإنسان رزقه المقدّر له الذي يرزقــه إيّاه رب العالمين، لكّن مع السعي والثقة بأنّ الرزق يأتيه في وقته، ولا داعي للتفكير فيه بشكل أساسي، وأنّ الذي يسأَلَ النَاس دون العَمل والسعي في الحياة وكسب الرزق بعرق جبينه فلا يَنَالُ إلاّ الاضطراب والانتظار من غيره رِفْقاً وتَلبيةً لحاجته، وينصح بالرضا بما يأتيه من فضل ربه، فالصاحب في نظره شخص ذو أخلاق سيئة، وأخلى شخصيته من الأخــلاق الحــسنة، وبــذلك يشترك مع أبي حيّان التوحيدي في نقد الصاحب سلباً، وقد استخدم لــذلك الجــرس الموســيقي والسجع الملائم في كُلِ صفة تحدث عنها مثل: كليل الكرم، وحاد اللؤم، وســفهه ينفــي حكمــة

(١) الوسمي: مطر الربيع الأول / القطا: نوع من الطيور / جلّق: اسم دمشق.

(٢) حُوَّل: سريع التحول من الرجال.

(٣)التوحيدي، مثالب الوزيرين،ط٢، ص٩٦ .

(٤)انظر المصدر السابق ص٩٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خالقه، ولكن إذا كان هَذا قول الزعفراني في وزِير معروف في عصره كالصاحب، فماذا يقــول فيه الذي لا يعرفه.

هل هذا كلام الزعفراني في ابن عبّاد؟ أعتقد أنّ التوحيدي نسج هذا الكلام من خياله كمــا ذكرت سابقاً، فقد سار على هذا المنوال في عرض آراء المسيني والخوارزمي والغويري عــن الصاحب، عن طريق أسئلة يطرحها عليهم، وسنأتي في الفصل القادم إلى ما نظمه الزعفرانــي من أبياتٍ في مدح الصاحب التي تعكس الصورة الإيجابية له.

٣: صورة الصاحب بن عبّاد في نظر المسيني(١):

وعندما سأل التوحيدي المسيني عن قوله في ابن عباد قال:

" لَهُ فِي الخَلاعَةِ قُرْآنٌ مُعْجز، وفي الرَّقَاعَةِ أيةٌ مُنْزَلَة، وفي الحَسَدِ عِرْقٌ ضَارِبٌ، وفــي الكَذِبِ عَارٌ لازِبْ، لا يَنْزَعُ عَنْ المَسَاوِىءِ إلاْ مَلَلاً، وَلا يَأتي الخَيرَ إلاَّ كَسَلاً، ظَاهِرُهُ ضَــلالَة، وبَاطِنُهُ جَهَالَة، ولَيْسَ لَهُ في الكَرَمِ دَلالَة، وَلا في الإحسانِ إلى الأَحرارِ آلَة. فَسُبْحَانَ مَنْ خَلَقَــهُ غَيْظاً لِأَهْلِ الفَضْلِ والأَدَب، وَأَعْطَاهُ فَيضْاً من المَالِ والنَّشَب"(٢).

فَابن عباد في نظر المسيني رجل يتصف بالخلاعة والرقاعة، وأنّ خصلة الحسد مُتأصلة فيه، وهو معجونٌ بالكذب الذي جلب له العار، كما أنه ملازم للمساوىء، ولا يترك فعلها إلاّ عند الملل منها، وبالتالي لا يقدم على الخير إلاّ نادراً، أوغير راغب في فعله، ولا يظهر عليه مــن الإشارات ما يدل على أنه كريم وذو عطاء لا ينضب، وأنه يقابل الإساءة بالإساءة، بــذلك لــم يخلق إلاّ ليغيظ أهل الأدب بهذه المساوىء، ومنحه الله غيظاً غزيراً من المال ليتنعم به وحده.

---

(١) لم أجد له ترجمة في كتب المصادر.

(٢)التوحيدي، مثالب الوزيرين،ط٢ص٩٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤: صورة الصاحب بن عباد في نظر الخوارزمي[١]:

أمّا الخوارزمي فقد سأله التوحيدي عن ابن عباد قائلاً:

" كَيفَ وَجْدْتَ ابنَ عَبَّاد؟ فكان جواب الخُوارزمي: دَعْني مِمَّا هُنَالِكَ واللهِ إنَّهُ لَخَوّارٌ في المَكَارِم، صَبَّارٌ عَلى الملائِم، زَحّافٌ إلى المَآثِم، سَمَّاعٌ لِلْنَمَائِم، مِقْدامٌ على العَظَائِم[٢]، يَدْعُو إلى العَدْل والتَوْحيد، ويَدَّعِي الوَعْدَ والتّخْليد، ثَمَّ يَخْلُو باسْتِعْمَالِ الأُمُور، ويَشْتَمِلُ عَلَى الفُسُوقِ والفُجُور، ويُمْسِي وَهُو بُور، وَيُصْبِحُ وَمَا على وَجْهِهِ نُور"[٣].

إنّ الخوارزمي يعتبر الصاحب بن عباد إنساناً مشتملاً على كل ما هو مخل بِشَّخْصِيَتِهِ مِنْ لُؤمٍ وفُسْق، وكبيرة محرّمة، واتصافه بالشؤم، على الرغم ممّا أكرمه إيّاه من المال والثياب والطعام، وقدّمه لعضد الدولة، وفضله على غيره من الناس، وقد سأل التوحيدي الزعفراني عن قول الخوارزمي في الصاحب هذا القول، فقال له:

"ابْنُ عبَّاد سَيءُ السِيَاسَةِ لصنَائِعِه، وذاكَ أَنَّهُ يُعطِي الإنسانَ عَطِيَّةً ما، ثُمَّ يَبلُوهُ بِجَفَاءٍ يَتَمَنَّى مَعَهُ لَقْطَ النّوى في السِّكَكِ. والمُصْطَنِعُ الكَرِيمُ هُوَ الذَي يَكُونُ اصْطِنَاعُهُ بِلِسَانِهِ، فَوْقَ اصْطِنَاعِهِ بِيَدِه"[٤].

فيبدو أنّ الصاحب أعطَى الخُوارزمي كُل هذا العَطاء، وزاد عليه بالمنّ والجَفاء والأذى بالكلام، وكَأنّه يُحمّله الجميل بجعله إنساناً مشهوراً في مجتمعه حيث أوصله إلى عضد الدولة وقرّبه منه، وينبغي على الصاحب أن يكرّم قصّاده ومُدّاحه بالعطاء والمال والكَلِم الطيب الذي يترك في نفس الشخص أَثَراً طيباً، ووقعاً حَسناً، ويبدو أنّ الخوارزمي لا يهمه المال بقدر ما

---

(١) الطبرخزي:أبو بكر محمد بن العبّاس الخوارزمي الأديب ،(ت٣٨٣هـ) وقيل ٣٩٣ هـ ،وسمي بالطبرخزي لأنّ أباه من طبرستان وأمه من خوارزم ، انظر وفيات الاعيان ،ج٤،ص٤٠٠،سير أعلام النبلاء ،ج١٢،ص٥٣٦.

(٢) العظيمة: النازلة الشديدة.

(٣)التوحيدي، مثالب الوزيرين،ط٢ص١٠٢، ص٩٧ .

(٤) انظر المصدر السابق ص٩٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يهمه التقدير الحسن والكلام المبهج للنفس، وهذا الذي ينبغي أن يتصف به الانسان الكريم، لكي يبقى حسن السمعة والذكر عند غيره من الناس.

٥: صورة الصاحب بن عبّاد في نظر أبي الطيب النصراني[١]:

ومِنَ الأشخاص الذين سُئلوا عن ابن عبّاد وأبدوا رأيهم فيه، أبو الطيب النصراني الذي كان من القائمين في قصر مؤيد الدولة ويبدو أنّه كان جاسوساً له وينقل له ما يحدث في قصره أو خارجه، ويبدو أنه عرف الكثير من مخازي الصاحب على حد قول التوحيدي، حيث عبرّ عنها قائلاً:

" لَوْ بُحْتُ بِمَا في نَفْسِي مِنْ حَديثِ هَذَا المَأْبُونِ لتصدَّعَ الجَبَل، ولَتَقَلَّعَ الجَنْدَل، وكَانَ ابنُ عبّادٍ شَدِيدَ السَّفهِ عَجِيبَ المُنَاقَضَة، سَرِيعَ التَحولِ مِنْ هَيْئَةٍ إلى هَيئَة، مُسْتَقْبِلاً لِلْأَحرْارِ بِكُلِّ فِرْيةٍ[٢] وفاحِشَةٍ. كَانَ يَقُولُ لِلْإِنْسَانِ الذي قَدِمَ عَلَيْهِ مِنْ أَهْلِ العِلم: تَقَدَّمْ يَا أَخِي وتَكَلّم، واسْتَأْنِسْ، واقْتَرِحِ، وانْبَسِطَ وَلاَ تُرَع[٣]، واحْسِبْني في جَوْف مُرَقّعَة[٤]، وَلاَ يَهُولُكَ هَذا الحَشَمُ والخَدَم، وهَذِه الغَاشِيَةُ والحَاشِيَة، وهَذِه المَرْتَبَة والمِسْطَبَة، وهَذَا الطَاقُ والرِّواق، وهَذِهِ المَجَالِسُ والطَنَافِس[٥]، فَإِنَّ سُلْطَانَ العِلْمِ فَوْقَ سُلْطَانِ الوِلايَة، وَشَرَفُ العِلْمِ أَعْلى مِنْ شَرَفِ المَال، فَلْيَفْرَخْ روْعُك[٦]، ولْيَنعْمْ بَالُك، وقُلْ مَا شِئْت، وانْصُرْ مَا أَرَدْت، فَلَسْتَ تَجِدُ عِنْدَنَا إلاّ الإنْصَافَ والإسْعَافَ والإتْحَافَ والإطْراف، والمُقَارَبَةَ والمُواهَبَة، والمُؤانَسة وَالمُقَابسَةَ[٧]، وَعَلَى هَذا التَنْزيل، ومَنْ

---

(١) لم أجد له ترجمة في كتب المصادر .

(٢) الفرية: الكذب واختلاقه.

(٣) لا ترع: لا تخف.

(٤) مرقعة: المرقع من لباس الصوفية مما فيها من رقع / الغاشية: السُّوّالَ يَأتون مستجدين/ الحاشية: الأهل والخاصة/ الحشم: الرجل خاصّته اللذين يغضبون لغضبه ولما يصيبه من مكروه من عبيد وأهل وجيران والجمع أحشام .

(٥) الطنفسة: البساط والنمرقة فوق الرحل والجمع طنافس.

(٦) يفرخ روعك: يذهب رعبك.

(٧) الاسعاف: القرب / الاتحاف: العطاء / المواهبة: المبالغة في الأعطية/ المقابسة: أخذ العلم.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كَانَ يَحْفَظَ مَا يَهْذِي بِهِ في هَذَا وغَيْرِه، حَتّى إذا اسْتَقَى مَا عِنْدَ ذَلِكَ الإنْسَانَ بِهَذِهِ الزَّخَارِفَ والحِيَل، وَسَال الرَجَلُ مَعَهُ في حُدُورِهِ عَلى مَذْهَبِ الثِّقَة، وَرِكِبَ في مُنَاظِرَتِهِ، رَدَعَهُ وَحَاجَّهُ، وَرَاجَعَهُ وَضَايَقَهُ، وَسَاكَعَهُ[١]وَوَضَعَ يَدَهُ على النُكْتَةِ الفَاصِلَة، والأمْر القَاطِع، تَنَمَّرَ لَهُ، وتَنَغّرَ[٢] عَلَيْهِ، واسْتَحْصَدَ غَضَباً، وَتَلَظّى لَهباً، وَقَالَ بَعدَ وَثْبتينِ أو ثَلاثَ: يَا غُلامَ خُذْ بِيَد هَذَا الكَلْبِ إلَى الحَبْسِ وَضَعْهُ فيهِ بَعْدَ أَنْ تَصُبَّ عَلى كَاهِلِهِ وَظَهْرِهِ وَجنْبَيْهِ خَمْسَ مِئَةِ عَصاً فَإنّهُ مُعَانِدٌ ضِدّ، يَحْتَاجُ إلى أَنْ يُشَدَّ بالقِد[٣]، ساقِطٌ، هَابِطٌ، كَلْبٌ نَبّاح، مُتَعَجْرِفٌ وَقاح، أعْجَبَهُ صَبْري وَغَرَّهُ حِلْمِي، ولَقَد أَخْلَفَ ظَنِّي، وَعُدْتُ عَلى نَفْسِي مِنْ أَجْلِهِ بِالتّوبِيخِ، وَمَا خَلَقَ اللهُ العَصا بَاطلاً وَلاَ تَرَكَ خَلْقَهُ هَامِلاً، فَيُقَامُ ذَلِكَ البَائِسُ عَلى هَذِهِ الحَالُ التي تَسْمَع"[٤].

فهو في رَأيه سفيه ومتناقض ومتغير الحال، ويقابل الأشخاص بالكذب والخداع، فقد كان يسمح للرجل بأن يتكلم ويعبر عمّا يريد، وأن يطمئن له ولا يولي اهتماماً لما هو أمامه من الخدم والزخارف والمجالس الضخمة والمُروعة والمذهلة، ويَعِدَهُ بألاّ يَجِد عنده سوى التكريم والهبات والمكافأة على ما يقول، فإذا تعلم بما عنده من مناظرة وكلام لا يعجبه، قابله ابن عباد بالروع والغضب منه وأمر غلامه بحبسه وضربه وقذفه بالكلام المؤذي.

ويقول أبو الطيب النصراني أنّ الذي يحضر مجالس الصاحب لا يرى سوى هذه المعاملة السيئة ولا يرى منظراً رفيعاً، ومعاملة طيبة من الصاحب.

فالصاحب في نظر أبي الطيب متناقض في كلامه، وخدّاع كذّاب، ويتظاهر بإعطائه الأمان لغيره، ليأخذ ما عنده من كلام يتحدث به عن طيب نيته، ويغرَّ الآخرين بتحقيق أمانيهم

---

(١) الحدور: الموضع المنحدر / ساكعه: مشى على غير هداية.

(٢) تنمّر: تَشَبّه بالنمرِ في لونه وطبعه، وتنمر فلان: أي تنكر / تنغر: امتلأ جوفه غضباً.

(٣) وثبة: قفزة / الكاهل: الكاهل من الإنسان ما بين كتفيه / القد: السير يقد من جلد غير مدبوغ يُقيدُ به الأسير.

(٤)التوحيدي، مثالب الوزيرين،ط٢ص١٠٢، ص٩٩-١٠٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العالية لينال أهدافه ويأخذ بعد ذلك بتوبيخهم ، ويبدو أنّ التوحيدي جعل النصراني أحد الأشخاص المشاركين في ثلب الصاحب، واستخراج مخازيه، وعلى الرغم من بحثي عن ترجمةٍ لأبي الطيب النصراني أو كتبه التي توّضح رأيه في الصاحب إلا أنني لم أجد سوى هذا الرأي الذي وجدته في كتاب (مثالب الوزيرين)، والذي يُردد فيه أبو حيان نفس الكلام عن الصاحب.

٦: صورة الصاحب بن عبّاد في نظر ابن العميد.

ولم يكتف التوحيدي بأخذ رأي هؤلاء، بل ذكر كلاماً سمعه من أستاذ الصاحب أبي الفضل ابن العميد، حيث قال فيه:

"أَحسَبُ أَنّ عَيْنَيْهِ رُكِّبَتا مِنْ زئْبَق، وعُنُقَهُ عُمِلَ بِلَوْلَب. وصَدَقَ لأنّهُ كَانَ ظَرِيفَ التَثَنِي والتَّلَوي، شَدِيدَ التَّفَكُّكِ والتَفَتّلُ، كَثيرَ التَعوُّجِ والتَّمَوُجِ في شَكْلِ المَرأةِ المومِسَة، والفَاجِرَةِ الماجِنَة، والمُخَنّثِ الأَشْمَط"[١].

ابن العميد يقصد بهذا الكلام أنّ الصاحب كثير الحركة عند الكلام أو التخاطب مع الآخرين، ويبدو أنها طبيعة رُكبّت فيه، لكن التوحيدي وافق ابن العميد في ذلك وشبّه الصاحب ابن عباد بمرأةٍ ماجنة وخليعة،تتمايل في مشيها وكلامها، وشبهه أيضاً بالمخّنث.

ومع ذلك اختار ابن العميد الصاحب بن عباد لوصاية مؤيد الدولة ابن ركن الدولة البويهي، وتعليمه كيفية التصرف في أمور الدولة السياسية والاجتماعية، وابن العميد يبين في هذه الوثيقة سبب اختياره للصاحب لتهذيب مؤيد الدولة، فهويبدأ رسالته بقوله:

---

(١)التوحيدي، مثالب الوزيرين،ط٢ص١٠٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"مَوْلاَيَ وإنْ كَانَ سَيداً بَهَرتْنَا نَفَاسَتُهُ، وابنُ صَاحِبٍ تَقَدَّمتْ عَلَيْنَا رِيَاسَتُهُ، فَإنْهُ يعُدُّنِي سَنَداً وَوَالِداً، كَمَا أَعُدُّهُ وَلَداً وَاحِداً، ومِنْ حقِّ هذا أن يَعْضُدْ رَأيي رَأْيَهُ حَتّى يَزْدَادَا إحْكَاماً وانْتِظَامــاً، وَيَتَظَاهَرا قوةً وإبْراماً"(١).

فهو يعتبر الصاحب بن عباد رئيساً عالي القدر والمكانة وابن صاحب منصبٍ رفيع، فقــد كَانَ والده وزيراً لركن الدولة، والعلاقة بين أبي الفضل والصاحب بن عبّاد حميمة وقوية، حيث كانا بمثابةِ الأب وابنه، وبسبب هذه العلاقة يريد ابن العميد أن يقبل الصاحب رأيه تهذيب مؤيــد الدولة، فقد حضر مجلس ركن الدولة، وأخبره بما أراد من اختيار شخص يقوم بهذه المهمة، وقد رأى أنْ ابن عباد أنسب شخص لذلك، يقول:

"وَحَضَرْتُ اليَوْمَ المَجْلِسَ المَعْمُورَ فَكَانَ مِنْ مَوْلانَا كَلاَمٌ كَثير، وخِطَابٌ طَوِيل: فَقُلتُ: إنّهُ لَمْ يَزِدْ على الإبَاءِ والاسْتِعْفَاء، بَعْدَ التَقَصِي والاسْتِفَاء، فَأَوْمَأَ إلــى إجْبَــارٍ كَالْمَــسْأَلَة، وَإكْــراهٍ كَالْطِلبَة، وَأَقُولُ بَعْدَ أَنْ أُقَدِّمَ مُقَدِّمَة: إنّ مَــوْلاي- وإنْ كَــانَ يَــسْتَغْنِي عَــنْ جَــزَاءِ الأَحْمَــقِ بتَصَوُّنِه،وتَقَلُّلِه وَعُزُوفِ نَفْسِهِ عَنْ التَكَثُّرِ بالمال، وتَحْصِيلِه، فإنَّ الأمْرَ مُفْتَقِرٌ إلى كَفَالَتِه، ومُحْتَاجٌ إلى كِفَايَتِه، ومَا أَقُولُ مَا أَقُولُهُ وَغَرَضِي إنْشَاءُ كِتاب، أَوْ عَقْدُ حِسَاب، أَوْ تَفْرِيقُ مَالٍ وجَمْــع. أَوْ تَقْدِيمِ عَطَاءٍ ومَنْع، لأنَّ ذَلِكَ وإنْ كَانَ مَقْصُوداً، وفي آلاتِ الوِزَارةِ مَعْدُوداً، فإنّ في كُتَّابِه مَنْ يَفِي بِهِ ويَسْتَوفِيه، وَيُوفي عَلَيهِ بأيْسَرِ مَسَاعِيه، لكنّ مَولانَا يُرِيدُهُ لِتَهْذِيبِ مَنْ هُوَ وليٌّ عَهْــدِه، ومَــنْ يَرْجُوهُ لِيَومِهِ وَغَدِه. "(٢).

(١)انظر المصدر السابق ، ص ٢٧٤ .

(٢)التوحيدي، مثالب الوزيرين،ط٢، ص٢٧٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقد طلب ركن الدولة من ابن العميد أن يجبر الصاحب على القيام بهذه المهمة، على الرغم من أنه لا يحتاج لوساطة أحد لذلك، ويستطيع أن يطلب من ابن عبّاد هذا الأمر بنفسه، لكنه رأى تلك العلاقة الوطيدة بين ابن عبّاد وابن العميد، حيث يستطيع ابن العميد أن يؤثر في ابن عبّاد.

ويقول ابن العميد إنّ الصاحب يعفي نفسه من هذه الوصاية، لزهده في الدنيا، وانشغاله بالطاعة والاستعداد للآخرة. وأنه غير محتاج لمال ركن الدولة، لكن ابن العميد يرى ضرورة قيام الصاحب بتعليم مؤيد الدولة أصول الرئاسة وأمور الدولة، فهو الذي سيتولاها بعد أبيه، وهو بحاجة لمن يعينه، باختيار الرأي الصائب وتقويمه إذا أخطأ، ويرى أنّ الذي يفسد الإمارة هو وجود وزراء لا يحسنون العون، فالوزارة عمود من الأعمدة الأساسية في نجاح الإمارة.

وفي نهاية رسالته يتمنى ابن العميد أن لا يبخل الصاحب بما طلبه منه، ويرفض ما طلبه ركن الدولة، فإنّ الذي جرى له ولأبيه من مكانة يعود لركن الدولة، ولن يكتفي ابن العميد بهذه المخاطبة فقط، بل سيذهب بنفسه للصاحب لاخباره، على الرغم مما يعانيه من مرض النقرس، أو يأتي الصاحب إليه، حيث يقول:

"فَلا يَبْخَلَنَّ مَولاّيَ بِفَضْلِ مَعْرِفَتِهِ عَلى وَليّ نِعْمَتِهِ، مِمَنْ هُو بِالدَولَةِ حَرِيٌّ بِمَا فَضّلَه، وَفَضّل الأَمِينَ مِنْ قَبْلِه، وإنْ كَانَ مَسْمُوعاً كَلامِي، وَمَوثوقاً بِهِ لاهْتِمَامِي، فَلاَ يَقعنّ انْقِبَاضٌ عَنّي، وَلا إِعْرَاضٌ عَمّا تَبيّنَ بِحُضُوري، ومَولاَيَ مُحكَّمٌ بَعْدَ الإجَابةِ إلى العَمَلِ فيمَا يَشْتَرِطُه، وغَيرُ مُراجَعٍ فِيمَا يَقْتَرِحَه، وَهَذا حَظّي مِنْهُ، وَهُوَ عَنْ وَلّي النِّعمَةِ حُجَةٌ فِيمَا يَشْتَرِطُه، وسنصِلُ المُكَاتَبَةَ

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بِالمُشَافَهَة، إمَّا بِالحُضُورِ لَدَيْه، أَوْ بِتَجَشّمِهِ إلى هَذا العَلِيلِ الـذِي قَـدْ أَلَـحَّ النُّقْـرُسُ عَلَيـهِ[١] والسَلام"[٢].

إنّ الصاحب في نظر ابن العميد صاحب مكانة عظيمة، وأخـلاق رفيعـة تتـضح فـي وزارته، وتواضعه وزهده في الدنيا بالاعتذار من قبول مَا رُشّح له من وصاية ابن ركن الدولة، وتعتبر هذه الوثيقة مكافئة للصاحب، فهو تلميذ أبي الفضل وصاحبه أيضاً، ومن حق الـصاحب أن يفتخر بهذه الوثيقة ويباهي بها، لأنّ أبا الفضل اعتبره ولداً له، واعترف بكفاءته بالعمـل و القيادة والرياسة أمام ركن الدولة، وهذه الوثيقة تثبت لنا مدى اعجاب ابـن العميـد بشخـصية الصاحب، ولولا ذلك لما اختاره وفضّله على غيره عند ركن الدولة.

إنْ رأي ابن العميد في الصاحب شديد الوضوح لأنه استخدم عبارات متناسقة، ومعـاني مناسبة، لايصال فكرته، ووازن بين جمله التي لم تخلُ من السجع، لكنه سجع يحافظ على المعنى ويركز الفكرة في ذهن القارىء وليس ذلك السجع الذي يذهب المعنى ويُضيع القارىء.

٧: صورة الصاحب بن عبّاد في نظر التميمي الشاعر (الرغيب) [٣]:

كمـا سـأل التميمـي الـشاعر أبـا حيّـان عـن الـصاحب فقـال لـه التوحيـدي: "كيفَ ترى هَذا الرَجُلَ أعْني ابنَ عَبّاد؟

فَأَجَابَ التميمي: طَويلَ العِنَانِ في اللُؤْم، قَصيرَ البَاع في الكَرَم، وثّاباً على الشَّر، مُقْعَـداً عَنِ الخَير، كَافِراً بِالنِّعمَ، مُتَحَرِشّاً بِالنِّقَم، جَبَّاهاً بِالمَكروهُ، سَـفِيهاً فـي الجُمْلَـةِ، خَليعـاً فـي التَفصيل"[٤].

---

(١) النقرس: داء المفاصل أو الروماتيزم.

(٢)التوحيدي، مثالب الوزيرين،ط٢ ، ص٢٧٥ .

(٣) لم أجد له ترجمة في كتب المصادر.

(٤)انظر المصدر السابق، ص١٠٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إنَّ التميمي الشاعر كَسَابقيه مِمّن سَألَهُم أبو حيّان، يصف ابـــن عبّـــاد بـــاللؤم والبخـــل والسفاهة والخلاعة والإقدام على الشر والإحجام عن الخير.

وعندما سأله أبو حيّان عن مكانة ابن عبّاد في مقارنة مع ابن كلس[١] قال:

"ذَاكَ رَجُلٌ لَهُ دَارُ ضِيَافَةٍ ولَهُ زُوارٌ كَالْقَطْر، لاَ يَعْرِفُ مَحّكاً وَلا لِجَاجاً، وَلا مُجَادَلة، وَلا كَيْداً، وَلا مُخَاتَلَة، يُعطِي عَلى القَصْدِ والتَّأمُل، والرَّجَاءِ والتَّوَجُّه، والطَّمَـــعِ والطَّلَّـــبِ، وَسَـــائِر الوَسَائِلِ عِنْدَهُ بَعْدَ هَذه الأَوائِلَ فَضْلٌ يَسْتَحِقُ به الزِّيَادَة، ولَيْسَ هُنَاكَ امْتِحَانٌ وَلاَ مُحَاسَـــبَة، وَلا احْتِجَاجٌ وَلا تَعْسير. المَالُ مَصْبُوب، والخَازِنُ قَائِمٌ، والمُفرِّقُ مُجَرِّف[٢]، والنداءُ عَالٍ، والواصِلُ مَوصُول، والمُؤَمَّلُ مَشْكُور، والرَّاحِلُ شَاكِر، وَوِزَارَةُ ذَاكَ نِيَابَةٌ عَنْ خِلافَة، وَوِزارةُ هَذا خِلاَفَـــةٌ عَنْ عَمَالَة"[٣].

فابنُ كلّس أفضل عنده من ابن عبّاد، حيث إنّ دَاره مفتوحة لكل من أراد مطلبـــاً، ولـــه زُوارٌ كُثر، لا يعرف شيئاً من صفات المجادلة والكيد ، وبه رأفة ورحمة، وليس عنده حـــساب بالتوبيخ والعقاب، ولا يَحْتَجَّ ولا يُعَسِّرَ عَلى أَحَد، فَكُلُّ شيء يجري فـــي داره بـــالرفق والعـــدل والتيسير، والشكر لمن يؤدي له الخدمة، وأنّ الهدف من وزارته خدمة أبناء المجتمع، ورعايـــة مصالح الرعية ومتابعة ما يجري في مجتمعه من أمور، أمّا الصاحب بن عبّـــاد فيهـــدف مـــن وزارته العَمالة ولعلّه يقصد أنّ الصاحِب يَعمل في وزارته لأجل الحصول على المال، وكـــسب ألسنة الناس بالمدح، ومُراقبة الناس وتوبيخهم، وعلى هذا فإنه في نظر التميمي شخص لا يصلح للوزارة أبداً.

---

(١) ابن كلّس ، أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن إبراهيم بن هارون بن داود بن كلّس ،ت٣٨٠هـــ ،له كتاب في الفقه مما سمعـــه المعز وولده العزيز ،وفيات الأعيان ،ج٧،ص٢٧،سير أعلام النبلاء،ج١٢،ص٤٧٨.

(٢) مُجرّف: جَرَفَ جَرفاً جرَفة: ذهب به كُله أو أخذه أخذاً كثيراً.

(٣)التوحيدي،مثالب الوزيرين ص ١٠٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٨: صورة الصَاحب بن عبّاد في نظر الجيلوهي.

لقد تحدث الجيلوهي عن رأيه في الصاحب بن عبّاد عندما سألَهُ التوحيدي عنه، كونَ الجيلوهي بالنسبةِ للتوحيدي شخص ذو خبرة ومعرفة بالناس وما شاهده منهم من تصرفات، فقال:

" مَغْرُورٌ مِنْ نَفْسِهِ لِمُواتاةِ جَدِّه، وتَصْدِيقِ ذَوي الأَطْمَاع في جَميع دَعْواه، وَمَا أَحْوَجَهُ، إلى إنْصَافِ النَاسِ مِنْ نَفْسِهِ بِأحَدِ شَيْئين: إمّا بِأنْ لا يَدّعي الكَمَال، أو بِأَنْ لا يُبكّتِ[١] الرجَال، فَلا هُوَ بَريءٌ مِنَ النَقْصِ، ولا هُو غَيرُ مُسْتَحِقٍّ لِلْتّبكِيت، ولَيْسَ من لا يُمْكِنُ أَنْ يُواجَهَ بِالنَّقْصِ الذي فِيه، وبالتّوبيخِ الذي يَسْتحِقَّهُ على فِعْلِه، لِيَدٍ لَهُ في السُلطانِ قَوِيَة، وَشَمْسٍ له في الدَولَةِ طَالِعَة، يَنْبغي أَنْ يَرْكبَ هَامَ النَّاس، ويَأكُلَهُمْ بِلسانِه، فَريحُ الدَولَةِ قَدْ تَرْكُد، والضّعْفُ يَزُول، والحَشْمُ يَتَحوَّل، وَقَدْ يُقالُ وَراءَ ظهْرِهِ مَا يُربي عَلى مَا هُوَ عَلَيه، ولو حَصَرَ يَدَهُ على فَضْلِهِ الذي له لم يُشَلّ ، ولَوْ وَقفَ قَدَمَهُ عِنْدَ غايتِهِ لَمْ تَزِلّ، ولكّنَهُ يَجْرِي طَلَقاً ثُمَّ يَكْبُو، ويَنْصَلِتُ لِلْقِراعِ ثُمَّ يَنْبو، ويَتَطاوَلُ إلى مَالا يَنَالُهُ ثُمَّ يَخْبُو، وَهَذا طَريقُ الجَاهِلينَ المُغْترّينَ، ثُمَّ قَال:

والكَذبُ مِنْ آفَاتِه، وَهُوَ خُلُقٌ يَعُرُّ المرُوءَة، ويَشينُ الدِّيَانة، ويُسْقِطُ الهَيْبة، ويَجْلِبُ الخِزْيَ، ويَسْتَدْعي المَقْت، ويُقرِّبُ المَوْتَ، وقَلَّ مَنْ لَهِجَ بِهِ إلاّ كَانَ حَتْفُهُ فيه، وَما رُئي شَيْءٌ أَمْحَى لِنَضَارَةِ الوَجْه، ولِبَهْجَةِ العِلْم، ولِزِينَةِ البيانِ مِنْهُ، ثُمّ قَال: وعَلى ذلِكَ فَمَا رَأَيتُ رئيساً يُحْسِنُ مَا يُحَسِنُ مِنَ الإحْسَانِ، إلاّ وَهَو مَرْدُودٌ بالتَنَكُّدِ لِأَنّهُ مَا هَنّأَ قَطٌ بِنِعمتِه، وَلا أَمْتَعَ بِإحْسَانِه، ولا تَرَكَ لَهُ يَداً بَيْضَاءَ عِنْدَ أَحَدٍ إلاّ وكَرَّ عَلَيهَا بالتّسْويد"[٢].

---

(١) بكت : بكته بكتاً : ضربه ولقيه بما يكره ، وكتبه بالحجة ،وقرّعه ووبّخه .

(٢)التوحيدي، مثالب الوزيرين،ط٢،ص١٤٥-١٤٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إنّ الصاحب بن عباد في نظر الجيلوهي وزيرٌ مغرور ومفتخرٌ بنفسه، لأنه محظوظ في حياته، ولأنّ الطامعين في طلب الحاجة منه يصدقونه فيما يَعدِهُمْ بِهِ من آمالٍ ومصالح، فهو بحاجةٍ إلى أن يتواضَع أمام الآخرين، وأن لا يدّعي الكمال والتميز في كل شيء، وأن لا يمارسَ عادة التوبيخ، ومعاقبة الرجال المظلومين عِنده، لأنّه ليس بريئاً مِنْ النقص والسلبيات وهو معَرضٌ للضرب والتوبيخ مِنْ أي أحد، وقد يَتَعَرَضُ أيضاً للإهانة وسماع الكلام الذي يُسيء له، ويُقلل من شأنه ومكانته، وعلى الرغم من اعتلائه منصباً هاماً في الدولة، إلاّ أنه يجبُ عليه معاملة الناس بالرفق والمودة والاحترام، ومعاملة الناس بحسب مقاماتهم، فليس كلٌّ شيء دائماً على حاله، ويمكن أن تتحول الدولة من حال القوة والمكانة، ووجود المعاونين من خدم وحرس إلى حال الضعف والرُكود، والإهمال. وقَدْ يقول الناسُ وراءَ ظهره كلاماً يزيدُ على ما يفعله معهم، ويقول الجيلوهي أيضاً إنّ الصاحِب متناقضٌ في أفعاله وأهدافه، ويُعتَبَرُ هذا التناقض من صفات الجاهلين المتفاخرين.

ويصفه أيضاً بالكذب الذي لا يجلب له إلاّ الخزي، والمقت، ويقرّبه من الموت، ويشوّه صورته أمام الآخرين، ويَمحي بَهجة علمه، وزينة لسانه في البيان والفَصاحة، ونور وجهه، ويصفه أيضاً بِردِ من يُحسن إليه، ولا يُمَتِّعَ أحَداً بما يأتيه من إحسان أو مال، ويذكر الجيلوهي أنّ الذين يتوافدون على الصاحب بن عبّاد يهدفون من قَصْدِه المدح لإرضائه، وخوفاً من شدة توبيخه، أو تلبية لأمر لا يطلب إلا منه، ولا يُحقق إلاّ عن طريقهِ، أو خِدَاعه لنيل مرادهم، وأنّ الذي يَتَوسَلُ إليه لا ينال نصيباً من ماله إلاّ بعد أنْ يهينه الصاحب ويُوّبخه، ويَهْزَأُ به، ولم يكن للصاحب نعمة أو فضل على أحدٍ من الناس، وذلك بسبب حسده ونكده وامتنانه، وكثرة مدحه لنفسه، والتفاخر بما لديه من فضل، على الرغم من قلة عطاياه، حيث لا تزيد عن خمس مئة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

درهم، ونادراً ما تصل إلى ألف درهم، ولا ينالها إلا القليل من الأشخاص، بعد تعرضهم للذل والإهانة والإخلال بالمروءة من قِبَلِ الصاحب، ويتضّحُ هذا في قوله:

"وَقَدْ شَاهَدْتُ النَافِقِينَ عَليه، والمُتقدِّمينَ لَدَيه، وَوَقَفْتُ عَلى مُرادِهِمْ وَوَسائِلِهمْ وأسْبَابِهِمْ وذَرَائِعِهمْ فَلَمْ أَجِدْ مِنْهِمْ إلاّ مَخْشِّيَ[١] اللِّسَانِ اسْتَكَفَّ شَرَّهُ بِالإحْسَانِ كَالْخُوارزْمِيّ وغَيْرِه، أَوْ مُرتَبِطَاً لِأَمْرٍ يُرَادُ مِنْهُ لا يَعني بِهِ سِواهُ كَالْهَمَذانيّ ومَنْ جَرى مَجْرَاه، أو ملعوباً بِهِ قُرِّبَ عَلى ظِنّةٍ وَرِيبَةٍ ، وحالٍ زائِدَةٍ عَلى القُبحِ والفَضِيحَةِ كَفُلانٍ وفُلاَن، وَهُمْ الدُّهَمْ[٢]. ولَمْ أَجِدْ في ضُروبِ المُتَوسلّينَ إليه،بَعْدَ هَؤُلاء، مَنْ وَصَلَ إلى دِرْهَمٍ مِنْ مَالِه إلاّ بِبَذْلِ النَّفْسِ وإِدَالَةِ[٣]العِرْض، وَمُواصَلَةِ البُكُورِ والرَّوَاح، واسْتِنْشَاقِ الغُبار والرّياح، وتَجَزُّعِ الغَيْظَ والكّد، وَمُزاحَمةِ أَهْلِ الجَهلِ والنّقْص، ومُغالَبةِ ذُلّ الحُجّاب، وَسُوءِ أَدَبِ البَوَّاب، والرِّضا بِالْهُزْءِ والسُخْرِيَة؛ وَمَا ابيْضَّتْ لَهُ يَدٌ عِنْدَ أَحَد، وَلا تَّمَتْ له نِعْمَةٌ عَلى أَحَدٍ لِمَلِلِه، وحَسَدِه، وضَجَرِه، وَنَكَدِه، وامْتِنَانِه وكَثْرَةِ ذِكْرِهِ لِفَضْلِه، ومَدْحِهِ لِنَفْسِه. والعَربُ تَقُولُ في حِكَمِهَا: المِنّةُ تَزري بِالألبّاء[٤]. عَلى أنَّ عَطاءَهُ لاَ يُزيدُ عَلى مِئةِ دِرْهَم وثَوْبٍ إلى خَمْسِ مِئَة، وَمَا يَبْلُغُ إلى أَلْفٍ نَادرٌ، وَمَا يُوّفي عَلى الأَلْف بَدِيعٌ." [٥]

وَسَأل التوحيدي الجيلوهي يوماً، كَيْفَ تَرَى ابنَ عَبّاد؟ فَقال: كَمَا قَالَ الشَاعِر:

كَبَرْقٍ لاَحَ يُعْجِبُ مَنْ رَآهُ ... لا يَسْقي الحَوائِمَ مِنْ لَمَاقِ[٦]

---

(١) المِخَشُّ من الرجال : الماضي الجريء على هول الليل .ويقال :هو مِخَشّ ليل: دَخّال في ظلامته والذي يخالط الناس ويأكل ويتحدث معهم والفرس الجسور.

(٢) الدّهم : العدد الكثير.

(٣) الإدالة: الإهانة.

(٤) تزري بالألبّاء : تضع من شأن أصحاب العقول .

(٥)التوحيدي، مثالب الوزيرين،ط٢، ص١٤٦-١٤٧ .

(٦) اللماق: اليسير من الطعام والشراب.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونَظَرَ إليه يوماً وَقَدْ طَلَعَ في مَوْكِبِهِ فَتَمثّلَ بِقَوْلِ الشاعر:

وَأَنْتَ كَغَيْثِ السُّوءِ مَنْ يَرَ بَرْقَهُ يَشِمْهُ وَمَنْ يَحْلُلْ بِهِ فَهُوَ جَادِبُهْ[١]

فَهُو انسانٌ يُعْجِبُ مَنْ رآهُ بِشَكْلِهِ ومَنْظَره الخارجي، ولكّنه إذا عرفه جيداً وعرف أَخْلاقَهُ، وما عِنْدَهُ وَما لَهُ وَمَا عليه، عَرِفَ أنّه لا يعطي إلاّ القليل ولا يظهر إلاّ الشيء السيئ في شخصيته، وشبهه بالبرق الذي يلمع في السماء، ويُعْجِبُ الناظرين إليه، لكنه لا يجلِبُ المطر.

٩: صورة الصاحب بن عبّاد في نظر أبي راغب العُتبي. [٢]

يرى أبو راغب العُتبي أنّ الصاحب بن عبّاد شَخصٌ قليل السمعة والشُهرة، ويبدو أنّه لم يسمع به كثيراً، ولهذا قرر أن يَنْظر في شأنه، ويعرف من هو وما أخلاقه، وما الذي يُميزه أو يُشوه شخصيته في رسالة وجهها إليه ضمّنَها التوحيدي في كتاب مثالب الوزيرين، حيث قال:

" إنّ بُعْدَ صِيتِكَ بَعَثَنِي عَلى تَصفُّحِ شَأْنِكَ، وتَصفُّحِي لِذَلِكَ وقَفَنِي على أحْوالٍ كَرِهْتُها لَك، وأنِفْتُ مِنْها لِمَنْ بَلَغَ دَرَجَتَك، والعَيْبُ مِنْكَ مُضَاعَفٌ، واللّسانُ فيكَ جوّالٌ، والحقْدُ عَلَيكَ سَرِيعٌ،ولَوْلا الحالِ التي أنْتَ عَلَيْها مِنَ القُدْرَةِ والتّمَكُنِ لَكَانَ العُذْرُ يُنَاضِلُ عَنْك، والتّوبيخُ يتبدّدُ دُونَكَ. وَمَا أَحْسَنَ ما قَالَ شَاعِرُ عَصْرِكَ في نَظْمِهِ:

ولَمْ أَرَ في عُيوبِ النَّاسِ شَيْئاً كَنَقْص القَادِرِينَ على التَّمَامِ[٣]

قَدْ خَوَّلَكَ اللهُ مَا يَفُوتُ ذَرْعَ هِمَّتِكَ، وآتَاكَ مَا يَتَجاوزُ اشْتِطَاطُك، في حُكْمِكَ مِنَ المَالِ والثَروةِ والرِئَاسَةِ والعِلْمِ والقُوةِ والمَكَانَةِ؛ ولم يَخُصَّكَ بِهَذا كُلِّهِ بِسَابِقةٍ لَكَ عِنْدَهُ، وَلاَ حَقَّ لَكَ عَلَيهِ، بَلْ كُلُّهُ تَفَضُّلٌ في الأَوَل، واخْتِيَارٌ في الثّاني، وَثَوابٌ أو عِقَابٌ في الثَالِث، ولَقَدْ شَدَدْتُ وَسْطِي في تَعَرُفِ أَخْبَارك، واسْتَعَنْتُ كُلَّ عينٍ وَأُذُنٍ في مَعْرِفَةِ لَيلِكَ ونَهارِك".

---

(١)انظر المصدر السابق، ص١٩٦-١٩٧ .

(٢) لم أجد له ترجمة في كتب المصادر .

(٣) البيت للمتنبي من قصيدة مطلعها: " ملو مكما يجل عن الملام ".

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فعندما عَرفَ شَخْصِيته جيداً وجد فيها صفات سيئة كرهها له، وفيمن كان له مكانة في المجتمع مثل مكانته، لأنّ الناس تذكر بألسنتها ما فيه من العيوب والأخطاء، على الرغم ممّا يتميز به من القدرات والمكانة الجيدة، إلاّ أنّ الانسان مهما كانَ على درجةٍ من التميز، لكنه لا يستطيع أن يكون كاملاً في كل شيء، فقد وجد العتبي في الصاحب ما منحه الله من ثروة وعلم ورئاسةٍ بفضلٍ منه، واختيار له في الحفاظ عليها، ومحاسبته عليها بالثواب إذا أحسن وبالعقاب إذا أخطأ، وقد استعانَ في معرفة أخباره بأشخاصٍ رأوا بأعينهم ما يتصرف به ابن عبّاد، وسمعوا بآذانهم ما يقوله بلسانه من كلام، وقد حدّثوه بما يسيء لسمعة الصاحب بن عبّاد، يقولُ:

" فَلَمْ أَجِدْ في تَفْصيل ذَلِكَ إلاَّ ما يَعْصِبُ بِرَأْسِكَ العَار، ويَحْشُدُ عَلَيْكَ أَسْبَابَ الدَّمَار، ويَكُونُ عَاقِبَتُكَ مِنْهُ دُخُولُ النّار، لأنّكَ تُظهِرُ القَوْلَ بالوعيد[١]، ثُمَّ تَرْكَبُ كُلَّ كَبِيرٍ مِنْ أَخْذِ المَالِ المُحرَّم، واسْتِبَاحَةِ الحريمِ المَصُونِ، وقَتْلِ النَفْسِ المُؤْمِنة، ومُسَاهَمَةِ الفَسَقَةِ الفَجَرة، وخِدْمَةِ الظَّلَمَةِ الغَشَمَة، وتَقْدِيمِ أَهْلِ المُجُونِ والعَيّارة[٢]، وَفي عُشرِ هَذَا سُقوطُ المُرُوءَة، والانْسِلاخِ مِنَ الدّيانَة، فَيا أيُّها المُدِلَّ بالْتَوحِيدِ والعَدْلِ! أَهَذا كُلُّهُ في مَذْهَبِكَ أَوْ في مَذَاهِبِ أَسْلافِكَ مِثْلَ واصِلُ ابنْ عَطَاء[٣]، وعمرو بن عبيد[٤]، وأبي موسى المُرْداز[٥]، والجَعْفَرين[٦]؟ أَمَا كَانُوا مَعْ بِدْعَتِهِمْ التي شَانُوا بِهَا وَجْهَ الإسْلامِ، وَكَادُوا بِهَا أَهْلَهُ، مُجْتَهدينَ في غيرِ مَا أَنْتَ بِهِ رَاضٍ لِنَفْسِكَ ومُصرٍّ عَلَيها، باعْتِذَارِكَ أَنَّ اللهَ يُخَادَع، وَلا مَنْجاة لِلْعِبد إلاّ بِالطَاعةِ الخَالِصَة، والتّوبةِ النَّصُوح، هَذَا إذَا

---

(١) يقولُ المعتزلة بالوعد والوعيد، وهذا القول أحد الأركان التي يقوم عليها الاعتزال، ومعناه أنّ الله تعالى صادقٌ في وعده ووعيده وأنّهُ لا يَغْفِرُ الذنوب إلاّ بعد التوبة. ومن أسماء المعتزلة (الوعيدية).

(٢) العيّار: الكثير التّجوال والطّواف الذي يتردّدُ بلا عملٍ يخلي نفسه وهواها .

(٣) أبو حذيفة واصل بن عطاء رأس المعتزلة وإمام المتكلمين في زمنه، (ت١٨١هـ)،انظر وفيات الأعيان، ج٢،ص١٧٠ .

(٤) أبو عثمان عمرو بن عبيد من شيوخ المعتزلة الأولين، (ت٤١٤هـ)،انظر تاريخ بغداد ،ج٢، ص١٦٦-١٨٨ .

(٥) أبو موسى عيسى بن صبيح الملقّب بالمرداز البصري،ت٢٢٦،من كبار المعتزلة ،وأرباب التصانيف الغزيرة،أخذ عن بشر بن المعتمر ، انظر سير اعلام النبلاء،ج٩،ص٢١٨.

(٦) الجعفران: جعفر بن ميشر الثقفي، (ت٢٣٤هـ)،و أبو الفضل جعفر بن حرب الهمذاني المعتزلي العابد ، (ت٢٣٦هـ)،له من المصنفات كتاب (متشابه القرآن ،وكتاب الاستقصاء)،انظر سير أعلام النبلاء ،ج٩،ص٢١٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كَانَ الإيمانُ سَاكِنَ صَدْرِه، والخَوفُ مِنَ اللهِ مُتَرَدِّداً في أَقْطَارِ فِكْرِه، واليَقينُ بِالْمَعَادِ عَمُودَ دِينِه، والعِلْمُ بِالجَزَاءِ رَاسِخاً في فؤادِه. فَأَمّا إذَا كَانَ عَارياً مِنْ هَذا كُلِّه فَهُو الكَافِرُ بِعَينِهِ الذي سَمِعْتَ بِه، وَعاقِبَةُ الكَافرينَ (جَهَنَّم يَصْلَوْنَهَا وبِئْسَ المَصيرِ) "(المجادلة:٧\٥٨).

فَقَدْ عَرِفَ فيه الإدْعَاء بِإظهار التدّين وارتكاب الكبائر التي حَرَّم الله فعلها، ورأى أَنَّ رُؤساء المعتزلة أفضل منه في اجتهادهم وبعدهم عمّا يفعله، وادعائه بأنّ الله يغفر الذنوب، ويقبل التوبة، ويبيّن له أنّ ذلك لا يكون إلاّ إذا كان المرءُ صَادِقاً في ايمانهِ بالله والخوف منه، ومخلصاً في طاعته له، أمّا إذا كان غير ذلك فلا يكون إلاّ كافراً وجزاؤه النار.

ثُمَّ يبين للصاحب بن عباد أنّه لم يقصد من مخاطبته بهذا الكلام، وتوضيح ما عنده من أخلاقٍ وتصرفاتٍ، العتاب واللؤم عليه، أو الطمع في ماله، لكنه خاف عليه من اعتياده على ارتكاب المحرمات المخالفة للدين الاسلامي، بل قَصَدَ من كلامه نصيحته وتحذيره ممّا يقوم به من أفعال تضره وتَضُرّ غيره، ويصرّح بأنّ الذي قوّاه لذلك ما رآه من الصاحب من كفرٍ وادعاء، فهوَ يخاطبه بقوله:

" واللهِ مَا حَرَّكَني لِنَبْذِ هَذَا الكَلامِ إلَيكَ مَعْتَبَةٌ عَلَيْكَ، لأنّي لَمْ أَنْتَجِعْكَ، ولَمْ أَطْمَعْ في مَالِك، ولاعَرِفْت وجهي، ولا سَمِعْتَ بِاسْمِي، لَكِنْ أَبَتْ نَفْسِي أَنْ تَقِرَّ على الجَهْلِ بحالكِ، وبِدُخْلَة[1]مَا يَكُونُ عَلَيهِ أَمْثَالُكَ، فَآثَرْتُ نَصيحَتَكَ، فإنّ النّبي صلى الله عليه وسلم قال: الّدينُ النّصيحَة، وَمَا أَخْوَفَني أَنْ تَكُونَ جُرْأَتُكَ عَلى هَتْكِ حُرُماتِ الدِّينِ، ومُعَارَضَةِ الصَالِحينَ مَعَ العُكُوفِ عَلى الخُسْرانِ المُبين، إنَّمَا قُوِيَتْ وَرَبَتْ لأنّك شَارِدٌ على رَبِّك، كَافِرٌ مِنْ دينِ نبيِّكَ، مُدَّعٍ لَهُ بِلِسَانِكَ، شَاكٌ فِيهِ بِفؤادِك، مُتعَجبٌ مِمَنْ لَهُ إخْلاص، أو لّهُ بالدَينُونَةِ اخْتِصَاص،".

(١) الدخلة (مثلثه): النية والمذهب وجميع الأمر والخلد والبطانة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثُمَّ يُخاطِبُه بِقولِه:

"حَدِّثْني، أيُّ أَمْرٍ أَنْتَ فِيهِ عَلى رُشْدٍ، وآخِذٌ مِنْهُ بِاحْتِيَاط؟ مَا أَنْتَ عَلَيهِ مَعَ الغِلْمَانِ المُـرْدِ الجُرد، أَمْ مَا أَنْتَ مَشْهورٌ مِنَ المَجَانةِ والسُّخْف؟ ثُمَّ تَدَّعي الإطْعَامَ لِلْخَاصِ والعَام، وَقَدْ شَـاهَدْنَا فَوَجَدْنَا عَلى بَابِكَ قَوْماً يَضْرِبُونَ بِالمَقارِعِ وُجُوه النّاس، وَيحُطُّونَ عَلى رُؤُوسِهِم العَذابَ طَـرْداً لَهُمْ وإبْعَادا. أَفَمَا هذا بِأَمْرِكَ وَعَيْنِكَ وَأُذُنِكَ؟ فَلِمَ تَتَكَلَّفْ مَا لاَ تُقِرُّ بِهِ، ولِمَ تَدَّعِي مَا لاَ تُسْلِمُ فيـه؟ لَقَدْ وَقَفْنَا عِيَاناً مِنْ اسْتْخَفَافِكَ بِالأَحْرارَ، وَوَضْعِكَ مِنْ ذَوي الأَقْدارِ، وَكُفْرِكَ بِوَلِيِّ نِعْمَتِكَ، وتَقَرّبكَ مِنْ كُلِّ شُبهَةٍ في أَمْرِكَ مَا لَو تَنَفَّسْنَا بِهِ بينَ النّاسِ، أَوْ رَسَمْنَاهُ بالْقَلَمِ في القُرطَـاسِ، لَكَـانَ ذَاكَ زَائداً عَلى تَمَرُّدِ فِرْعَون، وَكُفْرِ أبي جَهْل، وَجُرْأَةِ دِيكِ الجِنِّ[1]. لَقَدْ قِيستْ مُرُوَّتُكَ إلى مُـرُوَّاتِ قَوْمٍ قُرِنُوا بِالزّنْدَقَة، فَوُجِدَتْ مُرّواتُهم فَوْقَ دِيانتِكَ، وَلَقَدْ رَأَيْنَا قَوماً لَمْ يَتَحلّوا بِالـدَّعْوى تَحلِّيـكَ اسْتَنْفَذُوا قُوّتَهُمْ في طَلَبَ مَرْضَاةِ مُؤْمِليهِمْ ومُنْتَجِعي قَطْرِهِم، وَبَلَغُوا مِنْ ذَلِكَ المَبَالِغَ وَأَنْـتَ مـع تَمكُّنِكَ وَيَسَارِكَ لَمْ تَسْمَح مِنْ الشَاةِ بِظِلْفِهَا، ثُمَّ مَلَأْتَ الدُنْيا بَقْبَقَة[2] بالامْتِنَانِ عَلى الصّغيرِ والكبيرِ، كَأَنّكَ خَالِقُ الخَلْقَ، وَبَاسِطُ الرّزق.

وهُنا يعرّفه بِأَنّهُ ليس على رشد وغير محتاط لأمر، فهو إضافةً إلى ادعاءاتـهِ يتّـصِفُ بالمُجُونِ، والسُخفِ، ويتظاهر بإطعام الناس، ويظهر عكس ذلك بجعل حـرّاس داره يُوقِعُـونَ الضَرْبَ والأذى بالأشخاص الذينَ يقصدونه، ويقصد العتبي أنّ الصاحب يقولُ بلسانهِ شيئاً ثـم يفعل عكسه شيئاً مخالفاً، ويخاطبه بأنّ الذي يفعله يزيد على ما كانَ عليه فرعون من التمـرد، وأبِو جَهْلَ من الكُفر، وديك الجن الحمصي من الجرأة، وأنّ مروءة غيره من الـذينَ يتـصفون بالزندقةِ أفضَلُ من الصاحب الذي يدّعي الدّيانة، وأنّ غيره استطاع أن يكسب مبلغه من الـشكر

(١) عبد السلام بن رغبات، (ت٢٣٥هـ)، الشاعر الحمصي المشهور انظروفيات الأعيان،ج١،ص٢٩٣.

(٢) البقبقة: كثرة الكلام، والبقباق: الكثير الكلام .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والمدحِ مِنْ قصّاده وطالبيه من غير دعوة وتفاخر، أمّا هو في تمكّنِه وقدرته فواثقٌ بنفسه كثيراً وتفاخر أمام غيره بالامتنانِ والبُخل على الناس جميعاً، ويُوَعيه لما هو عليه بأن يأخذ حذره مما يفعله من أخطاء لأنّه لن يَسْلَمَ، وسيتعَرَضُ للهجومِ مِنْ أعدائه، والحقد والدعاء عليه.

وفي نهاية خطابه يوّجه للصاحب تحذيراً من الدنيا، وتذكيراً بالآخرة، وتخويفاً من عقاب الله، ويطلُبُ منه الأخذَ بنصيحته وفهمها جيداً حيث يقول:

"وأخْتِمُ قُولي هَذَا بِمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ لأَصْحَابِهِ، قَال: أُحذِّرُكُمْ الدُنْيا، وأخَوِّفُكُمْ يَوْمَ التَّنَاد، يَومَ لا يُعْرَفُ لخيرٍ أَمَد، وَلاَ يَنْقَطِعُ لِشَرٍّ أَمَد، ولا يَعْتَصِمُ مِنَ اللهِ أحد.

وأَرْجُو أَنْ تَسْمَعَ مَا صَدَقْتُ القَولَ فِيه باتّضاح، وتعْرِفَ ما تُؤتيهِ بِارْتياح، والسَلام"[١].

إنّ العُتبي يُوجّهُ نصيحةً للصاحب بن عبّاد كونِه مسؤولاً عن دار الوزارة، تلك الوزارة المساعدة لدار الإمارة أوَ الحاكمِ المسؤول عن دولته ورعيتهِ، وهي مسؤولية صعبة يجب العمل بها بأمانةٍ وصدقٍ ورفق، ويبدو أنّ الذينَ نقلوا للعتبي صورة الصاحب، نقلوا جانباً سيئاً في شخصيته، وتركوا الجانب الحسن، والإنسان يحمل في شخصيته الخلق الحسن والسئ، وما من إنسانٍ كامل، لكن العتبي لم يكن هجومياً على الصاحب ولاذعاً في نقده، بل نقد شخصيته، ووجه له النصيحة لأنّ النصيحة محببة ، وتُعتبرُ رسالته رسالةُ نُصحٍ وتحذير، وقد استخدم فيها ضمير المخاطبة مثل آثرتُ نصيحتُكَ، وأمَا رأَيْتَ، وغيرها، واستعان بأبياتٍ من الشعر وعباراتٍ تحملُ في ثناياها الحكمة، جعلها أمثلة موضحة لكلامه ونصحه مثل: رُبَّ واثقٍ خَجِل، وأحذركم يوم التناد، وقد كانَ بمثابةِ المرشد للصاحب بن عبّاد أو العالم الفقيه الخائف على مصلحة أبناء أمته الإسلامية، هذا وهو لم يَرَ الصاحب ولم يلتق به، فكيف لو رآه، لكان متتبعاً لكل خطوة يخطوها، وكُلّ لفظةٍ يَتَلَفَظُ بها.

---

(١)التوحيدي، مثالب الوزيرين،ط٢، ص١٢٤–١٢٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٠: صورة الصاحب بن عبّاد في نظر الغويري[١].

سأل التوحيدي عن رأي الغويري في الصاحب بن عبَّاد و قال له:

"حَدِّثْنِي عَنْ ابنِ عَبّاد فإنَّكَ قَد عَرفتَ لَيلَهُ ونَهارَه، وَخَافِيهِ وبَاديه.

فقال الغُويري:

في ابنِ عَبّاد قِحةُ مَأْبُون، ولَوْثَةُ مَأْفُون، وَهُو ابنُ وقته مَعَك، ونَتِيجَةُ سَاعَتِهَ لَك، لا يَعْرِفُكَ إلاّ عِنْدَ امْتِلاءِ العَينِ بِكَ، ولا يُعْطِيكَ شَيْئاً إلاَّ إذَا أخَذَ أَكْثرَ مِنْهُ مِنْك، يَشْتَرِي عِرْضَكَ وَلاَ يُولِيكَ حَقَّكَ، ويَبْلُغُ بِلِسَانِهِ مَا لاَ يَسْمَحُ لَكَ بِعُشْرِهِ مِنْ فِعْلِه، ثُم الوَيْلُ لَكَ إنْ أَصبَتَ فَي كَلامِك، والوَيلُ لَك إنْ أَخْطَأْت، عَلَى أَنَّ الخَطَأَ يَعْطِفُهُ عَلَيكَ بِالرَحْمَة، والصَوابُ يَحْمِلُهُ في مُعَامَلَتِكَ عَلى الحَسَدِ والانْتِقَام، يُرِيدُ مِنْكَ ألاّ تَذْكُرَ فَاضِلاً عِنْدَه، وَإنْ ذَكَرْتَهُ فَضَّلْتَهُ عَلَيه، وإنْ ذُكِرَ الشعرُ فَقُل: أَينَ مُسْلَمُ بن الوَلِيد[٢]مِنْك، وإنْ ذُكِرَ النَحْو فَقُل: وَصَلْتَ إلى مَا لَمْ يَصِلْ إلَيْهِ سِيبَوَيه، وإنْ ذُكِرَ البَيَانُ فَقُل: فِيكَ أَعْراقٌ مُتَواشِجَةٌ مِنْ قُسّ بن سَاعِدَة[٣]. ولَعَلَّهُ كَانَ في قُسّ عِرْقٌ مِنْ آبائِكَ الفُرسْ، وإنْ ذُكِر الكَلامُ فَقُل: لَو رآكَ النَظَّامُ[٤]لَلَزَمَ بَابَك، وَحَمَد غَاشيتَك، وإنْ ذُكِرَ الفِقْهُ فَقُل: أَيْنَ أَبَوُ حَنِيفة[٥]عَنْ هَذَا التَحْقيق والتَدْقِيق، وَ أَيْنَ صَاحِبَاهُ مُحمّد

---

(١) ورد ذكر اسمه فقط في معجم الأدباء ،ج٢،ص٧٠٦.

(٢) هو الشاعر صريع الغواني المتوفي سنة ٢٠٨هـ .

(٣) من حكماء العرب وفصاحائهم وخطبائهم، توفي سنة ٦٠٠م .

(٤) النّظام شيخ المعتزلة ،صاحب التصانيف،أبو اسحاق إبراهيم بن سيّار مولى آل الحارث بن عبّاد الضُّبَعي البصريُّ المتكلم ،توفي سنة بضع وعشرين ومائتين،له من التصانيف كتاب (الطفرة)،وكتاب(الجواهر والافراد)،انظر سير أعلام النبلاء ،ج٩،ص٢١٤.

(٥) أبو حنيفة النعمان بن ثابت إمام الحنفية و أحد الأئمة الأربعة عند أصل السنة ، ولد في الكوفة سنة ٨٠ هـ ، كان قوي الحجة والمنطق ، وكان كريما جواداً حسن المنطق والصورة ، جهوري الصوت ، توفي في بغداد سنة ١٠٥ هـ ، انظر البصائر والذخائر ، ج٢ ، ص ٢٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأَبُو يُوسُفَ[١] عَنْ هَذَا التَطبيقِ والتَعْمِيق، فَأَمَّا الجَاحِظُ فَمَا وَزْنُهُ عِنْدَ مِثْقالِك، وَأَيْنَ شَرَارُهُ مِنْ نَارِك، وَهَلْ يَسْبَحُ في بَحرِك، وَهَلْ يَتَطَاوَلُ إلى سَمَائِكَ، لَوْ رَآكَ لَرَشَاك، ولَوْ شَاهَدَكَ لم يَنْتَسِبْ إلاَّ إِلَيْكَ. وَأَمَّا إبراهيمَ بن العبّاس الصُولي فَأَحْسَنُ مَا تَخْتَارُ لَهُ أَنْ يَكُونَ مِنَ المُختَلِفينَ إليْك، ومِنَ الحَاذِينَ على مِثالِك، والآخِذينَ عَنْك، وأمّا الدَواوينُ فَالّكِلْواذي يُسَلِمُهَا لَك، وَيَتَبرأُ الأَعْمالِ بِسَبَبَك، ويَطرَحُ الرُسُومَ القَدِيمَةَ مَعَك، وَيأَخُذَ فيمَا تَبتَدِعُهُ وَتَضعَهُ لأنه إنّ نَازَعَكَ افْتَضَحَ علـى يَـدِك، وَالعَاقِلُ لا يُلقَي بِيَدِهِ إلى التَهْلُكَه، ولَو وَثِقَ أَنَّكَ تَقْبَلُ مُصانَعَتَهُ لَصَانَعَك، ولَوْ عَلِمَ أَنّك تَبْقَى عَلَيهِ لَخَدَمك، وأَمَّا الخَطُّ فابنُ مُقْلَة، وابنُ أبي خَالِد، والبَرْبَرِي وَمَنْ تَقّدمَ وَتَأَخّرَ أَعْطُوكَ الضّمة فِيـه، وأَظْهَروا لَكَ الانْقِيادَ لَه". [٢]

ويبدو أن الغويري عرف ابن عباد جيداً، فصحبه وعرف ظاهره وباطنه، وهو في نظره شخص وقح ومزاجي، ويأخذ أكثر مما يعطي، ولا يوفي أحداً حقه، ويقول ما يشاء من الكـلام الذي يمنع غيره من الحديث به، أي أنه أناني يحب كل شيء لنفسه، وهو حسود ومنـتقم مـن الشخص الذي يتفوق عليه في الإجادة والإصابة، ولا يجب أن يُفَضَّلَ أحدٌ عليه، ويجب على من يخاطبه أن يمدحه بتفوقه وتقدمه على أشهر علماء الشعر، والنحو، والخطابة والفقـه والخـط، ويحب التفضل والظهور في كل شيء، وبذلك يحب كسب الناس بالمدح والثناء.

(١) أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن خنيس الأنصاري الكوفي قاضي القضاة وسيد الفقهاء بعد الإمام أبي حنيفة ، كان بارعا في عدة علوم ، قال الذهبي : " كان عالماً بالفقه والأحاديث والتفسير والسير وأيام العرب" وقال الخطيب البغـدادي : " كان أفقه اهل عصره ، ولم يتقدمه أحد في زمانه ، وكان النهاية في العلم والحكم ، والرياسة والقدر " توفي ببغداد سنة ١٨٢ هـ ، أنظر البصائر والذخائر ، ج٢ ، ص ٢٨ .

(٢)التوحيدي، مثالب الوزيرين،ط٢ ص٢٢٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١١: صورة الصاحب بن عباد في نظر أبي الوفاء المهندس[١].

وسأل أبو حيان التوحيدي أبا الوفاء عن رأيه في الصاحب بن عباد، حيث توجه أبو الوفا إلى الصاحب بن عباد برسالة من بغداد وكان ابن عباد في جرجان، فقال فيه أبو الوفاء:

" يُقَالُ لِمِثْلِه عِنْدَنَا بنيسَابُورَ طبلٌ هَرثَمِي[٢]، وَيُقْالُ لِمِثْلِهِ عِنْدَ إِخْوانِنَا بِبَغْدَاد: مَادِحُ نَفْسِهِ يُقْرِؤكَ السَلام، وَهُوَ مَعْ هَذَا عِنْدَ أَصْحَابِهِ رَقيعٌ طَيِّبٌ وَعِنْدَ الكُتَّاب أَحْمَق وغَلِيظ، وَعِنْدَ سِفْلَةِ المُعْتَزِلة وَاحدُ الدُنيَا، وَعِنْدَ الفَلاسِفَة طَائِرٌ ظَرِيف، وَعِنْدَ الصَالِحينَ ظَلُومٌ قَاسٍ، وعِنْدَ اللهِ فَاسِقٌ عَاصٍ، وعِنْدَ أَهْلِ بَلَدِه أَفَّاكٌ أثيم، وعِنْدَ الجُمهُورِ شَيطَانٌ رَجيمَ"[٣].

لقد بيَّن أبو الوفاء رأيه في الصاحب ورأي غيره فيه، حيث وصفه بأنه كالأسد في قوته، وثقته بنفسه، وفي نظر البغداديين مادحٌ لنفسه ومغروراً بها، وهو في نظر أصحابه مسالم وطيب الخلق، وفي نظر الكتَّاب يتصف بالحماقة والغلظة، وفي نظر المعتزلة شخص لا مثيل له، ويتصف بالتميز والنقص من أي عيب، وفي نظر الفلاسفة ظريف الدعابة والفكاهة، وفي نظر الصالحين يتصف بالظلم والقسوة، ويعتبره أبو الوفاء من أهل الفسق والعصيان، ويصفه أهل بلده بالكذب وارتكاب الآثام المحرمة، وأما عند الجمهور، ولعله يقصد عامة الناس، فهو شيطان رجيم، أي أنه يتصف بالخبث والمكر والخداع.

إن أبا الوفاء يصف الصاحب بن عباد كما يراه، وعبّر عن رأيه فيه من خلال وجْهَة نظره ونظر بعض الفئات في المجتمع، فوصفه كل واحد منهم بصفة مختلفة عن الأخرى فبعضهم وصفه بالغرور والظلم والقساوة، والبعض الآخر وصفه بالطيبة والظرافة.

---

(١) أبو الوفاء، محمد بن محمد بن يحيى بن اسماعيل بن العباس البوزجاني الحاسب المشهور في علم الهندسة، (٣٨٧هـ) انظر وفيات الأعيان، ج٥، ص١٦٧ .

(٢) الهرثم:الاسد

(٣)التوحيدي، مثالب الوزيرين،ط٢، ص٣٠٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٢: صورة الصاحب بن عبّاد في نظر الخليلي[١].

ويتابع أبو حيان التوحيدي سؤاله عن آراء الكتاب في ابن عبَّاد وهو هذه المرة يسأل الخليلي:

" أَيْنَ ابنُ عَبَادَ مِنْ ابنِ العَميد؟

فَقَدْ خَبِرتَ ذَلِكَ بِمُلاَزَمتِكَ، وَعَرِفْتَ هَذَا بَتَعرُضِك فَأَجَاب الخَليلي: أَمَّا ذَاكَ، فَكَانَ لا يُعْطِيك، وَلَكْنّهُ كَانَ لا يُطْمِعُك، وَأَمَّا هَذّا فَإِنَهُ يَطْمِعُكَ حَتّى يَسْتَفرِغك ثمّ يَرمِيكَ بِالْحِرمَان، أَوْ بِعَطَاءٍ شَبِيهٍ بِالْحِرمَان، وتُفّسيرُ هَذَا عِنْدَكَ يَا أَبا حَيْان. قُلْتُ كَيفَ كَانَ عِلْمُ ذَلِكَ مِنْ عِلمَ هَذا؟ قَال: كَانَ ذَاكَ يَدَّعِي الفَلْسَفَةَ دَعْوى شَدِيدَة، وَلَكّن لا يُنَادِي عَلَيهَا في الأَسْوَاق، وَهَذَا يَدَّعِي عِلمَ الدِّينَ وَهُوَ يَعْرِضُهُ فيمَن يُرِيد"[٢].

فهو في نظره ظالمٌ يطمع الناس في كرمه ثم يحرمهم، وقال للتوحيدي: وتفسير هذا عندك يا أبا حيان، ويقصد بذلك ما جرى للتوحيدي مع الصاحب بن عباد من حرمان مقابل خدمته له، وهو مدعٍ للعلم، ويدعي معرفة الدين والعمل به، ويتفاخر بذلك أمام من يشاء من الناس، وهو منافق ومخادع كما يرى، ويرى الخليلي أن الصاحب بن عباد مختلف عن ابن العميد، فابن العميد إذا لم يعطِ أحداً من ماله أو كرمه، فإنه لا يطمعه ولا يعده بشيء منه، ويدعي الفلسفة، لكن لا يظهر ذلك أمام الناس، ويتفاخر به، على العكس من ابن عباد ويرى أن ابن العميد أحسن حالاً وتصرفاً من ابن عباد.

---

(١) لم أعرف من يقصد المؤلف لأنه لم يذكر الاسم الصريح للخليلي .

(٢)التوحيدي، مثالب الوزيرين،ط٢ص٣١٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٣: صورة الصاحب بن عباد في نظر أعلامِ آخرين ممن ذكرهم التوحيـــدي في كتاب المثالب

ذكر التوحيدي في كتاب المثالب آراء أخرى لبعض الأعلام من الكتاب أو الشعراء الذين عاصروا الصاحب بن عباد أو سمعوا به، ووضحوا وجهة نظرِهِم فيه، فقال فيه ابـــن الجلبـــات المصري[١]: مَا أَدْرِي ما أَقُولُ في رَجلٍ مِنْ قَرْنِهِ إلى قَدَمِهِ عَيْبٌ وَخِزْيٌ وَنَذَالَةٌ وَرَقَاعَة، عَلَـــى أَنَّ الطَبْعَ النَكِد أَمْلَكُ لَه، والعَادَةَ القَبيحَةُ أَغْلَبُ عَليه، والإقْلاعَ عَنْ المَنْشَأُ المُعانِ بِالْطِباعِ صَعْبٌ وَعسير، ولَعلَّه مُمْتَنِع[٢].

إن الصاحب في نظره رجل يتصف بالخزي والوقاحة، وفعل العادات القبيحة، ويرى أن إقلاع الصاحب عن هذه الطباع واجتِنابها مستحيل لأن الصاحب تربى عليها واعتـــاد عليهـــا، ولذلك احتار في التعبير عن رأيه فيه. وقال الحاتمي[٣]: "رَأَيْتُ رَجُلاً مَدْخُولاً في جَميعِ الفَضَائِل، مَردُوداً على كُلّ التَأْويلاَت، لِتَيهِه، وإعْجابِه، وَحَسَدِه، ولَوثَتِه، وَقِلَّةِ مُصَافَاتِه، وَنُبُـــوِّ رعَايتـــه، وَفَساد دُخْلَتِه، وَوَقَاحَةِ وَجْهِه، وشِدَّةِ تَعْييرِه، وَفَشْوِ أُبْنَتِه[٤] وقُبْحِ سِيرَتِهِ فِي مَذْهَبِه، وَنُصْرَتِهِ لمَـــا لا يُعْتَقدُ بِقَلْبِه"[٥].

فالصاحب في نظرالحاتمي فاسقٌ في عمله، أي أنه يمارس في عمله ومهامه التي تحتاج إلى جهد وتعب، الغش والخداع والكذب وغيره، وعلمه مشكوك فيه، أي أنه يدعي العلم بجميـــع نواحي المعرفة والحياة.

---

(١) ابن الجلبات ، في الأصل : (لابن الحليات) وهو تحريف صوابه ما أثبتنا ، هو أبو القاسم علي بن جلبات ، ذكره صاحب اليتيمة في الجزء الثاني ص ٢٧٠ وروى شيئاً من شعره ، انظر الإمتاع والمؤانسة ، أبو حيان التوحيدي ، ج١ ، ١٣٥ .

(٢)التوحيدي، مثالب الوزيرين،ط٢، ص٢١٦ .

(٣) الحاتمي أبو علي محمد بن الحسن بن المظفر ،الكاتب اللغوي البغدادي المعروف بالحاتمي،(ت٣٨٨هـــ)مـــن كتبـــه (الرســـالة الحاتمية)و(حلية المحاضرة)،انظر وفيات الأعيان،ج٤،ص١٨٢٦.

(٤) الأبنة: العيب والحقد والعداوة.

(٥)التوحيدي، مثالب الوزيرين،ط٢، ص ٢١٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقال عنه أبو صادق الطبري[١]: "سَلْ عَنْ البَخْتِ واللهِ مالَهُ سَمْتٌ يُتَوَّجَهُ إليه مِنْه، ولاَ بَابٌ يُعْتَمَدُ فِيه علَيه، بَيْنَا هُوَ لَك، إذْ صَارَ لِعَدُّوِك، حَالُهُ أَحْوَال، وَشَأنُهُ شُؤون، وكُلُّ ذَلِكَ جَارٍ على الجُنون"[٢].

أي أن الصاحب ليس عنده طريقة معروفة يمكن التوجه منها إليه، وهو متقلب الحال والرأي، مرة تراه صديقاً، ومرة يصبح عدواً، ومرة متناقض ويتصف بالجنون.

أَمَّا ابنُ فَارس فقال عنه:

"إنّهُ لِلهِ عَدُّو، ولِلْأَحْرارِ مُهِين، ولأَهْلِ الفَضْلِ حَاسِد، ولِلْعَامَةِ مُحّب، ولِلْخَاصَةِ مُبغِض. فَأَمّا عَدَاوَتُهُ لِلَّهِ فَلِقِلَّةِ دِينه، وأَمَّا إهَانَتُهُ لِلْأَحْرَارِ فَهِيَ شَهيرةٌ كَهَذا النَّهار، وأَمَّا حَسَدُهُ لِأَهْلِ الفَضْلِ فَجَرِّب ذَلِكَ بِكَلِمَةٍ تُبدِيهَا، وَأَمَّا حُبُّهُ لِلّعَامَةِ فَبِمُنَاظَرَتِهِ لَهُمْ وَإقْبَالِهِ عَلَيْهِم، وَأَمَّا بُغْضُهُ لِلْخَاصَةِ فَلإذْلالِهِ لَهُم، وإقْصَائِهِ إيّاهُم"[٣].

لقد بيّن ابن فارس ما يتصّف به الصاحب بن عبّاد من حُبٍّ للعامة وكُرهٍ لأصحاب السلطان، وَما هو عليه من حسدٍ لأهل الفضل وإهانةٍ للأحرار، وقلّة دين.

---

(١) لم أجد له ترجم في كتب المصادر.

(٢)انظر المصدر السابق، ط١، ،ص٢١٧ .

(٣)التوحيدي، مثالب الوزيرين،ط٢، ص٢١٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٤: صورة الصاحب بن عباد في نظر أبي سليمان المنطقي[١]

عندما تحدث التوحيدي أمام أبي سليمان المنطقي عن الصاحب بن عبّاد، قال فيه أبو سليمان:

" هَذَا رَجُلٌ قَدْ سَعِدَ في الدُّنيا سَعَادَةً عَجيبةً مُذْ وُلِدَ إلى الغَايَة، وهِيَ شُقَّةُ عُمره وآخِرُ أَمْرِه، لَمْ يُشَك بِشَوكَة، ولَمْ يُنْكَب بنكبة، ولَمْ يَسْمَعْ مِنْ أَحَدٍ كَلِمَةً عَوْرَاء، ولَمْ يُدفَع في حَالَةٍ إلىأَيَدِه[٢]، وقَدْ بَلَغَ في حَيَاتِهِ مَا شَاء"[٣].

فهو في نظره انسان محظوظ، وكُتبت له السّعادة من بداية حياته إلى نهايةِ عمره، حيث لم يتعرّض لأيِّ مصيبَةٍ أو ضررٍ أو عداء، ولم يثر غضبه أحد، وكأنّ أَبَا سليمان مستعجبٌ ممّا يتنعمُ به الصاحب بن عبّاد من منصب وجاهٍ ومال ومكانٍ في المجتمع.

ويراه أبو الفضل الهروي[٤]عقوبة مِن عند الله، حيث قال:

"أَرَاهُ واللهِ عُقُوبَةً مِنَ اللهِ نَازِلَةً بِأَهْلِ الفَضْلِ والكَرَّم، ولَيْتَنَا عَلِمْنَا بِأَيِّ ذَنْبٍ عُوقِبْنَا بِهِ فَكُنَّا نَنْتَهي عَنهُ وَلا نُصِرُّ عَلَيه، فَمَا عِنْدي أَنّ اللهَ يَبْتَلِي عَبْداً مِنْ عِبَادِه بِخِدْمَتِهِ والتَعَلُّقِ بِهِ إلاّ أَنْ يَنْزَعَ عَنهُ العِصْمَة، ويُوكِلَ به النَقْمَة، ويُحرِّمَ عَلَيهِ الرَحْمَة"[٥].

فهو عقوبة من الله على شيء أخطَأوا فيه من ناحية العلم أو الفضل، ولو علموا أنهم أخطأوا ذلك الخطأ لأقلعوا عنه، وكان أهْوَنَ عليهم من ابن عباد الذي جاءهم مفسداً للعلم والفضل والكرم.

---

(١) أبو سليمان المنطقي ، هو محمد بن طاهر بن بهرام المنطقي السجستاني أكبر علماء بغداد في عصر أبي حيان في المنطق والحكمة والفلسفة كان مجلسه حافلاً بالعلماء والحكماء ، واسع الإطلاع في الفلسفة اليونانية ، مات على أغلب الظن في السنوات العشر الأخيرة من الرابع الهجري ، انظر الإمتاع والمؤانسة ، أبو حيان التوحيدي ، ج١ ، ص ٢٩.

(٢) أيد كفرح: غضب وتوّحش

(٣)انظر المصدر السابق، ص٢٠٩ .

(٤) لم أجد له ترجمة في كتب المصادر.

(٥)التوحيدي، مثالب الوزيرين،ط٢، ص٢١٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقال فيه أبو سعيد الأبهري[١]:

" لَقَدْ حَاوَلْتُ عَسيراً، أَتَسْتطيعُ أَنْ تَصِفَ إبْليسَ بجميعِ مَا هُوَ فيه؟ قُلتُ: لا واللهِ إنّمَا أَعُوذُ باللهِ مِنْهُ فَقَط. قَال: فَعُذْ باللهِ مِنْ هَذا، قَبْلَ أَنْ تَعُوذَ باللهِ مِنْ إبْلِيسَ، فَإِنَّ إبْلِيسَ وإنْ كَانَ شريراً فَهُوَ عَاقِل، وهَذا يَزيدُ عَلَيهِ لأنّهُ شِريرٌ وَهُو أَحْمَق"[٢].

فهو في نظره مثل الشيطان وأكثر، لأنه أحمق وشرّير، ويراه الأنْماطِي[٣] كذلك، حيث قال:

"صَبْرِي عَلى رَقَاعَتِهِ قَدْ نَغَّصَ عَلَّيَ جَميعَ مَا أَنَا عَلَيهِ مَعَهُ، عَلى أَنّ رَقَاعَتَهُ مُوّشَحَةٌ بِجُنون، وجُنُونُهُ صَادِرٌ عَنْ قُدْرَة، فَالْرَهْبَةُ مِنّهُ قَدْ كَدَّرَتْ عَينَ الرَغْبَةِ فِيه، والغَيظُ عَلَيهِ قَدْ مَنَعَ مَنَ الاسْتِمْتَاعِ بِهِ"[٤].

فهو رقيع ومجنون، والرهبة التي فيه جعلت الرغبة فيه والاقدام عليه قليل.

وقال عَنه ابن ابي زرعة [٥]:

"قَدْ واللهِ جُبْتُ الآفَاق، ولَقيتُ أَصْنَافَ النَّاسِ في الشَّرْقِ والغَّرْبِ فَمَا رَأَيْتُ رَجُلاً في جُنونِهِ أَعْقَلَ مِنْه، وَلا في عَقْلِهِ أَجَنّ مِنْهُ، وإنّهُ لأُعْجُوبة، عَدُوّهُ هَالِكٌ لِسُلْطَانِه، وَ وليُّهُ خَائِفٌ مِنْ كَثْرَةِ أَلْوانِه، لا عَهْدَ لَهُ ولا وَفَاء، وَلا صِدْقَ ولا لُطف، كُلُّهُ هزْل، وجَمِيعُهُ جَهْل"[٦].

---

(١) لم أجد له ترجمة في كتب المصادر.

(٢)انظر المصدر السابق ،ط٢ص٢١٩ .

(٣) لم أجد له ترجمة في كتب المصادر.

(٤)انظر المصدر السابق ص٢١٩ .

(٥) عيسى بن أبي زرعة بن اسحاق بن زرعة بن مرقس بن يوحنا أبو علي النصراني المنطقي أحد المتقدمين في علم المنطق والفلسفة وأحد النقلة المجودين وله تصانيف مذكورة منها كتاب (اختصار كتاب أرسطو طاليس في المعمور من الأرض) توفي سنة ٣٩٨ هـ ، انظر أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ص ١٦٣ ـ ١٦٤ .

(٦)التوحيدي، مثالب الوزيرين،ط٢، ص٢١٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهو يراه مجنوناً، يفرّ العدو منه لما عنده من سلطانٍ وجاه، والحاكم يخاف من تغير حاله، ويتصف بالخيانة والكذب، وكثرةِ الهزل والجهل.

١٥: صورة الصاحب بن عبّاد في نظر أبي إسحاق الصابئ[١]:

لقد كتب الصابئ رسالة استماحة للصاحب بن عبّاد، بيّن فيها مدى اعجابه بوزارته ومدحه لشخصيته، وقد قصد بهذه الرسالة مساعدة الصاحب بن عبّاد له ماليّاً جرّاء ما حلّ بـــه وبأهـــل العراق من محن، حيث بدأ رسالته بقوله:

"أنا أعْتَذِرُ إلى سَيدِي أَطَالَ اللهُ بَقَاءهُ مِنْ تَأَخُرِ كُتُبِي عَن حَضْرَتِهِ الجَلِيلةِ بُعذْرٍ إذا تأمَّلَـــه ،حَقَّ تَأَمُّله، وعَرَضَهُ على نَقْدِهِ وتَمييزِهِ، وعَرَفَ صِدْقَ مَنْطِقِه وخُلوصَ مَصْدَرِه، عَلِـــمَ أَنَنِّـــي مُواصِلٌ بِبَاطِنِ مُرادي، وإنْ صَرَمتُ بظاهِرِ فعلي، ومُلازِمٌ بخافي مَقصَدِي، وإنْ أَخلَلتُ مَسْلَكي، وهُوَ أَنّني جرَّبتُ مُكاتَبَتَهُ أيّدَهُ اللهُ مُواظباً عَلَيْها، مُكِّباً ومُراخِياً بَيْنَ أَوْقَاتِها، مُغِبّاً[٢] لأتْبَعَ أَحَـــبَ الأمرَيْنِ اليهِ وأوقَعَها لَدَيهِ، فَلَمَّا لاحَ لي أنَّ الإجْمَامَ[٣] أَنْفَق، والتَرفيهَ أوفق، ووَثقتُ بأَنّ رأيه عليّ في الحالين محروس النواحي والجوانب، محمّي الشرائع والمشارب، اقتصَرْتُ على أن أتْعَـــرّفَ أخبارَهُ وأُسَرَّ باستقامتها وانتظامها، وأتنسّمَ أحواله وأسكُنَ إلى اطّرادِها والتئامِها، وأبـــتَهِجُ بمـــا يَصيرُ أيّدَهُ اللهُ مِنْ ذُروَةِ مَرْتَبَةٍ يعتليها، وغاربِ[٤] مَرْقبَةٍ يمتطيها، وأنْ أدُلَّ المتحـــدثين عنهـــا والسامعين بها، على أنّه لم يَستَوفِ بَعْدُ حظَّهُ، ولم يستوعب قِسْطَهُ، فإنْ للدُنيا مواعيدٌ فيها لا بُدَ من أن ينجزها بمساعيه".

---

(١) أبو اسحاق الصابئ،ابراهيم بن هلال بن ابراهيم الحراني،(٣٨٤هـــ)،دعاه عز الدولة البويهي إلى الاسلام ليجعله وزيراً فـــأبى ، وجُعِل سنة ٣٤٩هـــ رئيساً على ديوان الرسائل،انظر وفيات الأعيان،ج١،ص٥٢—٥٤.

(٢) راحي: باعد ، واغب: جاء يوماً وترك يوماً.

(٣) الإجمام: الراحة.

(٤) غارب: الغارب من البعير وهو ما بين السنام والعنق وهو الذي يلقى عليه خطام البعير إذا أرسل ليَرعى حيث يشاء.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقد بدأ رسالته باعتذارٍ للصاحب بن عبّاد عن تأخرِه عن كتابته، ويوضح أنّ السبب في ذلك هو أنّه حاول الكتابة له مواصلاً مرةً ومنقطعاً مرةً أخرى، ويبدو أنّه كان خائفاً من عدم ملاءمة الوقت للكتابة إليه، وطلب ما يريده منه، ولكنه عندما تأكد من ارتياح الصاحب واستقرار حاله، باشر بالاطمئنان عليه، ومعرفة أخباره وأحواله، وقد سُرَّ بما يتمتع به الصاحب من منصب الوزارة، وما يملكه من مالٍ وجاه، وإرشاد العارفين بهما من متحدثٍ وسامع إلى ما هو عليه.

ويتابع الصابىء قائلاً:

"وكفى بِعِلْمِ الله أنّني أغتبطُ بِنَعمِهِ جلّ وعزّ عِنْدَهُ اغْتِبَاطِي بِهَا إذا كَانَتْ عِنْدي، وأعتَقِدُ أنَّها فَي فِنَائِهِ عَمَّرَهُ اللهُ مَستَقِرةَ الوطنِ قاطِنة[١]، وفي كثير من الأفنية قَلِقَةِ الرّكابِ ظاعِنَة، لِبُعْدِ فُضَلاءَ الزَمانِ عَنْ مُسَاوَاتِهِ في اسْتِحْقَاقِهَا، ومُدانَاتِهِ في اسْتِجَابِهَا، واسْتِبْدَادِهِ عَلَيْهِم بِحَيازَةِ مَا يَتَفَرَّقُ فَيهِم، واسْتِكْمَالِ ما يتقسّمُ بَيْنُهمْ مِنْ أَصْلٍ راسِخْ، وفَرْعٍ شامِخ، وحلْمٍ رَاجِح، وقدْرٍ طامِح، وأدبٍ جَزِل، ومنطِقٍ فصْل، وقَرِيحةٍ ثاقبة[٢]، ودِرايةٍ صَائِبةً، ونفس سامية، وكَفٍّ هَامِيَة[٣]، وأَوْصَافٍ لا تُعبّر عَنْها بلاغة الفصحاء، ولا يُحيطُ بِها اسْتِحْفَازُ الخُطَبَاءِ، ولا تُجاريهِ فيهَا أَقْدامُ النُظَراء، ولا تُزاحِمُهُ عَلَيْهَا مَناكِبُ الأَكفّاء، بَلْ هي مُسلَمَةٌ إليْهِ إذا نوزعَ مَدْعُوّها، ومقرٌّ لَهُ بِهَا إذا دُوفِعَ مُنْتَحِلُوها، فالحمدُ للهِ على أن أعطى قوسَ السّيادة منه باريها، وأضَافَها إلى كُفْئِها وكافيهَا، وفَسَخَ بِهِ شَرْطَ الدُّنيا الفاسد في إهداء حُظُوظِها إلى أوغَادِهَا، ونَقَضَ لَهُ حُكْمَهَا الجَائِر في العدولِ بِهَا عن نُجَباء أولادِهَا ".

---

(١) قاطنةً: قائمة .

(٢) ظاعنة: راحلة، مداناته: مقاربته، القريحة: الطبيعة أو الملكة، ثاقبة: صائبة

(٣) هامية: حائرة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهنا يؤكد الصابئ سروره وفرحته بهذه النعمة التي يمتلكها الصاحب كما لو أنّها كانت له، ثم يبدأ بمدح الصاحب بن عبّاد حيث يرى أنَّه كَفُؤ لما يتقلده من منصب الوزارة، وهو محافظٌ على ما فيها من أموالٍ وخزائن، لأنّه شخصٌ مختلف عن غيره من الوزراء الآخرين، إذ إنّهم يتصفون بتضييع ما فيها وعدم مبالاتِهم لمسؤولياتهم، وهو مستحقٌ للمسؤولية أكثر منهم، لأنَهُم لا يساوونه شيئاً، ولأنه أقدَرُ على السيطرةِ وضبط زمام الأمور، والحفاظ على العلم والأدب، واتصافه بالحلم وامتلاك المَلَكة القوّية، والنفس الطيبة الصافية، وغيرها من الصفات التي قد يقصّر في وصفها.

ثم يحمد الصابىء الله على أنه هيىء للصاحب هذا المنصب المناسب له، ويدعو للصاحب بطول البقاء والصّحة، والوصول إلى مناصب أعلى، والزيادة في المال والعطاء، وعدم الوقوع في خطأٍ أو غفلة، ويتمنى الصابىء أن تتحقق هذه الدعوات، وهو غير قاصد من هذا الكلام، الحسد أو الغيره، لكّنه يشرح له بعد ذلك سوء حاله وحال أهل الأدب من مصائب بسبب استبداد الحكام والولاة فيها والتشديد بأهل العراق والذي زاد حاله سوءاً هو عدم لجوئِه لأهل العون والإغاثة، لأنّه لم يعتد طلب الحاجة من سيدٍ صاحب مال أو عبدٍ ميسور الحال، ولجأ إلى بيع ما يملكه من ضِياعٍ أو أثاثٍ، لكنّه اضطرّ في النهايةِ إلى التوجه إلى ذوي المروءةِ والكرم لسؤالهم وقضاء حاجته، وجعل ابن عبّاد أوّل المقصودين إليهم، وصرّح بأنه كتب إليه هذه الرسالة وهو خائفٌ من أن يردّ أو يقابل بالصّد أو الضرب، إلاّ أنه واثق من أنّ الصاحب رحيمٌ ولا يمكن أن يؤذي أحداً إذا كان بحاجةٍ أو ضيق من أمره، وأشار الصابىء إلى أنّه كتبَ إلى مؤيد الدولة كتاباً بيّن فيه مدح الصاحب له، وذكره عند مؤيد الدولة، وأشار أيضاً إلى أنّ الصاحب له فضلٌ على الجميع، وفي نهاية رسالته يتمنى تلبية الصاحب بن عبّاد له في إعطائه من ماله، فَكلّما

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كانت مساعدته كبيرة فسوف يحصل على المدح والثناء وذكر فضله أعظم وذكره لكرمه أكبر، ويتضح هذا في قوله:

"وأمّا بَعدُ أيّدَ اللهُ سيدي الصَّاحِبَ، فإنّ نُوَبَ الدّهرِ تتردد مُنذْ سُنُونَ عليّ وعلى أَهْلِ صناعتنا المنحوسة بالعراقِ، مُنيخَةٌ بنوازلها، ملقيةً بكلاكلها، كالحةٌ[١] بوُجُوهِها، كاشِرةٌ عَنْ أنْيَابِها، لِتَعاقُبِ الأيدي الوالية عَلْينَا، وتَدَرّجِها في الإساءةَ إلينا، وتزايدها في الفظاظة بنا، وتجاوزها المنزلة إلى المنزلة في الاستئصال لأحوالِنا، وقد تَوفَر قِسْطي في تَأْثيرِها بِحِسَب ظَنّي بِعِرضي وصَوْني نَفْسي، وبذْلي دُونَها مَالي، وَوقَايتي إيّاهُما بما مَلَكَتْ يَدي، حيث لم أسْأل المعونة أحداً ولا سَمَحْتُ أن أستمِحَ مُسوّداً ولا سيداً راجعاً إلى شيءٍ مما يَرجِعُ إليه الناس مِنْ مَوروثٍ تَالِد، ومُكْتَسَبٍ طَارف، حَتى انتهت مغارمي[٢]إلى نَحْوِ خَمْسِ مَائَةِ ألفِ دِرهم، لم يَبْقَ لي بَعْدَها ضَيعةٌ ولا منزلة، ولا باطنٌ ولا ظَاهِر، فَلَمّا صَارَتْ صُروفُ الدّهر تَتَوَغَلُ بعد التّطَرُفِ، وتتجحّفُ بَعْدَ التحيُفْ[٣]، وَصادَفَ مَا تَجَدَد عليَّ مِنْهَا في الوَقْتِ أشلاءً منهوكة وأعظُماً مُبرِيَة، وحشاشَةً مُشْفِيةً، وبقيةً مودية، فَارقْتُ الإيثَارَ، وأطعْتُ دَواعِي الإضطرار، وجَعَلتُ أخْتَارُ الجِهاتَ، وأعتامُ[٤]الجنباتَ، لأنحو مِنْها مالا يُعاب سَائِلُهُ إذا سَأل ولا يُخيّبُ آمِلُهِ إذا أمّل، فَكَان سَيدي أَدامَ اللهُ عِزّهُ أوّلُها إذا عَدَدْتُ، وأولاهَا إذا اعتَمَدْتُ.

وكَتَبتُ كِتابي هَذا بِيدٍ يَكادُ وَجْهي يتظّلّمُ مِنْها إذْ تَخُطُهُ إشْفَاقاً على مَائَةٍ مِمّا يَهْرِيقَهُ لَوْلاَ الثّقَةِ بأنّهُ أيْدّه اللهَ يَحْقِنُ مِيَاهَ الوُجوهِ ويَحْمِيهَا، وَيَجمُّهَا[٥] ولا يُقذيها، وخاصّةً مَنْ كَانَتْ لَهُ في نَفْسِهِ المزّيةُ التي لي على غيري مِمَنْ شَحَظَتْ دارُهُ مِنْ أوليَائِهِ وأودّائِه بِمُشَاهَدتي شَخْصِه

(١) منيخة: أناخ: حلّت به نازلة، كلاكلها: جمع كلالة وهي الجماعة، كالحة: عابسة .

(٢) الغرامة: الخسارة

(٣) التحّيف: التنقُّص

(٤) أعتَمَ: أبطأ وتأخّر

(٥) يهريقَهُ: يَصّبه، يجّمها: أجمّ الماء: تركه يجتمع.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشريف، واعْتلاقي حَبلِهِ الحصيف[١]، وكَوني مَعَهُ تحتَ ظِلّ الدَولَةِ والجُملةِ وعِصمَتِها وفي ذمامِ المُمالحةِ والمراضَعَةِ وحُرْمَتِهِمَا والأسبْابِ التي هُو لَهَا بكَرَم عَهْدِهِ حَافظ، وبعين رِعايتِهِ مُلاحِظ، وأنْفَذْتُ دُرْجَهُ كِتاباً إلى مَوْلانَا الأمير مؤيدِ الدولةِ سلَكتُ فيه سَبيلَ العَبدِ اللائذ بِمَولاه، والخـــادِم المُحْتَاجِ إلى نِداه، وأشَرْتُ إلى ما كان سَيدي أيدّهُ الله قَدّمَهُ قبلَ هَذا الوقت مِنْ ذِكرِي، وما تفَضّل ومَهّدَهُ مِنْ أمْري، ورَجَوْتُ استثمارَ تِلْكَ المُقَدمةِ على يَدِهِ وبَرَكَتِه، واسْتِنْجَاحِهما بِيمـــين طـــائِرِهِ ونقيبته، وكُلُّ ما يُتَأتّى من الجميعِ مَحسوبٌ من جَمَالِهِ، ومعدودٌ في أفْضَالِه، وزَائِدٌ فـــي أياديـــه البيض الزُهْر، وعوارِفِهِ المُحْجِلَةِ الغُر"[٢].

لقد استطاع الصابئ من خلال هذه الرسالة كسب الصاحب بن عباد لصّفه بمدحه وذِكـــر أفضاله ومكانته وقدرته وميّزاته، واستطاع كسب ما يريد من خلال ذلك أيضاً لكّنه كان واضحاً وصريحاً في التعبير عن رأيه في الصاحب، فهو في نظره رجلٌ كريم وشخصٌ قادر على تحمل المسؤولية، والقيام بالمهام الصعبة، وصاحب أدبٍ ومعرفةٍ، وإحسانٍ ومساعدة وعون للغير من ذوي الحاجة، لذلك لجأ إلى طلب العون منه بإفراج دائِقتِهِ المالية، وأرى أنّه أصاب في اختياره لشخصٍ له مثل الصاحب بن عبّاد، والكلام الذي مدحه به في هذه الرسالة لا يدلّ على غيرةٍ أو حسد، بل على حُبٍ وإعجاب، وجاء سؤاله على استحياءٍ منه، والرّضا بما يقترحـــه الـــصاحب ويأمرُ بهِ في هذا الشأن.

---

(١) حصيف: حَصَفَ فُلان أي إستحكم عقله وجار برأيه.

(٢) المختار من رسائل أبي إسحاق إبراهيم بن هلال بن زهرون الصابئ، نَقّحهُ وعَلّقَ حَواشيه الأمير شكيب أرسلان، دار النهـــضة الحديثة، بيروت – لبنان ، ص (٤٠٤-٤١١).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٦: صورة الصاحب بن عبّاد في نظر أبي بكر الخوارزمي

لقد ذكرنا نظرة الخوارزمي السلبية تجاه الصاحب بن عبّاد كما صوّرها لنا أبو حيان التوحيدي، لكن أبا بكر الخوارزمي كتب لابن عبّاد رسالةً بيّن فيها مدى محبته ومودته له، وهي تعكس صورةً ايجابيةً عن الصاحب بن عبّاد، وجاء في هذه الرسالة قوله:

"كِتَابي إلى الوَزير وأَنَا على بُعْدِ الدّارِ سَالِمٌ في جُمْلَتِهِ مُسْتَظْهِرٌ على الأَيَامِ بدولَتِهِ والحَمْدُ لله تعالى على سلامتي في سلامَتِهِ وصلّى اللهُ على سَيّدِنَا محمد وعَتْرَتِهِ إذا رأيتُ كِتابَ الوزير وقد وَرَدَ على غيري غرتُ غِيرةَ الفَحْلِ[١] على الشّوْلِ[٢] بَلْ غيرَةَ المَرأةِ عَلى البَعْلِ ولَوَدَدْتُ أنْ لَم يُكَاتِبْ بِهِ غَيري أو مَنْ يَشْكُرَهُ مِثْلَ شُكرِي فإنّي مع استِقْصَاري لِنَفْسِي في ذلك قد أتعبْتُ الوَرّاقين بَلْ أتعَبْتُ الكِرامَ الكاتبينَ وأبقيْتُ للخواطِر والأَلسن شَغلاً طويلاً وطَرَحْتُ عَلَيها عِبْئاً ثقيلاً ولقَدْ كَانت أيّامي بِحَضْرَةِ الوزير قصاراً وكَانَ لَيْلي بِهَا نهاراً وسَاعَاتي فيها أسْحاراً كَمَا أنَّ أيّامَ فُرَاقِهِ لَيالٍ طِوال وليلَةُ فُراقِهِ تُعَدُّ بليالٍ وإنّي بعدَ صَبري على فراقِهِ لجَلَدٌ عَلى وَقْعِ سِهَام الهَجْرِ واسِعُ المَجال في مَيْدانِ الصّبرِ ولَقَدْ أصابَتْ عَينُ الزمان وفَائي وَسَلَبتنْي حُسْنتي وهيَ جَزَعِي بِفُراقِ أصدقائي فأجرَني اللهُ تَعالى على هذه المصيبةِ ولا حَرَمَني عَلَيْهَا جَميلَ الأجْرِ والمَثُوبةِ لا يَبيعُني الوزيرُ وَقَدْ اشتريتُهُ بِأهلِ الدّنيا ولا يُبعِدُني عَنْهُ وَقَدْ قرّبني الحّبُ مِنهُ ولا يَبْخَلُ عليّ بُكُتبِهِ فَعهْدِي بِهِ لا يَبْخَلُ عليّ بِفَضّتِهِ ولا بِذهَبِهِ ولِيأنَفَ مِنْ أنْ يُكْتَبَ اسْمُهُ في جَريدَةِ البُخَلاءِ بعد ما صُدّرتْ بِهِ جرائِدُ الأجْوادِ والسُمحاءِ إنْ شاء الله تعالى"[٣].

فَهُو بَعدَ أنْ حَمَدَ الله وصلى على رسوله الكريم، أبدى انزعاجه من تقصيره في الكتابة إلى الصاحب بن عباد وأبدى غيرتَهُ من أولئك الكتّاب الذين يتبادلون مع الصاحب الكتب

---

(١) الفحل: الجمل القوي

(٢) الشول: لبن الناقة.

(٣) الخوارزمي، رسائل الخوارزمي، المطبعة العثمانية – ١٣١٢هـ – ص٩٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والرسائل، ويبدو أنّها رسائل إخوانية يتبادلون فيها الشُكْر والمـودة والتهـاني وغيرهـا مـن المشاعر، وشبّه هذه الغيرة بغيرة المرأة على زوجها، لكنّه مع تقصيره في ذلك بَذَلَ جهداً مُضنِياً في إشغال فكره وكُتّابه، والورّاقين للكتابة إلى الصاحب بن عبّاد لكي يحظى بشكر الصاحب له والكتابةِ إليه، ثم يبين الفرق بين الأيام التي قضاها مع الصاحب بن عباد، والأيام التي فارقه فيها التي يقضيها بعيداً عنه، حيث كانت تلك قصيرةً وسريعة الجريان، والساعات تمّر بعد الساعات كالبرق، فهي شديدة الطول يقضيها الخورازمي وحيداً بعيداً عن أعزّ أصدقائه، لكن ماذا يفعـل، ليس بوسعه أن يفعل شيئاً سوى الصبرِ على هذا الفراق، فهو جَلِدٌ وكثير الصبر على ذلك، وقد سبب له هذا الفراق سلب فرحته وحزنه على فراق الأصدقاء والأحبة، وهو يتمنى مـن الله ألا يحرمه الأجر والثواب على هذا الصبر، ويتمنى أيضاً من الصاحب بن عباد أن لا ينساه أو يبعد عنه، لأنه تقرّب إليه بالمحبة، وفضّله على جميع النّاس، وأن يكرمه بمواصلة الكتابة إليه مثلما أكرمه بالفضةِ والذهب، لكي لا يكون واحداً من البخلاء الذين كُتبت أسماؤهم في كتب البخلاء، فهو يُعتبر في عداد الأجواد والكرماء، والصاحب في نظر الخوارزمي شخص مقربٌ ومحبـبٌ إليه، إذ إنّ البعد عنه محزن، وصحبته لا مثيل لها.

١٧: صورة الصاحب بن عباد في نظر أبي السلم[١] الشاعر.

وعبّر أبو السلم الشاعر عن رأيه في الصاحب بن عبّاد بقوله:

"لَيْسَ في اسْتِحْسَانِهِ لإِحْسَانِهِ فَضْلٌ لاسْتِحسَانِهِ لإِحْسَانِ غَيْرِه، قَدْ غَرِقَ في بَحْـرِ نَفْـسِه، فَلَيْسَ يَرْفَعُ طَرْفَهُ إلى أَحَدٍ مِنْ بني جِنسِه، وَهَذَا الذي يدُلُ عَلى غَايَةِ نَقْصِه"[٢].

(١) ورد ذكر اسمه فقط في معجم الأدباء ج٢، ص٦٨٦ .

(٢)التوحيدي، مثالب الوزيرين،ط٢،ص١٩٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أي أنه لا يحسن إلى غيره، ولا يمدُ يده بالخير لأحد، وَهُو محب لنفسه ومغرورٌ بهـــا ولا يبالي لأحدٍ من أبناء مجتمعه، وهذا ما أدّى إلى وصفه بالنقص.

١٨: صورة الصاحب بن عباد في نظر أبي منصور الثعالبي[١]:

لقد أفرد الثعالبي في كتابه (يَتِيمَة الدهر في محاسن أهل العصر) فصلاً كَاملاً تحدث فيـــه عن الصاحب بن عبّاد وعن لمعٍ من أخباره ونوادره، ولمَعٍ من ألفاظه وتوقيعاته، وأمثلةً علـــى فصولٍ من رسائله، وغُرَرٍ من قصائِدِ شِعرِه، وقد تحدثت عن شيء من هذا في تمهيد الرســـالة، ولا داعي لذكره هنا، وقد بدأ الثعالبي الحديث عن ابن عبّاد بكلام جميل، ورأيته رأياً لـــه فـــي الصاحب، وتوضيحاً لمكانته عِنده، حيث قال فيه:

"لَيْسَتْ تَحْضُرُني عِبَارَةٌ أَرْضَاهَا لِلإِفْصَاحِ عَنْ مَحَلِّهِ في العِلْمِ والأَدَبِ وجَلاَلَةِ شَأْنِهِ في الجُودِ والكَرَم. وتَفَرُّدِهِ بِغَايَاتِ المَحَاسِنِ، وَجَمْعِهِ أَشْتَاتَ المفَاخِرِ، لأنّ هِمّةَ قولي تَـــنْخَفِضُ عَـــنْ بُلُوغِ أَدْنَى فَضَائِلِهِ ومَعاليهِ، وَجُهْدِ وصْفِي يَقْصُرُ عَنْ أَيْسَرِ فَواضِلِهِ ومَسَاعيه[٢].

إنّ الثعالبي محتارٌ بأيّ حديث يصف به الصاحب بن عبّاد، ويعتبر نفسه مقصِراً في ذكر ما يليق به من وصف، فهو يمدحه بكّلُ شيء حَسَنٍ ، يقول:

" هُو صَدْرُ المَشْرِقِ، وتَاريخُ المَجْدِ، وغُرّةُ الزمَانِ، ويَنْبُوعُ العَدْلِ والإحْـــسَانِ، ومَـــنْ لاَ حرَجَ في قدْحِهِ بِكلِّ مَا يُمْدَحُ بِهِ مَخْلُوق، ولَوْلاهُ مَا قَامَتْ لِلفَضْلِ في دَهْرِنَا سُوق، وَكَانَت أَيّامُـــهُ لِلْعَلَوِيّةِ والعُلَماءِ، والأُدَباءِ والشُعَراء، وحَضْرَتُهُ محّطُ رحَالِهم، وَمَوْسِمُ فَضَائِلِهِم. وَمَتْرَعُ آمَالِهم، وَأَمْوالُهُ مَصْرُوفَةٌ إِلَيْهِم، وصَنائِعُهُ مَقْصُورَةٌ عَلَيْهِم، وهِمّتُهُ في مَجدٍ يُشَيِّدُهُ، وإنْعَامٍ يُجَدِدُهُ. وَفَاضِلٌ

---

(١) الثعالبي أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل النيسابوري ،الشاعر العلامة شيخ الأدب،ت٤٢٩هـــ ،له من الكتب (فقـــه اللغة)و(سحر البلاغة)و(يتيمة الدهر في محاســـن أهـــل العـــصر)،انظـــر وفيـــات الأعيـــان ،ج٣،ص١٧٨،ســـير أعـــلام النبلاء،ج١٣،ص٢٨٢.

(٢)الثعالبي يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ج٣، ص١٧٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يَصْطَنِعُهُ، وكَلامٌ حسَنٌ يَصْنَعُهُ أَو يَسْمَعُه، ولَمّا كَانَ نادِرَةَ عُطَارِدَ في البَلاغَة، ووَاسِطَةَ عَقْدِ الدَّهْرِ في السَّمَاحَة، جلَبَ إليهِ مِنَ الآفاقِ وأَقَاصِي البلاَد كُلَّ خِطَابٍ جَزْلٍ، وقَوْلٍ فَصْلٍ. وَصَارَتْ حَضْرَتُهُ مَشْرَعاً لِرَوائِعِ الكَلام، وبَدَائِعِ الأَفْهَام. وثِمَارِ الخَواطِر، ومَجْلِسُهُ مَجْمَعاً لِصوبِ العُقُول، وَذَوْبِ العُلومِ وَدُرَرِ القَرائِح. فَبَلَغَ مِنَ البَلاغَةِ مَا يُعدُّ في السِحْرِ، وَيَكَادُ يَدْخُلُ في حَدِّ الإعْجَاز، وَسَارَ كَلامُهُ مَسيرَ الشَمْسَ، وَنَظَمَ نَاحِيَتَي الشَرقِ والغَرب"(١).

فالصاحب في نظره ذو مكانة عاليةٍ عظيمة بين الأدباء والعلماء والشعراء، وأهل الفضل والكرم، ومحط رحال الشعراء والأدباء يمنحهم بما لديه من مالٍ وتشجيع على الأدب، وهو مَرجعهم في الأدب والفهم، ويقصده الخطباء البلغاء من أقاصي البلاد، ويتجه صوبه و صوب مجالسه أصحاب العقول وجهابذة الفكر وهو أحد رُوّاد البلاغة التي كادتْ أن تبلغ حد الإعجاز، وقال أيضاً:

"واحْتَفَّ بِهِ مِنْ نُجومِ الأَرْض، وأفرْادِ العَصْر، وأَبْنَاءِ الفَضْل، وَفُرْسَانِ الشِعْر، مَنْ يُرْبى عَدَدُهُم عَلى شُعْرَاءِ الرَشيدِ، ولا يَقْصُرُونَ عَنْهمُ في الأَخْذِ بِرِقَابِ القَوافي وملِكِ رِق المَعَاني، فَإنّهُ لَمْ يَجْتَمِع بِبَابِ أَحَدٍ مِنَ الخُلَفَاءِ والمُلُوكِ مِثلَ ما اجْتَمَعَ بِبَابِ الرَشيْدِ مِنْ فُحُولَةِ الشُّعرَاءِ المَذكُورِينَ: كَأَبي نَوَّاس، وأبي العَتَاهِية، والعتّابي، والنّمري ومُسْلِم بن الوَلِيد، وأَبي الشِيص، ومَروان بنِ أبي حَفْصَ، ومُحمَد بِن مَنَاذِر، وجَمِعَت حَضْرَةُ الصَاحِبِ بِأَصْبهَان، والرَّيِّ وَجَرَجَان، مِثلُ: أبي الحُسِين السَلامِي، وأبي بَكْر الخُوارِزْمي، وأبي طَالِب المَأمُوني، وأَبي الحَسَنَ البَديهي، وأبي سَعْد الرُسْتمي، وأبي القَاسِم الزَعْفَراني، وأبي العبّاس الضبّي، وأبي الحَسَنْ بن عبد العزيز الجَرَجَاني، وأبي القَاسِم بن أبي العَلاء، وأبي محمد الخازن وأبي هَاشِم العلوي، وأبي الحَسَن الجَوهَري ، وبني المُنجِّم، وابنُ بَابَك، وابنُ القَاشَاني، وأبي الفَضْلِ الهَمَذاني،

(١)الثعالبي يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ج٣،ص١٧٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإسْمَاعِيلُ الشَاشِي، وأبي العَلاءَ الأَسْدي، وأبي الحَسَن الغُوَيري، وأبي دُلَف الخَزْرَجِي، وَأَبـــي حَفْصِ الشَهْرَزُوري، وأبي مُحمد الإسْمَاعيلي، وأبي الفَياضِ الطَبَري، وَغيرِهم ممن لَم يبلغنـــي ذِكْرُهُم أو ذهَبَ عَنِي اسْمُه"(١).

كَمَا يجتمع بباب قصره كبار فحولة الشعراء، يمدحونه بأجود القصائد وأفصحها تعبيـــراً، وكَانَ هؤلاء الشعراء يزيد عددهم على عدد شعراء الرشيد، وهذا دلالة على مكانته بين الشعراء والأدباء.

نستخلص من قول الثعالبي أنّ الصاحب في نظره إنسانٌ جامع لأحسنِ الصفات، إذ إنـــهُ لم يعبه بكلمة واحدة ، بل مَدَحَهُ علماً وخُلُقاً، وهو بذلك يعكس صورة إيجابية عن الصاحب بـــن عبّاد ومخالِفٌ لآراءِ الكُتّاب الذين وصفوه بالحماقة والجنون والرقاعة والبخل والخداع.

١٩: صورة الصاحب بن عبّاد في نظر أبي راغب العُتبي. (٢)

يرى أبو راغب العُتبي أنّ الصاحب بن عبّاد شَخصٌ قليل السمعة والشُهرة، ويبدو أنّه لـــم يسمع به كثيراً، ولهذا قرر أن يَنْظر في شأنه، ويعرف من هو وما أخلاقه، وما الذي يُميـــزه أو يُشوه شخصيته في رسالة وجهها إليه ضمّنَها التوحيدي في كتاب مثالب الوزيرين، حيث قال:

" إنّ بُعْدَ صِيتِكَ بَعَثَنِي عَلى تَصفُّحِ شَأنِك، وتَصفّحِي لِذَلِكَ وقَفَني على أحْوالٍ كَرِهْتُها لَك، وأنِفْتُ مِنْها لِمَنْ بَلَغَ دَرَجَتَك، والعَيْبُ مِنْكَ مُضَاعَف، واللّسانُ فيكَ جوّال، والحقْدُ عَلَيكَ سَـــريع، ولَوْلا الحالِ التي أنْتَ عَلَيْها مِنَ القُدْرَةِ والتّمَكُنِ لَكَانَ العُذْرُ يُنَاضِلُ عَنْك، والتّوبيخُ يتبدّدُ دُونَـــكَ. وَمَا أَحْسَنَ ما قَالَ شَاعِرُ عَصْرِكَ في نَظْمِهِ:

ولَمْ أَرَ في عُيوبِ النَّاسِ شَيْئاً كَنَقْص القَادِرِينَ على التَمَامِ(٣)

---

(١)الثعالبي ، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ج٣، ص١٧٧– ١٧٨ .

(٢) لم أجد له ترجمة في كتب المصادر .

(٣) البيت للمتنبي من قصيدة مطلعها: " ملومكما يجل عن الملام ".

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قَدْ خَوَّلَكَ اللهُ مَا يَفُوتُ ذَرْعَ هِمَّتِكَ، وآتَاكَ مَا يَتَجاوزُ اشْتِطَاطَك، في حُكْمِكَ مِنَ المَالِ والثَروةِ والرِئَاسَةِ والعِلْمِ والقُوةِ والمَكَانَة؛ ولم يَخُصَّكَ بِهَذا كُلِّهِ بِسَابِقةٍ لَكَ عِنْدَهُ، وَلاَ حَقَّ لَكَ عَلَيهِ، بَلْ كُلُّهُ تَفَضُّلٌ في الأَوَل، واخْتِيَارٌ في الثّاني، وَثَوابٌ أو عِقَابٌ في الثَالِث، ولَقَدْ شَدَدْتُ وَسْطِي في تَعَرُفِ أَخْبَارك، واسْتَعَنْتُ كُلَّ عينٍ وَأَذُنٍ في مَعْرِفَةِ لَيلِكَ ونَهارِك".

فعندما عَرفَ شَخْصِيته جيداً وجد فيها صفات سيئة كرهها له، وفيمن كان له مكانة في المجتمع مثل مكانته، لأنّ الناس تذكر بألسنتها ما فيه من العيوب والأخطاء، على الرغم ممّا يتميز به من القدرات والمكانة الجيدة، إلاّ أنّ الإنسان مهما كانَ على درجةٍ من التميز، لكنه لا يستطيع أن يكون كاملاً في كل شيء، فقد وجد العتبي في الصاحب ما منحه الله من ثروة وعلم ورئاسةٍ بفضلٍ منه، واختيار له في الحفاظ عليها، ومحاسبته عليها بالثواب إذا أحسن وبالعقاب إذا أخطأ، وقد استعانَ في معرفة أخباره بأشخاصٍ رأوا بأعينهم ما يتصرف به ابن عبّاد، وسمعوا بآذانهم ما يقوله بلسانه من كلام، وقد حدّثوه بما يسيء لسمعة الصاحب بن عبّاد، يقولُ:

" فَلَمْ أَجِدْ في تَفْصيل ذَلِكَ إلاَّ ما يَعْصِبُ بِرَأْسِكَ العَار، ويَحْشُدُ عَلَيْكَ أَسْبَابَ الدَّمَار، ويَكُونُ عَاقِبَتُكَ مِنْهُ دُخُولُ النّار، لأنّكَ تُظهِرُ القَوْلَ بالوعيد[١]، ثُمَّ تَرْكَبُ كُلَّ كَبِيرٍ مِنْ أَخْذِ المَالِ المُحرَّم، واسْتِبَاحَةِ الحريمِ المَصُون، وقَتْلِ النَفْسِ المُؤْمِنة، ومُسَاهَمَةِ الفَسَقَةِ الفَجَرة، وخِدْمَةِ الظَّلَمَةِ الغَشَمَة، وَتَقْدِيمِ أَهْلِ المُجُونِ والعَيّارة[٢]، وَفي عُشرِ هَذَا سُقوطُ المُرُوءَة، والانْسِلاخِ مِنَ الدّيانَة، فَيا أيُّها المُدِلُّ بالْتَوحِيدِ والعَدْلِ! أَهَذا كُلُّهُ في مَذْهَبِكَ أَوْ في مَذَاهِبِ أَسْلافِكَ مِثْلَ واصِل ابنْ

(١) يقولُ المعتزلة بالوعد والوعيد، وهذا القول أحد الأركان التي يقوم عليها الاعتزال، ومعناه أنّ الله تعالى صادقٌ في وعده ووعيده وأنّهُ لا يَغْفِرُ الذنوب إلاّ بعد التوبة. ومن أسماء المعتزلة (الوعيدية).

(٢) العيّار: الكثير التّجوال والطّواف الذي يتردّدُ بلا عملٍ يخلي نفسه وهواها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عَطَاء[١]، وعمرو بن عبيد[٢]، وأبي موسى المُرْدار[٣]، والجَعْفَرين[٤]؟ أَمَا كَانُوا مَعْ بِدْعَتِهِمْ التي شَانُوا بِهَا وَجْهَ الإِسْلامِ، وَكَادُوا بِهَا أَهْلَهُ، مُجْتَهدينَ في غيرِ مَا أَنْتَ بِهِ رَاضٍ لِنَفْسِكَ ومُصرٍّ عَلَيها، باعْتِذَارِكَ أَنَّ اللهَ يُخَادَع، وَلا مَنْجاة لِلْعِبد إلاّ بِالطَاعةِ الخَالِصَة، والتّوبةِ النَّصُوح، هَذَا إذَا كَانَ الإيمانُ سَاكِنَ صَدْرِه، والخَوفُ مِنَ اللهِ مُتَرَدِّداً في أَقْطَارِ فِكْرِه، واليَقينُ بِالْمَعَادِ عَمُودَ دِينِه، والعِلْمُ بِالجَزَاءِ رَاسِخاً في فؤادِه. فَأَمّا إذَا كَانَ عَارياً مِنْ هَذا كُلِّه فَهُو الكَافِرُ بِعَينِهِ الذي سَمِعْتَ بِه، وَعاقِبَةُ الكَافرينَ (جَهَنَّم يَصْلَوْنَهَا وبِئْسَ المَصيرِ) "(المجادلة:٧\٥٨).

فَقَدْ عَرِفَ فيه الادْعَاء بِإظْهار التدّين وارتكاب الكبائر التي حَرَّم الله فعلها، ورأى أَنَّ رُؤساء المعتزلة أفضل منه في اجتهادهم وبعدهم عمّا يفعله، وادعائه بأنّ الله يغفر الذنوب، ويقبل التوبة، ويبيّن له أنّ ذلك لا يكون إلاّ إذا كان المرءُ صَادِقاً في إيمانهِ بالله والخوف منه، ومخلصاً في طاعته له، أمّا إذا كان غير ذلك فلا يكون إلاّ كافراً وجزاؤه النار.

ثُمَّ يبين للصاحب بن عباد أنّه لم يقصد من مخاطبته بهذا الكلام، وتوضيح ما عنده من أخلاقٍ وتصرفات، العتاب واللؤم عليه، أو الطمع في ماله، لكنه خاف عليه من اعتياده على ارتكاب المحرمات المخالفة للدين الإسلامي، بل قَصَدَ من كلامه نصيحته وتحذيره ممّا يقوم به من أفعال تضره وتَضُرّ غيره، ويصرّح بأنّ الذي قوّاه لذلك ما رآه من الصاحب من كفرٍ وادعاء، فهوَ يخاطبه بقوله:

---

(١) أبو حذيفة واصل بن عطاء رأس المعتزلة وإمام المتكلمين في زمنه، (ت١٨١هـ)،انظر وفيات الأعيان، ج٢،ص١٧٠ .

(٢) أبو عثمان عمرو بن عبيد من شيوخ المعتزلة الأولين، (ت٤١٤هـ)،انظر تاريخ بغداد ،ج٢، ص١٦٦-١٨٨ .

(٣) أبو موسى عيسى بن صبيح الملقّب بالمرداز البصري،ت٢٢٦،من كبار المعتزلة ،وأرباب التصانيف الغزيرة،أخذ عن بشر بن المعتمر ، انظر سير أعلام النبلاء،ج٩،ص٢١٨.

(٤) الجعفران: جعفر بن مبشر الثقفي، (ت٢٣٤هـ)،و أبو الفضل جعفر بن حرب الهمذاني المعتزلي العابد ، (ت٢٣٦هـ)،له من المصنفات كتاب (متشابه القرآن ،وكتاب الاستقصاء)،انظر سير أعلام النبلاء ،ج٩،ص٢١٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" واللهِ مَا حرَّكَني لِنَبْذِ هَذَا الكَلامِ إلَيكَ مَعْتَبَةٌ عليْك، لأنّي لَمْ أنْتَجِعَك، ولَمْ أَطْمَعْ في مَالِك، ولاعَرِفْت وجهي، ولا سَمِعْتَ بِاسْمِي، لَكِنْ أَبَتْ نَفْسِي أَنْ تَقِرَّ على الجَهْلِ بحالك، وبِدُخْلَة[١]مَا يَكُونُ عَلَيهِ أمْثَالُكَ، فَآثَرْتُ نَصيحَتَكَ، فإنّ النّبي صلى الله عليه وسلم قال: الدّينُ النّصيحَة، وَمَا أَخْوَفَني أَنْ تَكُونَ جُرْأَتُكَ عَلى هَتْكِ حُرُماتِ الدِّينِ، ومُعَارَضَةِ الصَالِحينَ مَعَ العُكُوفِ عَلى الخُسْرانِ المُبين، إنَّمَا قُوِيَتْ وَرَبَتْ لأنّك شَارِدٌ على رَبِّك، كَافِرٌ مِنْ دينِ نبيِّكَ، مُدَّعٍ لَهُ بِلِسَانِك، شَاكٌ فِيهِ بِفؤادِك، مُتعَجبٌ مِمَنْ لَهُ إخْلاص، أو لّهُ بالدَينُونَةِ اخْتِصَاص".

ثُمَّ يُخاطِبُه بِقولِه:

"حَدِّثْني، أيُّ أَمْرٍ أَنْتَ فِيهِ عَلى رُشْدٍ، وآخِذٌ مِنْهُ بِاحْتِيَاط؟ مَا أَنْتَ عَلَيهِ مَعَ الغِلْمَانِ المُرْدِ الجُرد، أَمْ مَا أَنْتَ مَشْهورٌ مِنَ المَجَانةِ والسُّخْف؟ ثُمَّ تَدَّعي الإطْعَامَ لِلْخَاصِّ والعَام، وَقَدْ شَاهَدْنَا فَوَجَدْنَا عَلى بَابِكَ قَوْماً يَضْرِبُونَ بِالمَقَارِعِ وُجُوه النّاس، وَيحُطُّونَ عَلى رُؤُوسِهِم العَذابَ طَرْداً لَهُمْ وإبْعَادا. أَفَمَا هذا بِأَمْرِكَ وَعَيْنِكَ وَأَذُنِكَ؟ فَلِمَ تَتَكَلَّفْ مَا لاَ تُقِرُّ بِهِ، ولِمَ تَدَّعِي مَا لاَ تُسْلِمُ فيه؟ لَقَدْ وَقَفْنَا عِيَاناً مِنْ اسْتِخْفَافِكَ بِالأَحْرار، وَوَضْعِكَ مِنْ ذَوي الأَقْدار، وَكُفْرِكَ بِوَلِيِّ نِعْمَتِكَ، وتَقَرّبكَ مِنْ كُلِّ شُبهَةٍ في أَمْرِكَ مَا لَو تَنَفَّسْنَا بِهِ بينَ النّاسِ، أَوْ رَسَمْنَاهُ بالْقَلَمِ في القُرطَاسِ، لَكَانَ ذَاكَ زَائداً عَلى تَمَرُّدِ فِرْعَون، وَكُفْرِ أبي جَهْل، وَجُرْأَةِ دِيكِ الجِنِّ[٢]. لَقَدْ قِيستْ مُرُوَّتُكَ إلى مُرُوَّاتِ قَوْمٍ قُرِنُوا بِالزّنْدَقَة، فَوُجِدَتْ مُرّواتُهم فَوْقَ دِيانتِكَ، وَلَقَدْ رَأَيْنَا قَوماً لَمْ يَتَحلّوا بِالدَّعْوى تَحلِّيكَ اسْتَنْفَذُوا قُوّتَهُمْ في طَلَبَ مَرْضَاةِ مُؤْمِليهِمْ ومُنْتَجِعي قَطْرِهِم، وَبَلَغُوا مِنْ ذَلِكَ المَبَالِغَ وَأَنْتَ مع تَمكُّنِكَ وَيَسَارِكَ لَمْ تَسْمَح مِنْ الشَاةِ بِظِلْفِهَا، ثُمَّ مَلَأْتَ الدُنْيا بَقْبَقَة[٣]بالامْتِنَانِ عَلى الصّغيرِ والكبيرِ، كَأَنّكَ خَالِقُ الخَلْقَ، وَبَاسِطُ الرّزق.

---

(١) الدخلة (مثلثه): النية والمذهب وجميع الأمر والخلد والبطانة.

(٢) عبد السلام بن رغبات، (ت٢٣٥هـ)، الشاعر الحمصي المشهور انظروفيات الأعيان،ج١،ص٢٩٣.

(٣) البقبقة: كثرة الكلام، والبقباق: الكثير الكلام .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهُنا يعرّفه بِأنّهُ ليس على رشد وغير محتاط لأمر، فهو إضافةً إلى ادعاءاتــهِ يتّــصِفُ بالمُجُون، والسُخف، ويتظاهر بإطعام الناس، ويُظهر عكس ذلك بجعل حــرّاس داره يُوقِعُــونَ الضَرْبَ والأذى بالأشخاص الذينَ يقصدونه، ويقصد العتبي أنّ الصاحب يقولُ بلسانهِ شيئاً ثــم يفعل عكسه شيئاً مخالفاً، ويخاطبه بأنّ الذي يفعله يزيد على ما كانَ عليه فرعون من التمــرد، وأبِو جَهْلَ من الكُفر، وديك الجن الحمصي من الجرأة، وأنّ مروءة غيره من الــذينَ يتــصفون بالزندقةِ أفضَلُ من الصاحب الذي يدّعي الدّيانة، وأنّ غيره استطاع أن يكسب مبلغه من الــشكر والمدحِ مِنْ قصّاده وطالبيه من غير دعوة وتفاخر، أمّا هو في تمكّنِه وقدرته فواثقٌ بنفسه كثيراً وتفاخر أمام غيره بالامتنانِ والبُخل على الناس جميعاً، ويُوَعيه لما هو عليه بأن يأخذ حذره مما يفعله من أخطاء لأنّه لن يَسْلَمَ، وسيتعَرّضُ للهجومِ مِنْ أعدائه، والحقد والدعاء عليه.

وفي نهاية خطابه يوّجه للصاحب تحذيراً من الدنيا، وتذكيراً بالآخرة، وتخويفاً من عقاب الله، ويطلُبُ منه الأخذَ بنصيحته وفهمها جيداً حيث يقول:

"وأخْتِمُ قُولي هَذَا بِمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ لأَصْحَابِهِ، قَال: أُحذِّرُكُمْ الدُنْيا، وأخَوِّفُكُمْ يَوْمَ التَّنَاد، يَومَ لا يُعْرَفُ لخيرٍ أَمَد، وَلاَ يَنْقَطِعُ لِشَرٍّ أَمَد، ولا يَعْتَصِمُ مِنَ اللهِ أحد.

وأَرْجُو أَنْ تَسْمَعَ مَا صَدَقْتُ القَولَ فِيه باتّضاح، وتعْرِفَ ما تُؤتيهِ بِارْتياح، والسَلام"(١).

إنّ العُتبي يُوجّهُ نصيحةً للصاحب بن عبّاد كونِه مسؤولاً عن دار الوزارة، تلك الــوزارة المساعدة لدار الإمارة أو الحاكمِ المسؤول عن دولته ورعيتهِ، وهي مسؤولية صعبة يجب العمل بها بأمانةٍ وصدقٍ ورفق، ويبدو أنّ الذينَ نقلوا للعتبي صورة الصاحب، نقلوا جانباً ســيئاً فــي شخصيته، وتركوا الجانب الحسن، والإنسان يحمل في شخصيته الخلق الحسن والسيئ، وما من إنسانٍ كامل، لكن العتبي لم يكن هجومياً على الصاحب ولاذعاً في نقده، بل نقد شخصيته، ووجه

(١)التوحيدي، مثالب الوزيرين،ط٢، ص١٢٤–١٢٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

له النصيحة لأنّ النصيحة محببة ، وتُعتبرُ رسالته رسالةُ نُصحٍ وتحذير، وقد استخدم فيها ضمير المخاطبة مثل آثرتُ نصيحتُكَ، وأمَا رأيْتَ، وغيرها، واستعان بأبياتٍ من الشعر وعباراتٍ تحملُ في ثناياها الحكمة، جعلها أمثلة موضحة لكلامه ونصحه مثل: رُبَّ واثقٍ خَجِل، وأحذركم يــوم التناد، وقد كانَ بمثابةِ المرشد للصاحب بن عبّاد أو العالم الفقيه الخائف على مصلحة أبناء أمته الإسلامية، هذا وهو لم يَرَ الصاحب ولم يلتق به، فكيف لو رآه، لكان متتبعاً لكل خطوة يخطوها، وكُلّ لفظةٍ يَتَلَفَظُ بها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

استنتاجات:

لقد عرض هذا الفصل آراء الكُتّاب الذين سمعوا بالصاحب بن عبّاد،وعرفوا أخلاقه، وما تميز به من صفات حسنة وسيئة، وكانت آراؤهم متنوعة بين السلب والإيجاب، ويمكن تلخيص ذلك على النحو الآتي:

١- إن الصاحب بن عبّاد في نظر بعض الكُتّاب مثل الخوارزمي، والصابئ وابن العميد، والثعالبي، شخصٌ ذو مكانة رفيعة في المجتمع وصاحب قدرة على تحمل المسؤوليات الصعبة، وذلك لتقلده منصب الوزارة، والاهتمام بالعلم والأدب، والتشجيع عليهما، والتأليف فيهما، وقد تبين هذا في الرسائل التي وجهوها إليه مادحين له، ومبينين مكانته، كما رأينا في ترشيح ابن العميد له لتهذيب مؤيد الدولة، وبيان أهميته عند الخوارزمي عندما فارقه، واستنجاد الصابئ له في مساعدته.

٢- إن الصاحب في نظر التوحيدي شخصٌ مشتمل على المساوئ أكثر من المحاسن، فهو في نظره مغرور، ويعتبر نفسه لا مثيل له في العلم والأدب والأخلاق، بل هو رجلٌ مجنون رقيع، وكذّاب، ومُدعٍ للعلم والدين، وقد تبين هذا من خلال كتابي (مثالب الوزيرين) و (الإمتاع والمؤانسة)، وقد بالغ كثيراً في نقده وتأليف الكلام عليه وقد جعل غيره من الكُتّاب يشاركونه في الحكم على الصاحب ونقده، اختلاقاً واصطناعاً في الغالب الأغلب الأعم.

٣- إنّ آراء الكُتّاب التي بسَطها التوحيدي في كتابه (مثالب الوزيرين) فيها مبالغة وتكرار.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن الصاحب بن عبّاد في نظر الباحث شخصٌ جامع للعلم والأدب، والسياسة، ومكارم الأخلاق، ولا يخلو من العيوب، لكن ليس إلى حدِّ تلك العيوب التي وصفها التوحيدي وغيره من الكُتَّاب التي تنفي أخلاقه الحسنة وشخصيته البارزة، فالعيب الذي اتصف به هو الإعجاب بنفسه كثيراً لقدرته على الكتابة في مختلف مجالات الأدب والعلم، والتصرف في الأمور السياسية، وهناك عيب آخر في كتابته وهو كثرة استخدامه للسجع والالتزام به والإكثار منه، على الرغم من جمال ألفاظه، وحسن تعبيره عن أفكاره.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني

صورة الصاحب بن عباد في نظر شعراء عصره

لقد ذكر لنا أبو منصور الثعالبي حين مدح الصاحب بن عباد في كتابه (يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر) أن عدد الشعراء الذين قصدوا الصاحب بن عباد يفوق عدد شعراء الخليفة العباسي (هارون الرشيد) ، وقد تنوع هؤلاء الشعراء بين شاعر يمدح الصاحب بأكثر من قصيدة وشاعرٍ يهجو الصاحب بألفاظ لاذعة وشاعرٍ يرثي الصاحب ويعدد مناقبه ويبين أهميته ، وشعراءٍ نظموا قصائد في وصف دار الصاحب والفيل الذي حصل عليه الصاحب في وقعة جرجان ، ورثاء البرذون الذي فقده أبو عيسى ، وهذه القصائد قد اقترح الصاحب بن عباد على أصدقائه من الشعراء نظمها و تُعرف بقصائد الديارات والفيليات والبرذونيات ، وسوف يعرض هذا الفصل نماذج على كل قسمٍ منها نوضح من خلالها انطباع هؤلاء الشعراء و رأيهم في أديبنا وشاعرنا البويهي .

١- صورة الصاحب بن عباد في نظر شعراء المدح

زعم الصاحب بن عباد أنه مُدِحَ بمائة ألف قصيدة عربية وعجمية،غير أنني لم أعثر إلا على القصائد التي أوردها الثعالبي في يتيمته و أبرز الشعراء الذين مدحوه ممن ذكرهم الثعالبي ، وهذا الخبر إن صح أو لم يصح فهو دلالة على كثرة القصائد التي مدح بها الصاحب وإني أرى في هذا القول مبالغة لا تخفى على أحد وإنها تدل على عدد الشعراء أو عدد القصائد التي نظمت في الصاحب بن عباد .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أ- أبو الحسن البديهي[١]

صحب البديهي الصاحب بن عباد من بغداد إلى أصبهان ، وكابد معه عناء السفر الشاق مع عدد من الرفاق ، وقد وصف ما جرى في هذه الرحلة في قصيدةٍ نظمها في مدح الصاحب قائلاً :

قَدْ أَطَعْتُ الغَرامَ فاعصِ العَذُولا ماعَسى عَائِبُ الهَوى أَنْ يَقُولا ؟

وصَحِبْنَاهُ فـــي فَيافٍ[٢] قِفَارٍ كَادَ فِيهَا الخَلِيلُ يَجْفُو الخَلِيلاً

فَبَولنَا[٣] مِنـــهُ دَماثَةَ[٤] أَخْلاقٍ أَعَادتْ تِلكَ الحُزونَ[٥] سُهُولا

وأوينَا إلى رِحَـــابِ رِحَابٍ لَمْ نجِد لِلْعُفاةِ[٦] عَنهَا عُدُولا [٧]

في هذه الأبيات على قلّتها تعبير واضح من الشاعر على حسن خُلق الصاحب بن عباد وقد اختبره بالتجربة والبرهان لا أولئك الشعراء الذين يمدحون للتكسب وينظمون القصائد في ممدوحهم دون معرفة مسبقة بخُلقه وفضله فالشاعر قد عرف فضله من ثم نظم فيه شعرا يثني عليه فيه . وهذا يأخذنا إلى قصة عمر بن الخطاب عندما سأل الرجل هل تعرف فلان فقال أعرفه فقال هل صحبته في سفر فقال لا فأجابه عمر إذن فما عرفته وهكذا يتبين لنا من هذا الخبر أن معرفة الأشخاص في سفر تختلف عن أي معرفة أخرى ففي السفر يتكشف الخلق الحسن من الخلق السيء وهذا ما ذكره الشاعر في مقطوعته (فبلونا منه دماثة أخلاقٍ) ، ولعل

---

(١)البديهي ، أبو الحسن علي بن محمد البديهي ، ورد ذكره في اليتيمة أنه من شهرزور كثير الشعر ، نابه الذكر، خليفة الخضر ، انظر يتيمة الدهر ، ج٣ ، ص ٣١٢ .

(٢)جمع فيف وهي الصحراء الواسعة المستوية ــ الطريق بين جبلين ــ

(٣)فبلونا :اختبرنا

(٤)دمث الرجل :سهل خُلقه

(٥)الحزن من الأرض:ما غلظ

(٦)العافي : الرائد ــالوارد الماءــ والضيف وكل طلب معروف

(٧)الثعالبي ، يتيمة الدهر ، تحقيق إبراهيم صقر ، مكتبة مصر ، ج٣ ، ص ٣١٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صورة الصاحب تتضح إذا ما عرفنا أن الرفاق في سفرهم هذا ضاقت أخلاقهم وتوعرت حتى أنهم ملّوا بعضهم البعض إلا الصاحب كلما طال السفر واشتدت صعوبته كان أكثر أخلاقاً وأطوع نفساً لرفقائه مما جعلهم يتناسون الملل ويقبلون بالحب والود على بعضهم البعض .

ب- أبو القاسم الزعفراني[١] :

وهذا أبو القاسم الزعفراني يمدح الصاحب بن عباد ، وقد كان الزعفراني ليِّن العشرة ممتع المؤانسة ، حلو المذاكرة ، حسن الديباجة في شعره وفي كلامه ، كما قال الثعالبي عنه في كتابه[٢].

وقد نظم الزعفراني قصيدة في مدح الصاحب بن عباد قائلاً :

هَاتِهَا لا عَدِمْتَ مِثْلي نَديماً ... قَهوةٌ تُنْتِجُ السُرورَ العَقيما

قد أَطعتُ الأَميرَ إذ سَامَني[٣] ... الشّربُ ولمْ أعْصِ أمْرَهُ المَحتوما

وتَخطَيتُ تَوبَتِي فِي هَواهُ ... فوَصَلتُ التي هَجَرتُ قَديماً

قِرْقَفاً[٤] تَنْتَمِي إلى الشّمْس ... لا تَعرِفُ في جِنسِها الكَرى[٥] والكُرُومَا

خَالفَتْ دِنّهَا الَغليظَ فَرقّتْ ... واسْتَفَادَتْ مِنَ السُمُومِ نَسيما

كُرِمَت عُنْصُراً فَلو مُتّ فِيهَا ... أبْخلَ النَاسِ غَادَرته كَريماً

وكَأَنّي لَمّا رَجَعْتُ إلَيْهَا ... كُنتُ مِنْ كُلّ لَذّةٍ مَحْروما

كَمْ عُقارٍ صُلِيت مِنْها سُروراً ... كَادَ يَهوي ، والجِلْدُ يُنمِي هُمُوما

---

(١) عمر بن إبراهيم ، من أهل العراق ، شيخ شعراء العصر ، وكان من ندماء الصاحب ، انظر وفيات الأعيان ، ج١ ،ص٩٣ ، معجم الأدباء ، ج٢ ، ص٣٢٦ .

(٢)انظر المصدر السابق،ج٣،ص ٣١٣

(٣)سام فلان فلانا الأمر كلفه أياه وألزمه به

(٤)القرقف : الخمر ــ الماء البارد الصافي

(٥)الكرى : النعاس

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قـــــــدّ وَجَدتُ الــرّوضَ الأَريضَ حَمِيماً وَوَجَدتُ الخَسيفَ عَادَ جَمُومَــا[١]

شَافهَـــــتْ[٢] بِـــــي مُنايَ بِالقَرمِ [٣] فَخْرُ الدولـــــــةِ اليَومَ جنّة ونَعيمـــــاً

وبَلَغْتُ الذي تَمنّيتُ ، واستَخدمتُ فاخْتـــــــرتُ مَجْلســـــــاً مَخْدومــاً

ورَآنِـــــــي الأمِيرُ أيّدَهُ اللهُ لَبيباً آثـــــــــارَ شَاهِنشاه فَصَارَ عَليمـــــاَ

أرشـــــــدتُهُ إليَّ كــفّ كَــريمٍ ألزَمَتْهُ أنْ لا يكُـــــــونَ لَئيمـــــــــا[٤]

لا يتوقف مدح الشعراء للصاحب بن عباد عند فن من الفنون ولا عند غــرض شــعري بعينه بل ربما يكون هذا الغرض الشعري وسيلة من وسائل الشاعر لمدح الصاحب . وهو فــي قصيدة الزعفراني التي تحدث فيها عن الخمر . وصورة الصاحب في هذه القصيدة تتمثل فــي ذلك الرسم الدقيق الذي أضفاه الشاعر على الممدوح وعلى الخمر وكأن بينهما خيطــاً خفــي لا يكاد يراه المرأ إلا بعد تأمل وطول نظر في القصيدة والزعفراني بعد أن أقلع عن شرب الخمر وجانبها أعوام طوال يعود لها مرة أخرى من بعد طلب الصاحب للزعفراني أن يعاود شربها . فما كان من الشاعر إلا أن استجاب لطلب الصاحب وليس ذلك فحسب بل قد تغير شعوره تجاهه من الرفض والنبذ إلى الرغبة فيها والاستمتاع فيها .

وكما تؤثر الخمر بالعقول فتغيرها وتذهب بها يفعل حُب الصاحب بقلوب الشعراء فيأخــذ منهم كل مأخذ ، نرى هذا في قول الزعفراني :

"وتَخَطيتُ تّوبّتِي في هّواه فَوصَلتُ التي هَجَرتُ قَديمَا"

---

(١)الجموم : الكثير المجتمع من كل شيء

(٢)شافهه:مشافهة وشفاهة،وشفاها متكلما معه والبلد أو للأمر : اقترب منه

(٣)القرم : السيد المعظم

(٤)الثعالبي يتيمة الدهر ، ج٣،ص٣١٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والصاحب بعد ذلك يكون سبباً في إيصال الشاعر إلى مجلس فخر الدولة وسبباً في النعيم الذي حلّ عليه .

ونظم الزعفراني أبياتاً أخرى في مدح الصاحب بن عباد وصف فيها مجلس السمر الذي كان يقضيه معه ، قال :

ولَيلٌ دَعَانِـــــي فجـــرُهُ فَلَقِيتُهُ بِمَجْلِسٍ طَلَقِ الوَجْهِ سَهْلِ التَخـــــلّقِ

إذا شِئْتَ خُضْنا فِي حَديثٍ مُنَمْنَمٍ[١] وإنْ شِئتَ عُمنَا[٢] فِي رحِيقٍ مُعتّــقِ[٣]

يَرُدّ شَبَابِي وهُو عَنّي شَاســـعٌ ويُدنِي التَصَابِي[٤] بَعْدَمَا شَابَ مَفرِقِي[٥]

فقد نظم الزعفراني أبياتاً أخرى في مدح الصاحب يصف فيها مجلس للهو والسمر وتبادل كؤوس الراح وما ذلك إلا امتثالاً لطلب الصاحب ، فالزعفراني مسلوب الإرادة شـديد الطاعـة للصاحب ويظهر هذا في قوله "إن شئت خضنا في حديث منمنم وإن شئت عمنا في رحيق معتق " فهو في هذه الأبيات يربط مشيئته بمشيئة الصاحب وأمره بأمره على أن الصاحب لا يظهر في هـذه الأبيـات مـستبداً برأيـه إلا أن حبـه للـصاحب أسـلمه قيـاد نفـسه وجعله يتمثل لما يريد .

(١)منمنم:المزخرف المرقش

(٢)عمنا :عمّ الشيء – عموماً : شمل

(٣)معتق:عتق الخمر ، تركها لتقدم وتطيب

(٤)الصبا:الصغر والحداثة

(٥)الثعالبي ، يتيمة الدهر ، ج٣ ، ص ٣١٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ج ــ أبو طاهر بن أبي الربيع

وقد مدح أبو طاهر بن أبي الربيع الصاحب بن عباد بقصيدة فقال :

أمَا لِصَاحِبي بِالعُذَيبِ مُعـــرّجُ عَلـــــــى دِمَنٍ أكنَافُهَا تَتَأرّجُ

وَصَهْبَاءَ بَكْرٍ يَرْسُبُ الدُّرُ قعْرُهَا وَمَطْفَاةٌ أعْلَى كَأسِها حينَ تُمزَجُ

سَلامٌ عَلى عَهْدِ التَصَابِي ، فَإنّنِي إلى الرُتبَــةِ العُليَا بِظلكَ أَحوجُ

إليْــكَ ابن عَبادٍ شَدَدْنا غَروضَها [١] وضوءُ النَّهار فِي دُجى اللّيلِ يُولِجُ

وعَبّرَ عَنْ مَكْنُونِ مَا فِي ضَمائِري خُلوصُ ولائِي والثَنـــاءُ المُدبجُ[٢]

في هذه الأبيات يتمثل الشاعر بناء القصيدة العربية في الوقوف على الديار والحنين إلى تلك الأيام السالفة وما كان فيها من ذكريات جميلة ، وفيها أيضاً حنينه إلى الخمر التي كان يشربها فهيهات تعود هذه الأيام فما إليها سبيل ولكن الذي يُسرّي عن الشاعر همه وجود الصاحب بن عباد في هذه الدنيا وقد أحسن الشاعر في حسن التخلص وانتقاله من وصف الطلل والديار والخمر إلى مدح الصاحب وذلك في قوله :

سلامٌ عَلى عَهْدِ التَصابِي ، فإنني إلى الرُتبةِ العُليا بظلكَ أحوجُ

فالشاعر يعلن صراحة أن همه ينجلي بهذه الرحلة التي يقوم بها إلى ابن عباد ودلالة على عجلة الشاعر في رحلته وقصده أنه مع تباشير الصباح شدّ رحل مطيته ويمّم شطر ديار الصاحب وهو قد أخلص له الولاء كما أخلص له الوفاء كما أخلص له في مدحه .

وعَبّر عَن مكْنُونِ ما في ضَمَائِري خلُوصَ ولائي والثّناءُ المدبّجُ

---

(١) الغرض:حزام الرَّحل ، وشعبة في الوادي غير كاملة ، وأن يكون الجسم سميناً فيُهزل فتبقى فيه غروضٌ (ج) غروضٌ وأغراض .

(٢)الثعالبي،يتيمة الدهر ،ج٣،ص٣٥٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ء ــ أبو إبراهيم إسماعيل بن أحمد الشاشي العامري[١]

قال عنه الثعالبي في يتيمة الدهر :

"هو أحد الأفراد بحضرة الصاحب ، وممن رفعتهم سُدّته وشرفتهم خدمته"[٢]

ومما نظمه في الصاحب بن عباد قصيدة شبب فيها بشكاية الإخوان وذكر مرضاً عرض للصاحب ، والشاعر في هذه القصيدة يسير على نهج المتنبي في قصائده فيفتخر في بداية القصيدة بفروسيته وخوضه للحروب وأن حظه من النساء قليل فلا تزدهيه النساء ولا ترغب به لشدة فيه ، ويجعل الشاعر حديثه عن الحرب والفروسية مقدمة لغرضه الشعري المقصود من وراء القصيدة وهو ذكر فضائل الصاحب ووصفه بما يليق برتبة وزير قد امتن على الناس بفضله مرة في تيسير الجيوش وأخرى في بلاغته و فصاحته ويتضح هذا في قوله :

سَرَينَا الى العَلْيَاَ فَقيلَ كَواكِـــــبُ وَثُرنَا الى الجُلّى[٣] فَقيلَ قواضِبُ

وفَاضَت لَنَا فَوقَ السنين نَوافِـــــلُ فَمَا شَكّ مَحْلٌ أنّهُنّ سَحائِـــــبُ

خُلُقْنا أشِدّاءَ القُلوبِ عَلَى الهَـــوى فَمَا تَزدَهينَا الآنسَاتُ الربَائِـــبُ[٤]

فَمَنْ دَأبُه مِنّا نُحُولٌ ودِقـــــــــةٌ فَمِمَا جَنَى أَحْبَابُنَا لا الحَبَائِـــبُ

أبِيتُ أُنَادِي الدّهْرَ : جُدْ لِي بِصَاحِبٍ وَجُلّ طُلاّبِ الدّهْرِ مَا أنَا طَالِـبُ [٥]

(١) إبراهيم إسماعيل بن أحمد الشاشي العامري ، انظر معجم الأدباء ، ج٢ ، ص ٣٢٦ .

(٢)الثعالبي،يتيمة الدهر ،ج٣، ص ٣٥٠

(٣) الجُلّى : جلى السيف والفضة والمرآة ونحوه جلياً ، وجلاءً : كشف صدأها وصقلها .

(٤) الربائب:الرّبيبة مؤنث الربيب وبنت امرأة الرجل من غيره والحاضنة المربية للصبي والجمع ربائب.

(٥)انظر المصدر السابق ، ج٣،ص٣٥٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والشاعر يعزّي نفسه في قصيدته هذه في انعدام الصديق الذي يمدحه ويثني عليه لكنه يجد عزاءاً عند الصاحب ، فالصاحب من يقدر الفرسان حقّ قدرهم وينزلهم منازلهم وهــو أعــرف الناس بفضلهم ومنزلتهم ، يقول :

إنْ لَمْ تَكُنْ مَنْدُوحَةُ[١] مِنْ مُصَاحِبٍ فَسَيــْفٌ ورِمْحٌ والفَلا والرِكَائِبُ

فَهُنّ إلى وفدِ الخُطوبِ[٢] كَتائِــبٌ وهُنّ الى كَافِي الكفُاةِ صَوَاحِبُ[٣]

وهكذا يصل الشاعر إلى غرض القصيدة وهو مدح الصاحب فيأخذ بالثناء عليه واصفاً إيّاه بالجود والكرم ، وأن هذا الجود والكرم الذي عُرف به كان سبباً في إعادة الأمل والابتــسام إلى وجوه الراجين والمؤملين بعطائه ونيل ما عنده من خير .

وهو في قصيدته هذه يتحدث عن الصاحب ويصفه بالوزير الذي حــافظ علــى دولتــه وحفظها من كلّ سوء ، وأعاد اليها قوتها وهيبتها من بعد أن سُلبت منها أو كادت ، وهو بالخير الذي يجود به على الناس قد أمِن الفاقة والنوائب فإن الخير الذي يجود به سببٌ من أسباب بقاء النعمة فهو يقول:

إلى مَلِكٍ مُذْ أَشْرَقَتْ شَمسُ جُــودِهِ تَبَسَّمَ فِي وَجْهِ الرَّجَاءِ المَطَالِبُ

إلى مَنْ حَمى عُودَ العُلاَ فَهُوَ نَاضِرٌ وَرَدّ إليهِ مَاءَهُ وهُو نَاضِــبُ[٤]

إلى مَنْ رعى بِالجُودِ سِربَ نَعيمِهِ فَلا تَتَمَطّى فِي ذُراهُ النَوائِبُ

وكُلّ نَعيمٍ لَمْ يُعوّذُ بِشَاكِــــــــرٍ تَفَنّنَ فِيهِ لِلْذَهــــابِ مَذاهبُ

لَعَمــــرِي بَنِي عَبّادٌ المجْدَ رَاسِياً ولَكِنْ لإسْماعيلَ مِنهُ المَنَاكِبُ [٥]

---

(١) المندوحة : يقال : أرض مندوحة : واسعة بعيدة ، وذلك عن هذا الأمر مندوحة : سعة وفُسحة .(ج) مناديح .

(٢) الخطوب :جمع الخطب وهو الحال والشأن ، والأمر الشديد يكثر فيه التخاطب .

(٣) انظر المصدر السابق ، ج٣،ص٣٥١

(٤)ناضب:نضب الماء نضوبا ، فار في الأرض.

(٥) الثعالبي ، يتيمة الدهر،ج٣،ص ٣٥٢ \ والمناكب : جمع المنكب وهو الموضع المرتفع من الأرض ، وعريفُ القوم .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما يذكر الشاعر حال الصاحب قبل وفاته فيذكر المرض الذي ألمّ بـــه و كيــف عــاوده المرض بعد أن تماثل للشفاء ، ويتساءل الشاعر عن عودة المرض إلى الصاحب وكيف عاد إليه وأثقل عليه وجعل الناس يرتدون ثوب الإشفاق على حاله خشية من أن تنزل به نازلة ، وهم مع ذلك أحوج الناس إليه لاسيما الأرامل منهن ، فهن أعلم وأقدر بالمصيبة التي تحلُّ عليهن بفقــد الصاحب لأنه المعيل والكافي الوحيد لهن فدعاؤهن له بالشفاء موصول لا ينقطع متجاوب صداه في أركان البيت.

وكما يذكر الشاعر قدرة الصاحب وعزمه وشدته على أعدائه وأنه أهلٌ لتحمل كل مصيبة فهو معتاد على الصعاب ومعتاد على تذليلها ، وهو مع ذلك يقع فريسة المرض فلا حول له ولا قوة ، والواضح من هذه القصيدة أن مرض الصاحب الحمّى التي أصابت الصاحب بصورٍ جميلة ويدلل على وجود شيء بالشيء أصلاً فيه وطبع كما هي الحرارة في الشمس فهي أصل منهــا وطبع في ماهيتها ، يقول :

فَدَيْناكَ يَا كَهْفَ البَريَة ، مَا الـــذّي ... أَعارَ المَعَالِي سَقَمَكَ المُتَنـــــاوِبُ

عَليهَا مِنَ الإشفاقِ ثَوبُ كَآبَـــــةٍ ... وَخطبٌ يُدانِيهِ الضّنَى مُتَقَـــــارِبُ

وفِي كُلّ دارٍ لِلأرامِلِ ضَجَـــــةٌ ... بِأدْعِيةٍ ضَوضَاؤُهَا مُتَجَـــــاوِبُ

ولَوْ شِئْتَ تَأديبَ اللّيالِي فَعَلْتَـــهُ ... فَلَمْ يُرَ مِنْهَا فِي جَنَابِكَ خَـــــارِبُ[١]

ولَمْ تَقْرَبْ الحُمّى حِمَاكَ وَلَمْ يكُـــن ... لِسَوْرَتِهَا[٢] فِي سَورةِ المَجْدِ سَـــارِبُ[٣]

وَحُوشيتَ أَنْ تَضْري بِجِسْمِكَ عِلّـــةٌ ... ألا إنّهَا تِلكَ الغُرومُ[٤] الثَواقِـــــبُ [٥]

---

(١)الخارب : اللص .

(٢)سورة:سار سورة : وثب ، وغضب غضبا شديدا .

(٣)سرب سروبا : خرج وفي الأرض ذهب على وجهه فيها فهو سارب .

(٤)الغروم :غرم غرما وغرامة : لزمه مالا يجب عليه .

(٥)الثواقب : ثقبت النار ثقوبا وثقابة : اتقدت ، والكواكب ونحوه ، أضاء فهو ثاقب .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولاعِجُ[١] تَدبيرٍ وجَائِشُ[٢] هِمّةٍ سَرى مِنْهُمَا بَينَ الجَوانِـــحِ لاهِـبُ

فَلا تَعذُروهَا أنْ رأتْ أَشْرفَ الورَى وَحلّتْ بِهِ فَالحَرُ فِي الشَمْسِ نَاشِـبُ[٣]

في نهاية القصيدة يتحدث الشاعر عن الهمّ والحزن الذي اعتراه و اعترى الأمـة علـى مرض الصاحب ، كما يذكر برءه من مرضه وكيف سعدت الأمة بزوال البأس عنه ، والشاعر يستحث الصاحب على وصله وعطائه وهو في هذا الأمر يطلب من الصاحب أن يعطيه علـى قدر نفسه هو لا على قدر الصاحب لأن قدر الصاحب أعظم من أن يُفتدى بمال أو تبلغه عطيـة أو صلة ، يقول :

لَقَدْ كَانَتْ الأَيامُ حَجّبَ شَمسَهـا دَياجِي[٤] هُمُومٍ دِجْنُهَا[٥] مُتَراكِـبُ

فَلمّا انْتَضَاكَ البَرْءُ عَادَتْ كَأَنّهَـا غَياهِبُ بَـأسٍ قَشّعَتْهَا مَواهِـبُ

نَظَرتَ إلى دُنياكَ نَظْرة قَـادِرٍ فَلمْ يَبقَ فِيهَـا سَائِلٌ ومُغالِـبُ

سِوايَ فإنّي سَائِلٌ أنْ تغُبَّ لِـي سَحَائِبُ نُعْمَى كُلُّهُن رَبائِـبُ

فَمَا فِي لِسَانِي شُكرُ مَا أَنْتَ مُنْعِمُ ولا فِي بَنَانِي حَصْرُ مَا أَنْتَ وَاهِبُ

أَنِلْنِي بِقَدْرِي لا بِقَدْرِكَ إنّمَـا تُجُودُ عَلى قَدرِ الأتِيّ المذَانِـبُ[٦]

هـ – أبو سعيد الرستمي :

وقد مدح الرستمي الصاحب بن عبّاد ببيتين قال فيهما :

وَرِثَ الوِزَارَةَ كَابِراً عَن كَابرٍ موصُولةَ الإسنادِ بالإسنادِ

يروي عنْ العبّاسِ عبّـادٌ وِزا رَتَهُ وإسماعيل عن عبّاد[٧]

---

(١)اللاعج : الهوى المحرق ، ويقال همٌ لاعج لحرقة الفؤاد من الحب .

(٢)وجائش : جأشت نفسه جأشا : ارتفعت من حزن أو فزع وإليه – أقبل.

(٣)الثعالبي يتيمة الدهر ، ج٣ ، ص ٣٥١ \ والناشب : الرامي بالنِّشّاب .

(٤)الدياجي : الظلمات .

(٥)الدّجنة : السواد والظلمة.

(٦)الثعالبي ، يتيمة الدهر ، ج٣ ، ص ٣٥١ ــ ٣٥٢ .

(٧)الحموي ، معجم الأدباء، ج٢ ، ص ٧١٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي هذين البيتين يمدح الشاعر الصاحب بن عباد واصفاً ما اعتلاه من منصب الـوزارة ومبيناً استحقاقه لها وما ورثه عن أبيه من علم وأخلاق حيث كان أبوه معلماً فاضلاً في قرية من قرى الطالقان ، وقد ورّث علمه وأدبه وأخلاقه لابنه الصاحب بن عبّاد ، فنشأ الصاحب أديباً ذاع صيته في الآفاق ، بارعاً بمختلف مجالات المعرفة ، كما تولّى الوزراة ، إذ كان وزيراً لمؤيـد الدولة وأخيه فخر الدولة ، وكان مؤدباً لمؤيد الدولة ، وقد صوّر الشاعر الوزارة وكأنها روايـة لها إسناد موصول يرويها الصاحب إسماعيل عن أبيه ، وأبيه عن جدّه .

و ــ العميري

ذكر الثعالبي في كتابه اليتيمة أن العميري قاضي قزوين قد أهدى إلـى الـصاحب كتبـاً وكتب معها :

العُميريُّ عبدُ كافِي الكُفـــــاةِ ومَن اعتدّ في وجوهِ القضاةِ

خَدَمَ المَجْلِسَ الرفيع بكتـــبٍ مفعمَاتٍ منْ حسنها مُترعَات

يصف العميري نفسه في هذين البيتين بالعبد الخادم للصاحب بن عباد ، بما أهدى لمجلسه من كتب قيمة تلائم أدب الصاحب وعلمه ومكانته الرفيعة ، فوقّع الصاحب تحتها :

قدْ قَبِلْنا مِنَ الجَميع كتابـــاً ورددنَـــــــا لوَقتهـــا الباقياتِ

لسْتُ أستغنِمُ الكثيرَ فطبعي قول خذْ لَيْسَ مذهبي قول هاتِ [١]

٢- صورة الصاحب بن عباد في نظر شعراء الهجاء :

يقابل الإنسان بالمدح تارةً وبالهجاء تارةً أخرى ، وقد نظم بعض الـشعراء أبياتـاً مـن الشعر قليلة العدد لكنها تحمل في ثناياها معنى الهجاء للصاحب بن عباد ، وقد أورد الثعالبي هذه الأبيات في كتابه اليتيمة ، فمن الشعراء الذين هجوه :

---

(١)الثعالبي ،يتيمة الدهر ، ج٣ ، ص ٣٥١ ــ ٣٥٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أ ــ أبو الحسن السلامي[١] :

هجا السلامي الصاحب بن عباد بقوله :

يا ابْنَ عَبّادَ بِنْ عَبّاس بِنْ عَبدِ الله حرِّها

تُنْكِرُ الجَيرَ وأُخْرجتَ إلى العَالمِ كُرهَا[٢]

في هذين البيتين يهجو السلامي الصاحب هجاءً مقذعاً ، فهو في البيت الأول يذكر نسبه على سبيل السخرية ، وفي البيت الثاني وهو يشير إلى فكرة الجبر التي تتناقض مع رأي المعتزلة في حرية الإرادة ، فهو يعيبه لذلك .

ب ــ أبو بكر الخوارزمي :

وهجى الخوارزمي الصاحب بن عباد بقوله :

لا تَمْدَحنّ ابنَ عَبّادٍ وإنْ هَطلَتْ كَفّاهُ بِالجُودِ سَحاً يُخْجلُ الدّيمَا

فَإنّهَا خَطَرَاتٌ[٣] مِنْ وَسَاوِسِهِ يُعْطِي ويَمنعُ لا بُخْلاً ولا كَرَمَا[٤]

في هذين البيتين يعرّض الخوارزمي بالصاحب وينهى الشعراء عن مدحه وإن فاضت كفاه بالخير الكثير فإن عطاءه و منعه تبعاً لرضى نفسه وسخطها لا كرماً ، وإذا لم يكن الكرم أصلاً بالنفس فلا خير يرجى من عطائها فإن الذي يعطيك إذا رضي عنك هو ذاته الذي يغصبك ما في يدك إن سخط عليك .

---

(١)السلامي : أبو الحسن محمد بن عبدالله بن محمد القرشي المخزومي السّلامي ، ت ٣٩٣ هـ ، سكن بغداد والموصل وفارس أيضاً ، وفيها اتصل بالصاحب بن عباد و عضد الدولة ، انظر تاريخ بغداد ج٢ ، ص ٣٣٥، الوافي بالوفيات ج٣،ص ٣١٧ ــ ٣١٩ .

(٢)انظر المصدر السابق ، ج٣ ، ص ١٨٠.

(٣)خطرات : ما يخطر في القلب

(٤)الحموي ، ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي ، معجم الأدباء ، ط١،تحقيق إحسان عباس ، دار الغرب الإسلامي ، ١٩٩٣م،ج٦،ص٤٩٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الغريب أن الصاحب لم يردّ على الخوارزمي في حياته بل هَزِأ به بعد الوفاة وهذا ليس من الكرم في شيء لأن من مات من المسلمين قد أصبح في ذمة الله فلا يجـوز سـبابه أو شتمه، يقول الصاحب :

سَأَلْتُ بَريـــداً مِنْ خُراسَانَ جَائِياً أَمَاتَ خَوَارِزْمِيكُمُ قِيلَ لِي نَعَم

فَقُلْتُ اكْتُبوا بِالجِصّ [١]مِنْ فَوقِ قَبرِهِ ألا لَعَنَ الرّحمنُ مَنْ كَفرَ النِعَم[٢]

ج ــ أبو العلاء الأسدي[٣] :

أما الأسدي فهجا الصاحب بقوله :

إذَا رَأَيْتَ مُسَجَّى[٤] فِي مُرَقَعَـــةٍ يأوِي المَساجِدَ حُراً ضُرُّه بَادِي

فَاعْلَم بِأنّ الفَتَى المِسْكينَ قَدْ قَذَفَتْ بِهِ الخُطُوبُ الى لُؤمِ ابْنِ عَبّاد[٥]

والشاعر يردّ أحوال المجتمع وفقر بعض أفراده إلى لؤم الصاحب وصعوبة طبعه وهـذا اللؤم المتأصل في نفس ابن عبّاد لا يترك المرء الذي سخط عليه إلا بعد أن يورده المهالك ، فهو يصفه باللؤم وأذية الناس الأحرار ، فكلما وقعت عينك على مسكين رثّ الثياب في مسجد فاعلم أن الذي أدى به إلى هذا الضرر هو لؤم ابن عبّاد ، وهذا الوصف الذي خلعـه الـشاعر علـى الصاحب لا يكون إلا لرجل ذو شأن رفيع .

---

(١)الجصّ : الجصّ من مواد البناء

(٢)الحموي،معجم الأدباء ،ج٦ ، ص٢٥٦

(٣)ذكره الثعالبي في اليتيمة بقوله : "قديم الصحبة للصاحب ، شديد الاختصاص به ، ممتد الغرة والتحجيل في شعرائه وصنائعه وندمائه و كان يحبه ويأنس به ، و يكاتبه نثرا ونظما " انظر اليتيمة ، ج٣ ، ص ٣٠٩

(٤)مسجى : تسجى تغطى

(٥)الثعالبي ، يتيمة الدهر ،ج٣،ص ٢٥٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ءــ أبو الحسن الغويري:

ويتحدث الغويري عن بخل ابن عبّاد إذ إنه لا يدعوا أحداً إلى طعام في بيته، والــشاعر لذلك يتناول طعامه في منزله إذا جاءته دعوة من ابن عبّاد لأنه يعلم مقدار سوء طعامه وموائده وشحّه فيها ، فهو يقول :

إنْ كَانَ إسْماعيلُ لَم يَدْعُنِي لِأنّ أكْلَ الخُبزِ صَعْبٌ لَديهِ

فَإنَنِّي آكلُ فِي مَنْزِلـــــي إذَا دَعَانِي ثُمّ أمْضِي إليه[١]

هــ – أبيات لأحد الشعراء :

وقال أحد الشعراء في ابن عبّاد يذمّ سجعه وخطه وعقله :

مُتلقـــــــــبٌ كَافي الكُفاةِ وإنّمَا هُــو فِي الحقيقَةِ كَافرُ الكُفّار

الَسجْعُ سَجْعُ مُهوّسٍ والخَطّ خَطّ مُنقَرِس والعَقْلُ عقلُ حِمار [٢]

ينفي الشاعر عن الصاحب بن عبّاد لقبه الذي اشتهر به بين الناس (كافي الكفاة) ، فهو في نظره كافر الكفار ، كما يهجوه بذم سجعه ويصفه بمرض الهَوس الذي أصيب به ، و يشبه خطه بخط الإنسان المصاب بمرض النقرس ، أما عقله فهو كعقل الحمار الذي لا يفقه شيئاً وهو هنــا يهزأ بالصاحب وما تلقّب به من ألقاب حسداً له وغيظاً منه .

و– ذكر الحموي في معجم الأدباء أنّ التوحيدي قال :

" قال لي يوماً الشاباشي وقد خرجنا من مجلس الصاحب : كيف رأيت مولانا الــصاحب اليوم مع هذا التقرير وإظهاره البلاغة الحسنة بين الناس ؟ فقلت : السكوت عن مثلــه إحــدى الحسنيين وأحرى الحالتين ، ولكن نعوذ بالله ممن يزين له الشيطان عمله ويزخرف له قولــه .

---

(١)انظر المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٢٥٦

(٢)التوحيدي ، مثالب الوزيرين ، ص ٣٧٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قال لي : كأنه لم يخلق هذا الرجل إلا غيظاً لأكباد الأحرار وشفاءً لسقم الأنذال ، لحا الله دهراً آل بنا إليه ، وأنزلنا عليه ، وأحوجنا إلى مُقاساته، وألجأنا إلى مجالسته ، وأنشد يقول :

يَامنْ تَبرمَتِ الدّنيَا بِطلعتِهِ كَما تبرَمتِ الأجْفانُ بِالرّمَدِ

يمْشي عَلى الأرضِ مُجتَازاً فَأحْسَبُهُ مِن بغض طلعَتِه يَمشِي عَلى كَبَدِي

لو كَانَ فِي الأرضِ جزءٌ مِن سَمَاجتِهِ لَم يُقدمْ المَوتُ إشفاقاً على أحَدِ [1]

يهجو الشاعر الصاحب بن عبّاد ويقول إن الدنيا سَئِمت وتضجرت من رؤيته كما تتضجر العيون الرمد الذي يصيبها ، ويصف مشية الصاحب المتكبرة المغرورة وكأنه يمشي على كبده تعبيراً عن غيظه منه وبغضه له ، وهو في نظره ذو سماجة وأخلاق سيئة .

٣- صورة الصاحب بن عباد في نظر شعراء الرثاء :

عندما توفي الصاحب بن عبّاد تأثر بوفاته كلُّ من يعرفه من أهل مدينته وغيرها ، حيث أنهم ذرفوا الدموع ، ولطموا الخدود ، وشقوا الثياب ، وأصابهم الحزن الشديد ، فقد فقدوا وزيراً وأديباً مهماً في حياتهم ، وأكثر فئة تأثرت بوفاته وعبّرت عن حزنها هي فئة الشعراء الذين نظموا قصائد عبّروا فيها عن حزنهم الشديد عليه ، ومن المعروف أن الرثاء هو أصدق الأغراض الشعرية مطلقاً فهو يعبّر عن عاطفة صادقة ومشاعر حقيقية تنتمي لصاحبها أشد انتماء ، فالشاعر في هذا الفن لا يسعى إلى غرض دنيوي كما هو في قصائد المدح ، بل يسعى لتخليد شمائل الفقيد وآثاره كما أنه لا يعبّر عن حزنه وفجيعته ، فإذا أردنا أن نعرف قَدرَ امرء في مجتمع فإننا لا ننظر إلى قصائد المدح كما ننظر إلى قصائد الرثاء ، وفيما يلي بعض الشعراء الذين نظموا في رثائه وبيان للصفات التي أسبغوها عليه .

---

(١)الحموي ، معجم الأدباء ، ج٢ ، ص ٧٠٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أ- أبو القاسم بن أبي العلاء الأصبهاني [١]

يبتدئ الشاعر قصيدته بقوله (يا كافي الملك) وفي هذا التركيب بلاغة في وصف الصاحب فهو يرى فيه مالا يرى في غيره ، وهو بهذا التركيب يقصر المُلك على الصاحب بن عبّاد وكأن لا أحد يملأ هذا الفراغ الذي خلفه وراءه ، وأنه حامي حمى الدولة البويهية إبّان ذلك ، ففي ذلك العصر انقسم العالم الإسلامي إلى دويلات صغيرة واستشري فيها الفساد وضعفت أيما ضعف، والشاعر لا يرى القصائد التي خلّدت مجد الصاحب تكفي لما ولي من أمر الناس وتخليد أخلاقه الحميدة، وأما القصائد التي رثته والتي تحمل في ثناياها فجيعة الأمة بفقد الصاحب لم تكن أوفر حظًا من تلك التي خلّدت أفعاله وأعماله ، ولو طال فيه التأبين و التمجيد ، والتأبين يكون في ذكر الشعراء للفاجعة التي حلّت بهم بعد رحيل الصاحب ، أما التمجيد فتخليد لخلقه وصفاته ومناقبه ، حيث يقول :

يَا كَافِي المُلْكِ مَا وُفّيتَ حَظّكَ مِنْ وَصْفٍ ، وإِنْ طَالَ تَمْجيدٌ وتَأبينُ

فُتّ الصِّفاتِ فمّا يُرثيكَ مِنْ أَحدٍ إلا وتَزْيينُهُ إيّاكَ تَهجينُ[٢]

ولم يكن موت الصاحب فناءً له وحده بل شاركه في فنائه أنفس الناس الذين أحبوه ، وفي هذا مبالغة من الشاعر لكنها تعبّر عن مكانة الصاحب في مجتمعه وكيف كان يرعى الناس ويحافظ على حقوقهم ويصون العِرض والدين ، ولهذا بكته الخُرَّدُ العين وهي النساء الرقيقات، وهن أول من تأثر بفقده من جملة الأشياء التي ذكرها الشاعر تصويراً لحجم المأساة التي نزلت بالدولة ولم يقف الأمر عند ذلك بل نعاه كذلك من نعى المكانة العالية والسلطان الذي حفظ للدولة مكانتها وسيادتها ، فكل من عرف الصاحب بكى لفقده أشد البكاء ومن ذلك العطايا التي كان

---

(١) أبو القاسم بن أبي العلاء الأصبهاني ،ورد ذكر اسمه فقط في معجم الأدباء ، ج٢ ، ص ٧٠٦ .

(٢)الثعالبي ، يتيمة الدهر ، ج٣ ، ٢٥٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يمنحها للشعراء والصلات التي كانت منه إلى الفقراء والمساكين وكلّ ذي حاجة ، وأهل رعيته ونظراؤه من الملوك والأمراء والسلاطين ، فهو يقول :

مَا متّ وَحْدَكَ لَكِنْ مَاتَ مَنْ وَلَـدَتْ حَواءُ طُرّا[١] ،بَلْ الدُّنيَا ،بَلْ الدّينُ

هَذِي نَواعِي العُلا مُذْ متَّ نَادِبـــَةً مِنْ بَعْدِ مَا نَدبَتْكَ الخُرّدُ[٢] العِينُ

تَبْكِي عَلَيْكَ العَطَايَا والصّلاتُ كَمَا تَبْكِي عَلَيكَ الرِّعَايَا والسَلاطِينُ[٣]

وبعد أن انتهى الشاعر من محاولة تخليد صفات الصاحب وذكر من ناح عليه وبكى على فقده بذهابه ينتقل الشاعر إلى الأحداث المترتبة على فقده وضياع الأمن والأمان وانتشار أهـل الفساد وسعيهم في الأرض بما حملت أنفسهم من فساد ، وقد كانوا قبل ذلك لا حول لهم ولا قوة و ذلك أن الصاحب قد أقام الدين وحفظ حقوق الناس ، وهنا يرسم الشاعر صـورتين جميلتـين تتعلق إحداهما بالأخرى ، الأولى في رحيل الصاحب وكانت سببا في استيقاظ أهل الشر والفساد، والثانية في تصويره للصاحب أنه قد ملك الأمر بالحزم كما ملكه سيدنا سليمان عليه الـسلام ، ويشبه انفلات الشر بعد وفاته بانفلات الشياطين من عِقالهم حين تأكدوا من موت سليمان ــ عليه السلام ــ ، يقول :

قَـــامَ السُّعاةُ وكَانَ الخَوفُ أَقْعدَهُـم فَاستَيْقَظُوا بَعدَ مَا متَّ المَلاعِينُ

لايُعْجِبُ النّاسَ مِنْهُمْ إنْ هُمُ انْتَشَرُوا مَضى سُلَيْمَانُ وانْحلَّ الشَيَاطِينُ[٤]

---

(١) طرا:طَرّ ، وطروراً : كان طريرا ذا رواء وجمال .

(٢)الخُرّد: الفتاة ظلت سليمة عذراء.

(٣) الثعالبي ، يتيمة الدهر ، ج٣ ، ص ٢٥٨

(٤)انظر المصدر السابق ، ج٣ ، ٢٥٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ب- أبو سعيد الرستمي :

وقد أورد الثعالبي بيتين للرستمي يرثي فيها الصاحب بن عباد ،قال فيهما :

أَبَعْدَ ابنِ عَبَّادٍ يُهشُّ الى السُـــــرى أَخُو أَمَلٍ أَو يُسْتَمَاحُ جَوادُ؟

أَبَى اللهُ إلا أَنْ يَموتَا بَمَوْتِـــــــــهِ فَمَا لَهُمَا حَتّى المَعَادِ مَعَاد[١]

يبتدء الشاعر بسؤال استنكاري ينفي من بعده وجود الأمل والجود عند غير ابـــن عبـــاد ،فالجود والأمل قد ارتحلا برحيله حتى كأنه آخر الناس الذين اتصفوا بهذه الصفات وأن الله أبى أن تبقى هذه الصفات بعد ذهاب الصاحب ، فلا عودة لها حتى يوم القيامة .

ج - أبو الفرح بن ميسرة :

لقد عبّر أبو الفرح بن ميسرة عن إخلاصه للصاحب بن عبّاد حين قال :

ولَو قُبِلَ الفِداءُ لَكَانَ يُفْـــدَى وإنْ جَلَّ المُصَابُ عَلَى التَفَادِي

ولَكِنّ المَنونَ لَهَا عُيـــــونٌ تَكُدّ[٢] لِحَاظُها فِي الانْتِقـــــــادِ

فَقُلْ لِلْدّهْرِ ؛ أَنْت أَصبَتَ فالْبِسْ بِرَغْمِـــــكَ دُونَنَا ثَوبَيْ حِدَادِ

إذَا قَدَّمْـــــــت خَاتِمَةَ الرَزايا فَقَدْ عَرّضْتَ سُوقَكَ لِلْكَساد[٣]

في هذه الأبيات يفترض الشاعر افتراضات على الرغم من معرفته أنها ليست منطقيـــة ، فهو يتمنى فداء الصاحب، وأي فداء؟ وكيف يفتديه من الموت؟ فكل شيء له فداء عدا الموت ما له فداء ولا ثمن .

---

(١)انظر المصدر السابق، ج٣ ، ٢٥٩

(٢) تكُّد : كدّ فلان كداً ، اشتد في العمل ، وألح في محاولة الشيء ، وطلب الرزق .

(٣)الثعالبي ، يتيمة الدهر ، ج٣ ، ٢٥٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم يتوجه الشاعر بكلامه إلى الدهر الذي أصابهم بهذه المصيبة ويقول له إنّا لبسنا ثــوب الحداد فالبس أنت اثنين لأنك أنت الذي قدمتها لنا وهي أعظم المصائب ، وستكون سلوى لنا في مصائب أخرى إن جاءت.

د- أبو الفياض سعيد بن أحمد الطبري

إن كل شاعر رثى الصاحب بذل جهده في أن يعبر عن مصيبته بفقد الصاحب كما يــرى وبأقصى ألفاظ يستطيع خياله الشعري أن يأتي بأكثر الصور مأساةً وتأثيرا في نفــوس القــرّاء والمستمعين وقصيدة الطبري هذه من أكثر القصائد التي يبدو فيها تفجّع الشاعر ولوعته ومأساته المتمثلة في فقد الصاحب وهو في قصيدته يصور اللحظة الأولى لذيوع خبر وفاة الصاحب ولا يكاد يصدّق هذا الخبر وهو يلمّح في الأبيات الأولى على نعي الصاحب مصوراً كل بيت مــن الأبيات في لوحة فنية مستقلة لكن الذي يجمع فيها نعي الصاحب ، فهو يقول :

نَعَى النّاعِي إلــى الدّنْيَا فَتَاهَا أَمِينَ اللهِ فَالدُنْيَا ثكُــــــولُ

نَعَى كَافِي الكُفــَاة ،فَكُلُّ حُرٍّ عَزيزٍ بَعْدَ مَصْرَعِهِ ذَليــلُ

نَعيَ كَهْفِ الُعفَاة ، فَكُلُّ عَيْنٍ بِمَا تَفْذي العُيونُ بِهِ كَحيلُ[١]

ففي البيت الأول تظهر صورة الصاحب من خلال قول الشاعر فتاها وهو بــذلك كأنــه يضيف الدنيا له وكأنهما حدثان مقترنان يصعب التصديق أن شملهم قد انصدع وذهب الصاحب وبقيت الدنيا دونه وعلى هذا كان كل أهل الدنيا ثكالى يشكون هذه المصيبة .

وأما في البيت الثاني فنعيه كان للخاصة دون العامة لأن الخاصة الــذين عاشــوا معــه وعرفوه حق المعرفة كان لهم الكافي الذي قدّم لهم كل شيء سواء في الحرب أو في الأدب وهم

(١)الثعالبي ،يتيمة الدهر، ج٣ ، ٢٦٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بوفاة الصاحب تنقلب أحوالهم ويصيرُ إلى النقيض فمالهم من أجلٍ كالصاحب يعطي كل شـــيء حقه .

وفي البيت الثالث يجعل الشاعر الأمر الطبيعي دليلا وبرهانا على حزن الناس فهو يذكر القذى الذي يصيب العيون ويعير هذا الأمر الطبيعي دليلا على الحزن .

وينتقل الشاعر بعد ذكره نعي الصاحب بن عباد إلى ذكر التراب الذي ضمّ جسده ويخلـــع على هذا التراب صفاتاً عديدة منها الرائحة الطيبة والمعروف أن القبور لا تحمل الرائحة الطيبة وهذه الرائحة أشد ما تكون في وقت السّحر فهي كالمسك وغيره من الطّيب ، يقول :

كـــأَنّ نَسيمَ تُربَتِهِ سَحِيراً [١] نَسيمُ الرّوضِ تَقبَلُهُ القَبُـــولُ

إذَا وافَى أُنُوفَ الرَكْبِ قَالُوا سَحيقُ المِسْكِ أَمْ تُربٌ مَهيلُ[٢]

وبعد ذلك يوجه الشاعر كلامه إلى الصاحب مسائلا إيّاه عن سبب الوفاة وكيف عاجلتـــه المنية وهو في سؤاله مستنكر أشد الاستنكار لما حلّ بالصاحب وقد وصفه بالقمر الذي عاجلـــه الأفول وذلك أن رجلا عظيما كالصاحب يصعب التصديق أنه قد توفي وهو ليس رجلا عاديـــا إنما ساس الناس جميعا بحكمته وقدرته ، إذ يقول :

أنَا قَمَرُ المَكَارِمِ والمَعَالِـــــي أَبِن لِي كَيفَ عَاجَلَكَ الأُفُـــــولُ ؟

أَبِنْ لِـــــــي كَيــفَ هَالكَ مَا يَهُولُ وَغَالَكَ بَعدَ عِزّكَ مَا يَغُولُ؟

ويَامَـــنْ سَاسَ أَشْتَاتَ البَرايَا وأَلْجَمَ مَنْ يَقُولُ ومَنْ يَصـــــولُ

أَدَلْتَ عَلى اللَيالِي مَنْ شَكَاهَا وقَدْ جَارَتْ عَليكَ فَمَنْ يُديـــــلُ[٣]

---

(١) سحر سحيراً :بكّر وانقطع سحره من جذب شيء ، فهو سحير وتسحيرا

(٢) مهيل : المهل المعدن المذاب (الفضة والنحاس والحديد والذهب) ،انظر المصدر السابق ، ج٣ ، ٢٦٠

(٣)الثعالبي ،يتيمة الدهر، ج٣ ، ج٣ ، ٢٦٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم يذكر الشاعر كلّ من بكى على الصاحب كالسيوف والرماح التي كان يُسلّح بها الجيش كما يذكر بكاء الخيل وهنا أيضا يُصير الأمر الطبيعي دليلاً على حزن من بكى الصاحب فيجعل صهيل الخيل دليلاً على حزنه وصورة الصاحب هنا تبدو في ذلك الرجل الذي يُجهــز الجــيش ويهيئه ويسيره للقاء العدو ، فهو يقول :

بَكَاكَ الدّينُ والدّنيَا جَمِيعـــــاً وأَهْلُهَا ، كَمَا يُبكَى الحُمُــولُ

بَكَتْكَ البِيضُ والسُّمْرُ الَمواضِي وكُنْتَ تعُولُها فيمَنْ تَعُـــولُ

بَكَتْكَ الخَيلُ مُعوّلـــــةٍ ولَكنْ بُكَاهَا حِينَ تَندبكَ الصَهيـــلُ

قُلوبُ العَالَمينَ عَليكَ قَلـــبٌ وحَظُّكَ مِن بُكائِهمُ قَليـــــلُ[١]

وبعد أن انتهى الشاعر من رثاء الصاحب وذكر من بكى عليه ومن تألم لفراقه ينتقل إلى نفسه وعلاقته مع الصاحب فيذكر وفاءه لصديقه الراحل كما يذكر ألمه وحزنه ، ويردُّ ضــعف شعره وركاكته إلى فقد الصاحب ولما أصابه من الحزن عليه ، ويمضي الشاعر في ذكر حياته بعد الصاحب وما سيطرأ عليها من تغيرات أقلّها أنه في حياته ميت دون مــشاعر وأحاســيس وكيف يطيب له العيش بعد فراق صديقه فهو شديد الوفاء له والحزن عليه اقتدار لوفائه له فــي حياته ويختم قصيدته بالدعاء لصديقه بالرحمة راجياً من الله أن يسكنه جنّته ، يقول :

(١) انظر المصدر السابق، ج٣ ، ٢٦٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وَلِـــي قَلْبٌ لِصَاحِبِهِ وَفِـــــــــيٌّ يَسِيلُ وتَحْتَهُ رُوحٌ تَسيـــــــلُ

اذَا نَظَمَتْ يَدي فِي الطِّرْسِ[١] بَيتاً مَحَاهُ مِنْهُ مُنْتَظَمٌ هَطُـــــــولُ

فَـــإنْ يَكُ رَكّ شِعري مِنْ ذُهولِـــي فَذلِكَ بَعضُ مَا يَجْنِي الذَهُولُ

كَتَبْتُ بِمَا بَكيْتُ لأنّ دَمْعِـــي عَليكَ الدّهْرُ فَيّـــــاضٌ هَمـــولُ

وَكنتُ أَعُدّ مِنْ رُوحِي فِـــــدَاءاً لِروحِكَ إنْ أُريدَ لَهَا بَديـــلُ

أَأَحْيَا بَعـــــْدَهُ وأَقَرُّ عَيْنـــــــاً ؟ حيَاتِي بَعْـــدَهُ هَدْرٌ غَلــولُ

حَياتِـــي بَعْدهُ مُوتٌ وَحـــــيٌّ[٢] وَعَيشِـــي بَعْدَهُ سُمّ قَتُــولُ

عَليـــكَ صَلاةُ رَبِّكَ كُلّ حِيـــنٍ تَهبُّ بِهَا مِنَ الخُلدِ القَبُولُ[٣]

هـ – أبو العباس العلوي الهمذاني :

وهذا أبو العباس الهمذاني يرثي الصاحب بقوله :

نَـــومُ العُيونِ عَلى الجُفُونِ حَرامُ ودُمُوعُهُنَّ مَعَ الدِمَاءِ سِجَـامُ

تَبْكِي الوَزيرَ سَلِيلَ[٤] عبّـاد: العُلا والدّينُ ،والقُرآنُ، والإسْـلامُ[٥]

تَبكِيـــه مَكّـــةُ والمَشَاعِرُ كُلُّهَا وحَجيجُهَا والنّسْـكُ والإحْرامُ

تَبكيهِ طَيبةُ والرَســـولُ ومَنْ بِهَا وعَقيقُهَـــا والسَهْلُ والأعْلامُ

كَافِي الكُفاةِ قَضى حَمِيـــداً نَحْبَهُ ذَاكَ الإمَـــامُ السّيدُ الضِرغَامُ

مَاتَ المَعَالِي والعُلومُ بِمَوتِـــــهِ فَعَلى المَعَالِي والعُلومِ سَلامُ[٦]

---

(١) الطرس : الكتاب الذي محي ثم كتب

(٢) موت وحي ــ بفتح الواو وتشديد الياء ــ أي سريع .

(٣)الثعالبي ، يتيمة الدهر ، ج٣ ، ٢٦٠ ـــ ٢٦١ .

(٤) السليل : المسلول : الولد حين يخرج من بطن أمه .

(٥) العُلا:فاعل تبكى ، وحذف النون من "عباد" لإقامة الوزن .

(٦)انظر المصدر السابق ، ج٣ ، ٢٦٤ ــ ٢٦٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يصف أبو العباس في هذه الأبيات حاله بعد وفاة الصاحب بن عباد ، حيث أن عيونه أرقة لا تستطيع النوم ، ومحرومة منه ، وهي حزينة تذرف الدموع حزنا على فقد الصاحب الذي كان وزيرا و معلماً للناس ، ومدافعا عن الدين والقرآن والإسلام،ولم يكن وحده الذي حزن لفقده، بل بكاه كل من كان في مكة من حجيج محرمين ، وحجارة وسهول ووديان وأعلام ، حزناً عليه ، ثم يقول أن الصاحب قد مات وغادر الدنيا ،فقد كان شجاعاً قوياً ، وإنساناً بكل معنى الكلمة ، وبموته ماتت العلوم والأخلاق والآداب ، و كل شيء حسن ، وقصيدة الهمذاني تبين مدى أهمية الصاحب ومكانته في حياة الأصبهانيين و غيرهم من العراقيين الذين عاصروه وعرفوه ، الشعراء الآخرين رثوا الصاحب وذكروا فعاله في الحروب وعطاياه وهباته ، ويتبين في هذه القصيدة أهمية الصاحب بن عباد في الوسط الديني في مكة والمدينة وشعائر الحجاج والعلوم .

و ــ أبيات لبعض أهل نيسابور

ورثى بعض أهل نيسابور الصاحب بن عباد بأبيات قالوا فيها :

ألاَ يَا غُـــرّةَ العُلَيَا　　أَلا يَـــــــــا نَكْبَةَ الدّنْيَا

وشَمْسُ الأَرْضِ فَرْدُ　　الدّهْرِ عَينُ السُؤدُدِ اليُمْنَـــى

أمَا اسْتَحْيَا أَبُو يَحْيَى　　لِفَضَّ[1] المُهْجَةِ الكُبْـــرَى؟

لَئِنْ خُتِمَتْ بِكَ الدّنْيَا　　لَقَدْ فُتِحَتْ بِكَ الأخْـــــرَى[2]

لقد اعتبر أهل نيسابور وفاة الصاحب نهاية الدنيا كما هي بداية الآخرة وأنهم سيذهبون في هذه الدنيا ويرغبون في الآخرة لأنهم سيلتقون بالصاحب فيها .

---

(١) فضّ الشيء:مزّقه

(٢)الثعالبي ، يتيمة الدهر، ج٣ ، ٢٦٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ز ــ الشريف الرضي [١]

يذكر زكي مبارك في كتابه (عبقرية الشريف الرضي) أنّ سبب المودة بين الصاحب والشريف الرضي هو بغض كل منهما لعضد الدولة لأن عضد الدولة سجن أبا الشريف الرضي، وكان يسعى لقتل الصاحب بن عباد في الخفاء . [٢]

إن غاية كل شاعر إيصال الفكرة في أوضح معنى وأعمق صورة والحال عند الشريف الرضي يظهر من مطلع قصيدته حيث يجعل السؤال الاستنكاري مقدمة لأبياته الأولى فيسوق الأمثلة سوقاً مبنياً نهاية كل شيء وهو بهذه الأمثلة التي جاء بها كأنه يقرر ذلك المصير الحتمي الذي حلّ به الصاحب ، فهو يقول :

أَكَذَا المَنُونُ يُقَطِّرُ الأَبْطَـــــالا؟ أَكَذا الزمَانُ يُضَعْضِعُ الأَجْيَالا ؟

أكَذا تُصابُ الأُسْدُ وهِيَ مُدِلّـــةٌ تَحْمِي الشُبولَ وتَمنَــعُ الأَغْيَالا ؟

أكَذا تُقامُ عَنْ الفَرائِسِ بَعْدَمـــا مُلأتْ هَمَاهِمُهَا الــوَرى أَوْجَالا ؟

أَكَذا تَحُطُّ الزَاهِراتُ عَنْ العُــلا مِن بَعْدِ مَا شَاقَ العُيــونَ مَنَالا ؟

أَكَذا تُكَبّ البُزلُ وهِيَ مصَاعِبٌ تَطَوي البَعيدَ وتَحْمِــلُ الأَثْقَالا ؟

أَكَذا تُغاضُ الزَاخِراتُ وقَدْ طَغَتْ لُجَجاً وأَوْرَدَتْ الظَمّاءُ زُلالا؟[٣]

والشريف الرضي بعد مقدمته هذه ينصرف إلى ذكر أفضال الصاحب مبتدئاً بأولئك الذين كانوا يقطعون المسافات البعيدة طلباً لفضله وعطائه فيخبرهم أنّ الصاحب قد مات وما من سبيل إليه ولا صاحب فضل سواه فإلى أين يسير بهم الركب ، وليس ذلك فحسب بل كان فضل

---

(١) الشريف الرضي أبو الحسن محمد بن طاهر ذي المناقب أبي أحمد الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن إبراهيم بن موسى الكاظم ، المعروف بالموسوي صاحب ديوان الشعر، ت (٤٠٦) هـ ، انظر وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص ٤١٤ .

(٢)زكي مبارك ، عبقرية الشريف الرضي ، ط١ ، مطبعة الجزيرة ــ بغداد ، ١٩٣٨ م ، ج١ ، ص ٩٢ .

(٣) ديوان الشريف الرضي ، شرحه وعلّق عليه وضبطه وقدّم له الدكتور محمود مصطفى حلاوي ،شركة دار الأرقم بيروت لبنان ،ط١ ،١٩٩٩م ــ ١٤١٩ هـ ،ج٢،ص ١٧٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصاحب يتعدى ذلك فهو من شجع السؤال بالارتحال إليه ، وهو من شجع الجند علـــى اقتحـــام الأهوال والثبات في المعركة .

والشاعر في قصيدته يعرض إلى نبأ وفاة الصاحب وهو بين المصدق والمكذب لهذا الخبر لكنه قد ثبت خبر وفاة الصاحب وبعد أن قضى شك الشاعر وأصبح خبر وفاة الـــصاحب يقينـــاً يتمنى لو طال شكه ودام ، فهو يقول :

يَـــا طَالِبَ المَعْروفِ حَلّقَ نَجْمُهُ حُطّ الحَمُولَ ، وعَطِّلِ الأَجْمَـــــالا

وأَقِم عَلى يَأسٍ ؛فَقَدْ ذَهبَ الـــذّي كَانَ الأَنامُ عَلى نِداهِ عَيـــــــــالا

مَنْ كَانَ يُقري الجَهلَ عِلماً ثَاقِبًا والنَقصَ فَضلاً ، والرَجاءُ نَـــوالا

وَيُجَبّنُ الشُجْعانَ دُونَ لِقائِـــــهِ يَومَ الوَغَى ويُشَجّعُ السُـــــؤّالا

خُلِعَ الرّدى ذَاكَ الرِداءُ نَفَاسَـــةً عَنّا ، وقلّصَ ذَلكَ السِربَـــــــالا[١]

خَبرٌ تَمخّضَ بِالأجِنّةِ ذِكْـــــرهُ قَبْلَ اليَقينِ وأَسلَفَ البَلْبَـــــــالا

حَتى إذَا جَلّى الظُنونَ يَقينُـــــهُ صَدَع القُلوبَ وأسقطَ الأَحْمَـــــالا

الشّكُ أَبردَ لِلْحَشَى فِي مِثْلِـــــهِ يَالَيتَ شَكّي فِيهِ دَامَ وَطَـــــــــالا[٢]

ويمضي الشريف الرضي في قصيدته في ذكر فضائل الصاحب وخلـــع الـــصور التـــي تتناسب وقدر الصاحب ومنزلته فتارةً يصفه بالجبل الذي أرسى كل شيء حوله وتـــارةً أخـــرى يصفه بالكوكب الذي فارق الدنيا وعاد إلى مداره أنفاً بها ورغبة في الخلود والمصيبة التي حلّت على الشاعر جرّاء فقد الصاحب أعظم مصيبة كما صورها هو ، والشاعر في ذلك يتسائل كيف استجاب الصاحب لنداء الموت حتى أننا نلاحظ اعتراضاً من الشاعر على وفاة الصاحب إذ كيف يموت مثله وهو الذي يأمر الأقدار ويسيرها ، يقول :

---

(١) الثوب ونحوه ، سمولاً وسمولة أخلق وبلى .

(٢) ديوان الشريف الرضي ،ج٢ ،ص١٧٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جَبَلٌ تَسَنّمتِ[١]البِلادُ هِضَابُـــــهُ حَتّى إذَا مَلأ الأقَالـــــــمُ زَالا

يَاطَوْدُ ،كَيفَ وأنتَ عَاديُّ الذّرى أَلْقَى بِجانِبِكَ الرَدَى زِلـــــزَالا ؟

مَاكُنْتَ أوّلَ كَوْكَبٍ تَركَ الدُّنـــا وسَما إلَى نُظَرائِهِ فَتَعالـــــــى

أنِفاً مِنَ الدُّنيَا بتَّتْ حِبالُهـــــــا وَنَزعَتْ عَنْكَ قَميصَهَا الأسْمَالا

لا رِزْءَ أَعظمُ مِنْ مُصابكَ ؛إنّهُ وَصَلَ الدُموعَ وقَطّعَ الأوْصَالا

إنْ قَطّعَ الآمَالَ مِنْكَ فإنّـــــــهُ مِنْ بَعْدِ يَومِكَ قَطَعَ الآمَـــــالا

يَا آمِرَ الأقْدارِ كَيفَ أَطَعْتَهـــــا أَومَا وَقَاكَ جَلالُكَ الآجَـــالا ؟[٢]

ولا يزال الشاعر يتمنى لو أن الأيام أقالت عثرة الصاحب كما كان يقيل عثرات النـــاس فيسندهم ويعينهم ،وهوكذلك يتحدث عن الموت وأنه لا يخطئ أحد فيصيب شريفهم كما يـــصيب أرذلهم فلا يفرق بين هذا وذاك ويقيم الشاعر لهذا الأمر صورة غاية في الجمال تأكيداً لما ذهب إليه ، فالدنيا لا تدوم على حال وتتقلب بأهلها وتبدل بالرجال رجالاً ، والـــصاحب فـــي نظـــر الشريف رجل قلّ نظيره فهو صاحب سيف وقلم وقد خاض غمرات الحروب كما خاض غمرات الجدال عن الدين فهو من نافح عنه في وجه أعدائه وهو من حبّر في الدفاع عن الدين صفحات وحجج كثيرة والصاحب لم يعزّ بملكه من أعزّ المُلك نفسه ، يقول :

هَلاّ أَقَالَتْكَ اللّيالِي عَثْـــــــــــرةً يَامَنْ إذَا عَثَـــرَ الزّمـــــــانُ أَقالا

وَأرى اللّيَالِي طَارحـــــــاتٍ حِبالَها تَسْتَوهِقُ [٣] الأعْيـــــــانَ والأرْذَالا

يَبرينَ عُودَ النّبعِ غَيـــــرَ فَوارقٍ بَينَ النّباتِ كَما بَرَينَ الضَـــــــالا

لا تَأمن الدّنيَا عَليـــــك؛فَإنّهـــا ذَاتَ البُعُـــولِ تُبدّلُ الأبْـــــــدَالا

---

(١) تسنمت :الشيء ارتفع على وجه الأرض

(٢) انظر المصدر السابق ، ج٢ ، ص ١٧٦ .

(٣) الوهق – محركة وبسكن- الحبل يرمى في أنشوطة فتؤخد به الدابة والإنسان ، واستوهق : صنع الوهق،وأراد هنا معنى اصطاد.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كَمْ حُجةٍ فِي الدّينِ خُضْتَ غِمارهَا هدْر الفنيق[١] تَخَمُطـــاً وَصَيـــالا

بِسنَانِ رُمحكَ أَو لِســـــــــانِكَ مُوسِعاً طَعناً يَشّقُ على العِدَى وَجِدَالا

إنْ نَكّسَ الإسْلامُ بَعدَكَ رَأسَـــــهُ فَلقــدْ رَزَى بِكَ موئلاً ومَـــــآلا

واهاً عَلى الأقْلامِ بَعدكَ إنّهـــــا لَم تَرْضَ بَعْدَ بَنَـــــــانِ كَفِّكَ آلا

أَفقَدنَ مِنْكَ شُجَاعَ كُـــلِّ بَلاغَـــةٍ إنْ قَالَ جَلّى فِي المَقَـــــالِ وَجَالا

مَنْ لَو يَشَأ طَعنَ العِدى بِرؤوسِهـــا وأَثَارَ مِـــــــنْ جَريانِهَا قِسْطَالا

سُلْطَانُ مُلْكٍ كُنتَ أَنْتَ تُعـــــزُّهُ ولَـــــــرُبَّ سُلطـانٍ أعَزّ رِجَالا [٢]

يأخذ الشاعر في قصيدته بالمقارنة بين الصاحب وغيره ويقيم وجهاً للمقارنـــة منهـــا أن الصاحب سعى للثناء لا لجمع الأموال وأن بعض الناس خزنة لأموالهم وحرّاسٌ عليها فلا ينفقون منها شيء والصاحب في هذا الأمر لا يعدله أحد في الدنيا ومن طلـــب مـــن الزمـــان رجـــلاً كالصاحب فقد كلف الزمان الشيء المستحيل فالصاحب قد حاز صفات الكمال كلها ولعل وفاتـــه وذهابه من هذه الدنيا هي التي لم تتح للصاحب أن يحوز صفات الكمال بأسرها ، فهو يقول :

إنَ المُشَمّرَ ذيْلُهُ لَكَ خِفْيَـــــــةً أَرخَى وَجرّرَ بَعـــــــدَكَ الأذْيَـــالا

طَلَبُوا التّرَاثَ فَلَـــم يَروا مِنْ بَعْدِهِ إلاّ عُـــلاً وفَضائـــــــلاً وجَـــــلالا

هَيْهَاتَ فَاتهُـــــمُ تُراثُ مُخَاطِرٍ جَمَعَ الثّناءَ وضَيّـــعَ الأمْـــــوالا

قَدْ كَانَ أَعْـــرَفَ بِالزمَانِ وَصَرْفِهِ مِنْ أَنْ يُثَمّرَ أو يُجمِّـــعَ مَـــــالا

مِفْتَاُح كُلّ نَـــدى ،ورُبّ مُعاشرٍ كَانُوا عَلى أمْوالِهـــــــم أَقْفـــــالا

كَانَ الغَريبةَ فِي الزّمَانِ فَأصبحُوا مِنْ بَعدِ غَارِب نَجمـــــــهِ أمْثَـــالا

مَـــــنْ فَاعـــلٌ مِن بَعدهِ كَفِعَالِهِ أو قَائلٌ مِن بَعْدِ مَـــــا قَـــــالا؟

(١) الفنيق من الإبل الفحل.

(٢) ديوان الشريف الرضي ،ج٢ ، ص ١٧٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سَمـــــــعٌ يَرْفَعُ لِلْسُؤالِ سُجوفَهَ [١] ويحْجِبُ الأهْـــــزاجَ والأرْمـــَالا

يَـــا طَالباً مِن ذَا الزّمـــــــانِ شَبيهَهُ هَيهاتَ!كَلّفتَ الزّمانَ مُحَـــالا

إنّ الزّمـــــــانَ أضنّ بَعدَ وَفاتِه مِنْ أنْ يُعيدَ لِمثلِـــــــــهِ أَشكَـالا

وأَرَى الكمَالَ جَنـــــى عَليهِ لأنّهُ غَرَضُ النَوائِبِ مَن أُعيـــرَ كَمَـالا

صَلّى الإلهُ عَليكَ مـــــن مُتَوسِلٍ بَعْدَ المَهادِ جَنـــــادِلاً ورِمَـــــالا

وبعد هذه الصور والأغراض التي قدّم لها الشاعر ينتقل في قصيدته إلى جانب آخر وهو الآثار المترتبة على وفاة الصاحب فيتسائل عن الخيول المعطلة والمفيدة التي كانت على زمن الصاحب أعزّ من ذلك ، وقد بُدّلت عن شكائمها قيوداً وحبالاً ويعرض لصورة أخرى هي صورة الرجال الذين طرحوا العمائم له إجلالاً ووقاراً له في حياته ،والرجال في هذا الأمر يمزقون جيوبهم ويعضون أناملهم وما يمزقون إلا عطايا الصاحب ومن يرد عليهم ما مزقوا ومن يأتيهم بعطاء كعطائه وقد ذهب الصاحب وذهب معه كل شيء فهو يقول :

كَسَـــفَ البلَى ذَاكَ الهِـلالُ المُجتَلى وَأَجَرّ ذَاكَ المِقْولَ الجـــــــوّالا

ورَأيـــــتُ كُلّ مَطِيةٍ قَـد بَدّلـتْ مِنْ بَعدِ يَومِكَ بِالزِمَامِ عِقـــــَالا

لِمَنِ الضَوَامِـرُ عُرّيَتْ أمْطَاؤهَـــــا حَولَ الخِيامَ تُنازِعُ الأطْـــــوَالا؟

بَدّلنَ مِنْ لِبْسِ الشّكيـمِ [٢] مَقـــاوِداً مَربوطةٌ ، وَمِنَ السُروجِ جَـــلالا

فُجِعَتْ بِمُنْصَلِـــتٍ يُعرّضُ لِلْقَنَـــا أَعْنَاقَها ويُحصّنُ الأكْفـــــــَالا

طَرَحَ الرّجالُ لَكَ العَمائِـــمَ حَسـرةً لِمَا رَأوْكَ تَسيرُ ، أو إجْـــــلالا

قَالُوا وقَدْ فُجئُوا بِنَعشِـــكَ سَائِـــراً مَنْ ميَّلَ الجَبلَ العَظيمَ فَمـــــالا؟

---

(١) السّجف : أحد الستيرن المقرونين بينهما فرجة ، جمعها أسجاف وسجوف

(٢) شكم الفرس ونحوه شكماً وضع الشكيمة في فمه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتَبَادَروا عَطّ [١] الجُيوبِ ، وعَاجَلوا عَضّ الأَنَامِلِ يمنة وشِمَـــــالا

مَا شَقّقوا إلا كُسَـــــاك ،وآلمُوا إلا أَنَامِلَ نِلْنَ مَنْكَ سِجـــــالا[٢]

مَنْ ذَا يَكونُ مُعوّضاً مَـــا مَزّقُوا ومُعوّلاً [٣] المُؤمل وثِمَـــالا ؟[٤]

فَرغَتْ أكفٌ مِنْ نوالِكَ بَعـــدَهَا وأَطَالَ عُظْمُ مُصابِكَ الأشْغَـــالا[٥]

وفي خاتمة القصيدة يتمنى الشريف الرضي أماني لا سبيل إلى تحقيقها وآمالاً قد خابت كان يسعى إلى تحقيقها فتمنى الشاعر لقاء الصاحب لينال من عطائه على أن رؤية الصاحب ولقائه أعظم فضل تمناه الشاعر وهو تمنى لو أوقف قلمه ولسانه على مدح الصاحب وذكر فضله لكن الشاعر قد صاغ من مصيبة فقد الصاحب درعاً يستقبل به الأيام وما تجيء به الخطوب والسعاة وهو بهذا الدرع يستطيع دفع هول الأيام وتشتيت صعابها ، فهو يقول :

أعْزِزْ عَليّ بِأنْ يُبدّلَ زائـــرٌ بَعْدَ التَهَلُلِ عَنْكَ اسْتِهْـــلالا !

أَو أنْ يُناديكَ الصَريخُ لِكُربـــةٍ حَشَدت ْعليهِ فَلا تُحيرُ مَقَـالا

قَدْ كُنتُ آمَـلُ أنْ أراكَ فَأجتَنِـي فَضْلاً إذَا غَيري جَنَى أفْضَالا

وأَفيـــدُ سَمعكَ منْطِقِي وفَضَائِلِي وتَفيدُنِي أيّامُكُ الإقْبَـــالا

وَأعدُّ مِنْكَ لِريبِ دَهْرِي جُنّـــةً تُثْنِي جُنودَ خُطُوبهِ فَـــلاّلاً

فطَواكَ دَهرُكَ طَيّ غَيرَ صَيانـــةٍ وَأعَادَ أعْلامَ العُلا أغْفَـــالا [٦]

---

(١) عطّ الثوب يعطه عطا أي شقه .

(٢) ومنه الحرب بينهم سجال : بينهم متداولة ، النصيب من الشيء سجال .

(٣) عوّل الرجل : اتّخذ عالة ورفع صوته بالبكاء والصياح ، وعليه اعتمد.

(٤) الثمال : الملجأ والملاذ .

(٥) ديوان الشريف الرضي ، ج٢،ص ١٨١،١٧٩،١٧٨ .

(٦) انظر المصدر السابق ،ج٢،ص١٨١ ، ١٨٢ . الأغفال :مفردها الغفل :من لا يرجى خيره ولا يخشى فقده .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا يفضل الشاعر في نهاية القصيدة عن ذكر موضع قبر الصاحب وهو في أعلى الري وهذه الإلتفاتة من الشاعر لطيفة حتى كأنّ الشاعر في قصيدته عرض لمختلف حياة الـصاحب وصولاً إلى قبره وهو في نهاية القصيدة يسأل الله له الرحمة وأن يمّن عليه بالمغفرة فهو موعظة حسنة للناس وكذلك كان في حياته ، فهو يقول :

قبرٌ بِأعلَى الريّ شُقّ ضَريحُـهُ لِأغرّ حَفّزَهُ الـــرّدى إعْجَالا

فَرعَاهُ مَنْ أرْعَى البَريّة سَيبَهُ[١] وَسَقَاهُ مَـــنْ أسْقَى بِهِ الآمَالا

إنْ يُمْسِ مَوعظةَ الأنَامِ فَطالَمَا أَمْسَـــى مُهَاباً للورَى ومُهَالا

لنُسلّي الدّنْيَا عَليهِ ؛ فَإنّهـــا نُزِعَتْ بِهِ الإحسانَ والإجْمَالا [٢]

رابعاً : صورة الصاحب بن عباد من خلال قصائد اقترح على أصـحابه مـن الشعراء نظمها ، وهي قصائد الديارات والبرذونيات والفيليات .

كان الصاحب بن عباد قد أمر بعض أصدقائه من الشعراء بأن ينظموا قصائد من إبداعهم وكانت هذه القصائد في وصف أشياء رأى الصاحب أنها أشياء عزيزة عليه وهي داره التي أمر ببنائها وبرذون أبي عيسى المنجم الذي فقده ، والفيل الذي حصل عليه في وقعة جرجان ، ومـا كان من هؤلاء الشعراء إلا أن استجابوا لأمر الصاحب بن عباد ونظموا قصائدهم حـسب مـا اقترح وأراد،وهذا دلالة على مدى حبهم له وتنفيذ ما يطلب ، وفيما يلي توضيح لهذه الصور من خلال ما سنعرضه من نماذج على كل وصف :

أ – الديارات

بنى الصاحب بن عباد داراً له ، ويمكننا القول إن هذه الدار ليست مخصـصة للـوزارة فحسب ، بل هي دارٌ للوزارة وعقد المجالس الأدبية ، ويقصدها من أراد عوناً أو كسب معرفـة

(١) الصريخ : المستغيث

(٢) ديوان الشريف الرضي ،ج٢،ص١٨٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أو طلب حاجة مالية منه ، ويبدو أن الذين قاموا ببنائها اهتموا بزخرفتها حسبما أراد الصاحب ، وفيما يلي عرض لأبرز القصائد التي نظمت في وصف هذه الدار :

١ – قصيدة أبي الحسن الجرجاني

لِيَهْنَ وَيَسعَدْ مَنْ بِهِ سَعُدَ الفَضْـــــلُ بِدارٍ هِيَ الدّنْيا ، وَسَائِـــــرُهَا فَضْلُ

تَولَّ لَهُ تَقديرُهَا رَحبٌ صَـــــــدْرُهُ عَلى قَدرِه ، والشّكــلُ يُعْجِبُهُ الشكلُ

بِنْيَةَ مَجْدٍ تَشْهَدُ الأرضُ أنّهـــــــا سَتُطوى ومَا حَــاذى السّماءَ لَهَا مِثلُ

تُكَلفُ أحْداقَ العُيونِ تَخاوُصـــــــاً إليهِ كَأنّ النّـــــــاسَ كُلُّهُمْ قَبـــــلُ

مَنارٌ لأبْصَارِ الرُّواة ، ورَبِّهـــــــا مَنَارٌ لآمَالِ العُفَـــاة إذَا ضَلـــــوّا

سَحَابٌ عَلا فَوقَ السَّحَابِ مُصَاعِداً وأُخْرَى بِأنْ يَعْلُو وأنْتَ لَهُ وَبـــــلُ[١]

وَقَد أسْبلَ [٢]الخَيريُّ كُمّيْ مُفَاخـــرٍ بِصَحنِ بِهِ لِلمُلكِ يَجْتَمِعُ الشّمـــــــلُ

كَمَا طَلَعَ النِّسْرُ المنيرُ مُصَفّقـــــاً جَنَاحَيهِ لَولا أنّ مَطْلَعَـــــــــهُ عَقلُ[٣]

في بداية هذه القصيدة يهنئ الجرجاني الصاحب بن عباد بهذه الدار ، ويصفها بأنهـــا دار فضل وسعادة ، وهي ذات شكل يجلب كل نظر إليها لما تتصف به من جمال ، كمـــا تتـــصف بالاتساع الذي يدل على رحابة صدر الصاحب بن عباد ،وبنائها يدل على المجد الذي يتحلى به، كما أنها دار تجذب طالب العلم والمعروف إليها ، ودارٌ يجتمع فيها أصحاب الرأي والعلم والفكر لتبادل المعرفة .

ثم يصف الشاعر هذه الدار بأنها دارٌ تثير الغيظ في قلوب الأعداء ، وهي دارٌ وإن علت وارتفعت في السماء ، فإنها لن تعلو على مكانة الصاحب بن عباد وشرفه ، وهـــي دارٌ تتميـــز

(١) وبل : المطر الشديد الضخم

(٢) أسبل : أسبلت السماء : أمطرت .

(٣) الثعالبي ، يتيمة الدهر ، ج٣،ص١٩٣،١٩٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بوجود الأمل والكرم في كلّ زاوية من زواياها ولا وجود للبخل فيها ، وهي تتميز عن باقي دور العراق بأنها دارٌ يسودها الأمن والعدل والسعادة والجود والكرم فهو يقول :

بَنيتَ عَلى هَامِ العُداةِ بَنِيّـــــــة ... تَمَكّنَ مِنْهَا فِـــــــي قُلوبهمُ الغِلُّ

ولَو كُنتَ تَرضَى هَامَهُمْ شَرفاً لَهَا ... أَتـــــوكَ بِهَا جَهْدَ المُقلّ ولَمْ يَألُ

ولَكِنْ أراهَا لَو هَمَمْتَ بِرَفْعِهَـــا ... أَبَـــى اللهُ أنْ تعلُو عَليكَ فَلَمْ تَعْلُ

تَحُجُّ لَها الآمَالُ مِنْ كُلّ وُجْهَـةٍ ... وَيُنحـرُ فِي حَافَاتهَا البُخلُ والمُحلُ

ومَا ضَرّهَا ألا تُقَابِلَ دِجْلَـــــةً ... وَفي حَافَتَيْهَا يَلتَقِي الفَيْضُ والهَطْلُ

تَجلّى لأطْرافِ العِراقِ سَعُودُها ... فَعَادَ إليهَا المُلكُ ، والأمْنُ ، والعَدلُ

كَذا السّعْدُ قَدْ أَلقَى عَليهَا شُعَاعَهُ ... فَلَيـسَ لِنَحْسٍ فِي مَطارحِهَا فِعْلُ[١]

وهي بكل هذا الوصف و الجمال كادت أن تتعدى وتفوق جمال كل مخلـوق وذلـك لأن الصاحب بن عباد كان مهتما ببناء هذه الدار ومنشغلا ببنائها حتى تبدو في أجمل صورة و أبها منظر ، وقد أبدع الجرجاني في وصفها ، وهذا دليل على حبه للصاحب وفخره به ، وكيـف لا وهو وزيره ومرجعه في كل شيء ، فهو يقول :

وقَالُوا : تَعدّى خَلْقَهُ فِي بِنَائِهَـا ... وكَانَ ومَا غَيْرَ النّوالِ بِهِ شُغـــلُ

فَقُلتُ : إذَا لَم يُلْهِهِ ذاكَ عَن نَدى ... فَمَاذا عَلى العَلْيَاءِ إنْ كَانَ لا يَخْـلُ

إذَا النّصْلُ لَمْ يُذْمِم نجَاراً وَشِيمَةً ... تَأنّقَ فِي غِمدٍ يُصَانُ بِهِ النّصْـــلُ

تَمَلُّ عَلى رَغْمِ الحَواسِدِ والعِدَى ... عَلاكَ ، وَعِشْ لِلْجُودِ مَا قَبُحَ البُخْلُ [٢]

(١) انظر المصدر السابق ، ج٣ ، ص ١٩٢ ، ١٩٣

(٢) الثعالبي ، يتيمة الدهر ،ج٣،ص١٩٢-١٩٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢- قصيدة أبي الحسن الغويري :

ومن القصائد التي نظمت في وصف دار الصاحب بن عباد قصيدة أبي الحسن الغــويري الذي اختار لهذا الوصف أجمل الألفاظ وأعذبها ، حيث قال :

دَارٌ غَدَتْ لِلْفَضْـــــــلِ دَارُهُ أفلاكٌ أَسْعَـــــدَهُ مَدَارُهُ

مِنْهَا المَحَامِـــــــدُ مُسْتَقَــاةٌ والمَحاسِـــــنُ مُسْتَعَارَه

شُرُفاتُهَا هَيْـــفُ[١] الخُصورِ لَها تَحاسيـــنٌ وشَـــاره

فَلِكُـــلّ طَرْفٍ نَحْوهَـــــا وَلِكُـــلّ جَارحَةٍ إشَــاره

وعَلى جَميعِ الدّورِ فِي الدّنيا تَقَلّدَـــتِ الإمـــــــَاره

فَتُرابُهَا مِسكٌ سَحيـــــــقٌ[٢] شَقّ بـــــَردَ اللّيــلِ فَارَه

لاتَهتَدي لِنُعوتٍ أَدنَاهَـــــا الفُحُـــولِ بَنُو عِمَـــارَه[٣]

إن الغويري يرى أن دار الصاحب بن عباد فضل وسعد ، وهي ذات محاسن وجمــال ، ويصف الغويري شرفات هذه الدار بالفتاة الهيفاء أي الدقيقة الخصر ، وذلك لدقة بناء هذه الدار وحسن معالمها وزخارفها ،وزيادة على ذلك فهي تتميز عن بقية الدور بحملها لقب الإمــارة أو الوزارة لأن الذي يسكنها ويتولى شؤونها هو الوزير بن عباد ، ووصفها يختلف عن وصف بقية الأبنية ،ولذلك فإن دار الصاحب في نظر الغويري دار مميزة ومختلفة عن غيرها لجمالها ودقتها وحسن منظرها .

---

(١) الهيفاء : الفتاة الدقيقة الخصر

(٢) السحيق : المسحوق

(٣) انظر المصدر السابق ،ج٣،ص١٩٢-١٩٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣- قصيدة أبي بكر الخوارزمي :

وها هو أبو بكر الخوارزمي يظهر مرة ثانية في هذا الوصف ، فنظم قصيدة في وصف دار الصاحب ، وبعد قارءتي لها وجدت أنها تحتوي على معانٍ ووصف لكل شيء موجود في الدار ، وهي مبينة لبعض صفات ابن عباد الجميلة حيث يقول :

أكُـــــلٌ بِنَاءٍ أَنتَ بَانيهِ مُعْجِزٌ ؟ بَنَيْتَ المَعالِي أمْ بَنَيْتَ المَنــازِلا

فَـــلا الإنْسُ تَبنِي مِثْلَهُنّ مَعَالِماً ولا الجّنُ تَبنِي مِثلهُـــنّ مَعاقِلا

كَنائسُ أضْحَتْ لِلْغَمامِ عَمَـــائِمًا عُلُواً ، وأَمسَتْ فِي الظّلامِ قَنَادِلا

رِحابٌ كَأَنْ قَد شَاكَلَتْ صَدْرَ رَبّها وبيضٌ كَأَنْ قَدْ نَازَعَتْهُ الشَمَائِــلا

وبَهوٌ تُباهِي الأرضَ مِنْهُ سَمَاءَهَا بِأوسَعَ مِنْهَا آخِـــــراً وأَوائــِلا [١]

فالخوارزمي يرى أن دار الصاحب لا مثيل لها في بنائهـا ، وزخرفتهـا ، وعلوهـا ، واتساعها الكبير الذي يشبه سعة صدر الصاحب لتلقي أي مشكلة تواجه أبناء مجتمعه ، ويصف في هذه القصيدة اتساع ساحات الدار من أولها إلى آخرها ، و روعة زخارف جدران صحنها ، وهو يشبهها بالوشم الذي يزين اليد ، ويشبه صفاء الماء في بركها بالنجوم اللامعة ، ولاننـسى الرياض والبساتين التي تحيط بدار الصاحب التي تعتبر جزءاً منها فهي تسرّ الناظر إليها لمـا تحتويه من أزهار وأشجار ، وداره ملجأ لطالبي العلم والمعـروف ، وهـو يـرى أن أخـلاق الصاحب بن عباد من سعة الصدر ، وصفاء النفس ، وإجابة طالبي المعروف والحاجـة ، قـد انعكست على شكل داره وزخرفتها .

(١) الثعالبي ، يتيمة الدهر ، ج٣ ،ص ١٩٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

البرذونيات :

لما نفق برذون أبي عيسى المنجم بأصبهان وكان أصدا (وهو أشقر يعلوه سواد) قد حمله الصاحب عليه وطالت صحبته له أوعز الصاحب إلى الندماء المقيمين في جملته أن يعزوا أبا عيسى ويرثوا أصداه فقال كل منهم قصيدة فريدة ، وقد اخترنا نماذج من هذه القصائد وفيما يلي توضيح لها .

أ – قصيدة أبي عيسى المنجم

نظم أبو عيسى المنجم قصيدة رثى بها برذونه وذكر صفاته الفائقة الحسن ، يقول في مطلع القصيدة:

لَقَدْ عَظَمَتْ عِنْدِي المُصيبَةُ فَي الأصْدا وَأبْدَتْ لِيَ اللّذاتُ مِن بَعْدِهِ صَدَا [١]

وبعد أن تحدث عن حزنه الشديد لفقد برذونه وما يتصف به من صفات ، ختم قصيدته بأبيات مدح فيها الصاحب قائلا :

جَوادٌ عَزيزٌ أنْ يَجُودَ بِمِثْلِهِ جَوادٌ، ومَنْ يَعْدى عَلَيْهِ إذَا اسْتَعْدَى

سُوى الصّاحِبُ المَأمُولُ للْجُودِ وَمَنْ كَفُهُ مِنْ صَيِّبٍ[٢] خَضِلٍ[٣] أنْدَى

أتَاحَ لَنَا الإحْسَانَ مِن كُلّ جَانبٍ فَحَصّلَ مِنّا الشُّكْرَ والنّشْرَ والحَمْدَا

لَهُ هِمّةٌ فوقَ السّمَاءِ مُقيمةٌ تُعَلّمُ مَنْ يَرْجوهُ أنْ يَطْلُبُ الرِّفْدا[٤]

فهذه الصفات الحسنة التي يتصف بها البرذون لا يجود بمثلها في نظر أبي عيسى إلا شخص جواد معطاء هو الصاحب بن عباد الذي يتصف بالسخاء الكبير وبالهمة العالية التي

---

(١)الثعالبي ، يتيمة الدهر ، ج٣ ، ص ١١ .

(٢) الصيب : السحاب ذو الصوب والمطر .

(٣) خضل : خضل خضلا : ندى وابتّل . ونعم فهو خضل .

(٤) انظر المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٢١١-٢١٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تتجاوز في سحوقها السماء وهي الهمة التي تغري طلاب الرفد أن يستعطوا منه وأن يقصدوه ، وهو مقابل ما يسبغه عليهم من إحسان وجود ينال منهم الشكر والثناء والمدح .

ب – أرجوزة أبي دُلَف الخزرجي :

وهذا أبو دُلَف ينظم أرجوزة في رثاء البرذون استجابة لطلب الصاحب ، تحدث في مطلعها عن الدهر وما يحدثه في الناس من رزايا ، وأسهب بعدها في الحديث عن صفات البرذون الحسنة ، يقول في مطلعها :

دَهْرٌ عَلى أبْنَائِهِ وتّـابُ تُعْجِمُهُمْ أنْيَابُهُ الصّلاب

فمَا لَهُم مِنْ كَيدِهِ حِجَابُ يَالكَ دَهْراً كُلُّهُ عِقَاب [١]

بَعد ذلك يبين في نهاية أرجوزته أثر الصاحب بن عباد في تخفيف مصيبة فقد البرذون عن أبي عيسى بما يتحلى به من شيم ، قائلا :

والرّأيُ فِي دَفعِ الرّدَى صوَاب فَاسْكُنْ فَهَذا الصَّاحِبُ الوَهَّابُ

شِيمَتُهُ السَّخَاءُ والإيجَـــــابْ فِي جُودِهِ وفَضْلِهِ مَنـــــابُ

آلاؤُهُ لَيْسَ بِهَا ارتِيَـــــــابٌ يَضَلُّ فِي إحْصَائِهَا الحِسَـابُ

لا زَالَ والدُّعاءُ يُسْتَجَـــــاب يَبْقَى لَنَا مَا بَقِـــــي التُّراب[٢]

فالصاحب في نظره سخي معطاء ، وأفضاله على الآخرين لا حصر لها ولا شك فيهـا ، ثم يدعو له بطول البقاء لتبقى أفضاله مستمرة .

---

(١)الثعالبي ، يتيمة الدهر ،ج٣ ،ص٢٠٧ .

(٢) انظر المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٢٠٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ج – قصيدة أبي الحسن السلامي :

واستجاب السلامي أيضا لطلب الصاحب بن عباد فنظم قصيدة في رثاء البرذون واصفاً فيها ما يتحلى به البرذون من شجاعة وإقدام في الحروب ، ومدى حزن عيسى وأصدقائه على موت البرذون ، يقول فيها :

ألا نَفَقَ الجَوادُ فَلا عُجَاجٌ [١] تَقُومُ بِهِ الحُرُوبُ ولا ضِرامُ

وكَانَ إذَا طَغَتْ حَربٌ عَوَانٌ جَرَى وَرسيلُهُ [٢] المَوتُ الزُؤامُ [٣]

وفي نهاية القصيدة يوجه السلامي خطاباً لأبي عيسى طالباً منه الصبر على فقد برذونه لأن الموت قدر لا مفر منه ، وأن ينسى حزنه ويتنعم بالإقامة في ظل الصاحب بن عباد فعنده سيهنأ بالسلامة والأمان ، فبرأي الشاعر أن وجود الصاحب هو الأهم وإن هلك الدهر والأنام، وفي البيت الأخير يقول السلامي إنه قد وعظ أبا عيسى أن يبقى في كنف الصاحب ، وأدى الأمانة التي كلّف بها بنظم قصيدة في رثاء البرذون ، يقول :

أبَا عِيسَى ، تَعَزّ – فَدتْكَ نَفْسِي فَإنَّ المَوتَ قَرْنٌ لا يُضَامُ

أقِمْ فِي ظِلّ إسْمَاعِيلَ تَضْمَنْ لَكَ الدّرْكَ السَلامَةَ والدّوَامُ

إذَا بَقِيَ الوَزيرُ لَنَا وَفينَا فَقُلْ لِلْدّهْرِ يَهْلَكْ والأنَامُ

وعَظْتُ بها أخاً ، وَرثيْتُ مَالاً وَأَديتُ الأمَانَةَ والسّلامُ [٤]

---

(١) العجاج : الغبار والدخان ورعاع الناس وغوغاؤهم وواحده عجاجة .

(٢) رسيله : الرّسيل : الرسول والمُراسل .

(٣)انظر المصدر السابق،ج٣ ، ص ٢٠٢ .

(٤)الثعالبي ، يتيمة الدهر ، ج٣ ، ص ٢٠٣ – ٢٠٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفيليات :

كان الصاحب بن عباد بعد وقعة جرجان قد وقع على فيل أعجب به فطلب إلى بعض الشعراء أن ينظموا فيه قصائد على قافية قصيدة عمرو بن معد يكرب الزبيدي ووزنها وهي القصيدة التي يقول في مطلعها :

ليسَ الجَمَالُ بِمِئْزرٍ فَاعْلَمْ وإنْ رُديتَ بُرْدا

إنَّ الجَمالَ مَعادنٌ وَمناقبٌ أورثْنَ مَجْداً

أعَدَدْتُ لِلحدَثَانِ سَابغةً وَعدّاءً عَلَنْدِي

نَهْدَا وذَا شَطْبٌ يُقدّمُ البيضَ والأبدانَ قَدّا

وعَلمتُ أنّي يَومَ ذاكَ مَنازلٌ كَعباً ونَهْدَا [١]

فكان أن نظم أبو الحسن الجوهري قصيدة قال فيها :

قُلْ لِلْوَزيرِ وقَدْ تَبدّى يَسْتَعرِضُ الكَرَمَ المُعَدّا

أفْنيتَ أسْبابَ العُلا حَتّى أَبتْ أنْ تَسْتَجِدَا

لَو مَسّ رَاحَتَكَ السّحَابَ لأمْطَرتْ كَرَماً ومَجْداً

لَم تَرْضَ بِالخَيْلِ التّي شُدّتْ إلى العَلْيَاء شَدا

وَصرائِمِ الرّأيِ التي كَانَتْ عَلى الأعْداءِ جُنْدا

حَتىّ دَعَوتَ إلى العِدَى مَنْ لا يُلامُ إذَا تَعدّى [٢]

(١) ديوان عمرو بن معد يكرب الزبيدي ، صنعه هاشم الطعان ،وزارة الثقافة والإعلام ، مديرية الثقافة العامة ، ص ٦٧-٦٨ .

(٢) الثعالبي ، يتيمة الدهر ، ج٣ ، ص ٢١٤ – ٢١٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يبتدء الشاعر قصيدته التي وصف فيها الفيل الذي حصل عليه الصاحب بمدح الـصاحب بن عبّاد ووصف كرمه وجوده ، والصاحب في نظر الشاعر قد أفنى كل الفضائل والمكارم حتى لم يعد هناك فضائل جديدة يمكن أن يتصف بها .

وكذلك عبد الصمد بن بابك وصف هذا الفيل كما طلب الصاحب بن عباد ،وصفاً جمـيلاً ودقيقاً بقصيدة قال فيها :

فَكَأنّمَا نَسجَـــتْ عَلَيَـــــ ـــهِ يَدُ الغَمامِ الجَون[١] جِلْدَا

وإذَا لوَتْكَ صِفاتـــــــــهُ أعْطاكَ مَسّ الرَوع فَقْـــدَا

فَكأنّ معْصَمَ غَـــــــادَةٍ فِي مَاضِغَيْهِ [٢]إذَا تَصـــدَّى

وكَأنّ عُوداً عَاطِـــــــلاً فِي صَفْحَتَـــهِ إذَا تَبـــدّى

يَحْدو قَوائِمَ أرْبَعـــــــاً يَتْرُكنَ بالتلَعاتِ[٣] وَهـــدَا [٤]

وفي نهاية قصيدته يمدح الصاحب بن عبّاد بقوله :

مَلِكٌ رَأى الإحْسَانَ مِـنْ عُدَدِ العَواقِبِ فَاستَعـــــدّا

كَافي الكُفاةِ إذَا انْثنـــتْ مُقَلُ القَنا الخَطّـــيّ رَمْـدا

تَكسُوهُ نشْرَ العُـــــرفِ مِنْ جُفونِ الطـــلّ [٥]أنْدَى

لا زِلْتَ يَا أمَلَ العُفـــاَ ةِ لِفَارِطِ الآمَـــــالِ وِرْدَا

والقَ اللَيَالِي لابِســـــاً عَيشاً بَرُود الظّـــلِّ رَغْدَا [٦]

---

(١)الجون : الأسود .

(٢) الماضغ : أصل اللحى عند منبت الأضراس .

(٣) التّلعة:ما ارتفع من الأرض ، ومسيل الماء من أعلى إلى أسفل ،وما اتسع من فم الوادي .

(٤) الثعالبي ،يتيمة الدهر ،ج٣ ،ص ٢١٤ ، وهدا : الوهدةُ : الأرض المنخفضة .(ج) وهدٌ ، ووهاد .

(٥) الطلّ : المطر الخفيف يكون له أثر قليل.

(٦) انظر المصدر السابق ، ج٣،ص٢١٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يصف الشاعر الصاحب بن عبّاد بالملك الذي رأى الإحسان من عاقبة الأمور فاستعدّ لـــه بما اتصفّ به من صفات الكرم والجود حتى غدا أمل الفقراء والمساكين يردون إليه مـــن كـــل مكان طمعاً في كرمه وجوده كما يَرِد العطشى إلى مورد الماء العذب ، فاستحق بذلك أن يحيـــا حياة هادئة هانئة و يعيش عيشاً رغدا .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الاستنتاجات :

تناول هذا الفصل الحديث عن رأي الشعراء في الصاحب بن عبّاد من خلال القصائد التي نظموها ، وتنوعت قصائدهم بين مدح وهجاء ورثاء ، وقد وضحنا آراء هؤلاء الشعراء من خلال عرض نماذج على كل غرض من خلال قصائد الوصف التي اقترح الصاحب نظمها على أصدقائه من الشعراء في وصف داره ، ورثاء برذون أبي عيسى والفيل الذي حصل عليه في واقعة جرجان ،وقد تبين لنا من خلال القصائد مايلي :

١- تختلف صورة الصاحب بن عباد في نظر الشعراء باختلاف الغرض المستخدم في قصائدهم ، فمن خلال غرض المدح يتبين لنا أن ابن عباد في نظر شعراء المدح ، وزير ذو أخلاق كريمة ، وأنه كان مأنوساً من أصدقائه .

٢- يظهر من خلال قصائد الهجاء أن شعراء الهجاء يعدون الصاحب بن عباد شخصاً بخيلاً ولئيماً ومتكبراً ،لأنه يعتلي منصباً مهماً في الدولة والمجتمع.

٣- أما صورة الصاحب من خلال ما نظمه شعراء الرثاء فيه ، فتتلخص بأن الصاحب كان مهماً في حياة هؤلاء الشعراء والكتّاب ، وكذلك الصغار والكبار والشباب والشيوخ ، وقد أثرت وفاته كثيراً على نفوسهم وحياتهم من بعده ، فهم يعدون موته موتاً لكل شيء في حياتهم، وقد استطاع الصاحب أن يؤثر على أبناء مجتمعه ، ويكسب محبتهم وثقتهم.

٤- إنّ نظم الشعراء لقصائد الديارات ، والبرذونيات ، والفيليات ، يبين مدى استجابتهم لتنفيذ أوامر الصاحب بن عبّاد ومدى انتمائهم له ، وإخلاصهم في محبتهم له ، وطاعة أمره كما وضحنا سابقاً.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٥- يتبين من خلال ما عُرض من آراء للكتاب والشعراء في الصاحب بن عباد في الفصلين السابقين ، أن الفريقين يتفقان في وصف الصاحب بن عباد بصفات الكرم ، والجـــود ، وحسن التصرف في الأمور السياسية والاجتماعية ، والتشجيع على الأدب ، واكتـــساب المعرفة في شتى المجالات الحياتية ، والعلمية ، وقد اعتبروه صديقاً مميزاً ثم اختلفـــوا في وصف سلبياته ، فقد ركّز الكتّاب على وصفه بالجنون والرقاعة ، والغرور بنفسه ، والتكبر أمام الآخرين ، والاشتمال على كلّ الرذائل.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصـــل الثالـــث

دراســـــــة فنيـــــــة

لقد تناولنا في الفصلين السابقين النصوص النثرية والشعرية التي توضـــح آراء الكتّـــاب والشعراء في الصاحب بن عباد ، وسوف نتناول في هذا الفصل دراسة فنية لهذه النصوص .

أولاً : النصوص النثرية .

١- في نثر أبي حيان التوحيدي .

لقد وضّح التوحيدي رأيه بالصاحب بن عباد من خلال كتابين هما (مثالـــب الـــوزيرين ، والإمتاع والمؤانسة) وتعتبر لغة التوحيدي في هذين الكتابين قوية ، وألفاظها جزلة ولكنّها صعبة في بعض الأحيان ، فمن الأمثلة على هذه الألفاظ في كتاب (مثالب الـــوزيرين) ، الـــضلاس ، اللجم ، شنار ، شين ، فيحك ، ويمكننا القول: إنّ لغة التوحيدي كانت حادة ، حتى في نقل آراء غيره من الكتّاب ؛ وذلك لأنه تحدث عن مساوئ ابن عبّاد أكثر مـــن محاســـنه ، وقـــد أكثـــر التوحيدي من استخدام السجع في هذا الكتاب ، وهي السمة الغالبة على كتابته ، ويـــدل ســـجعه على مدى مبالغته فيما يروي ومن الأمثلة على سجعه ، والغالب عليه اتصافه بالقصر :

الحَمْدُ للهِ الذي أعَادَ الشَعْبَ مُلتئِماً ، والشَملَ مُنتظِماً ، والقُلوبَ وادِعَة ، والأهْواءَ جَامِعَة ، حَمْداً يَتّصِلُ بِالمَزيد ، عَلى عَادَةِ السّادةِ مَعِ العَبيد ، عِندَ كُلّ قَريبٍ وبَعيد .

كَانَ مَع ذلكَ سَفّاكاً للدِمَاء ، قتّالاً لِلنُظَراء .

كَانَ شَديدَ الحَسدِ لأهْلِ الفَضْلِ والدِرَاية ، ولأصحَابِ الحِفْظِ والرِوايَة .

اطّربَ كأنهُ نَار ، والتَهَبَ كأنّه شَرار .

ولَولا أنّهُ كانَ يُفسِدُ هَذِهِ الأفْعال بالرَقاعَةِ والتّخيل ، والعَجَبِ والتَطاوُل .

وأحْسدَهُم لِلنَظِير ، ولِمَنْ دُونِ النَظير ، وأسْعَاهُم بِالفَسادِ عَلى الصّغيرِ والكَبير .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويقول إحسان عباس عن أسلوب أبي حيان التوحيدي :

"وقد أخذ التوحيدي نفسه – كما أخذ ابن العميد نفسه – ببناء التعبير على الازدواج تقليداً للجاحظ ، غير أن هذا الازدواج عند أبي حيان التوحيدي كان أغنى وأحفل بالموسيقى ، وأوفر سجعاً من الازدواج عند الجاحظ ، لأن طبيعة القرن الرابع كانت تفرض على التوحيدي الاهتمام بالجرس والنغمة ، بينما كان تعصبه للجاحظ يقوّي عنده الاهتمام بالفكرة . ولذلك نستطيع أن نجد في نثر التوحيدي قوة لا نلمسها في نثر أستاذه ، مستمدة من حدة الانفعال والاندفاع عنده ".

كما "أن أبَا حيّان كَانَ يَنقَادُ لِطبيعةِ عَصرْهِ مَع تَقَدّمِهِ فِي السّن ، فَيَقلِب عَلى الاسْتِكْثار مِن الأَسجَاعِ في إنْشائِه بَالتدريج ، وهُو عَلى أيّ حَال أكثَر سَجَعاً مِن الجَاحِظ ، وأقلّ مِن الصّاحب وابن العَميدِ وبديعِ الزّمَانِ والخوارزمِي "[١]

ويقول محمود إبراهيم عن التوحيدي :

"وقُدرةُ التّوحيدي عَلى الوَصْفِ عَجيبة مُتنوعَة مُتَشَعبَة ، تَتَناولُ المَحْسُوسَ والمَعْقُول ، والكَبيرِ الضَخْم ، والدّقيقِ الخَفِي ، والشَائِعِ المَعروف ، والجَديدِ غيرِ المَألوف ، والنَظري والعَمَلي مِن شُؤون الحَياة ، والطَبائِعُ والأحْوالِ المُرتبِطَة بِمعايِشِ النّاس . ولقَد يُخَيّلُ لِلْمرءِ وهُو يَقرأُ أوصَاف التَوحيدي ، إنّ الرَجُل قَادِرٌ لا عَلى أنْ يَتَغلغلَ فِي النُفوسِ والأجْساد فَحَسْب ، فَيَعْرِفُ دَخائِلها بَل عَلى أنْ يَغوصَ بِتَصَوراتِه فِي الأفكارِ والأشيَاء كَذلِك ، ثم تَختارَ لِهذِهِ كُلهَا مِن وَسَائِل الوَصفِ والتَعبير ، مَالهُ مِن القُدرةِ عَلى مُحاكاةِ الحَال ، ما لَيسَ لِغيرِه "[٢] ، ويتبن هذا في قوله : "هُوَ يُكذّبُ نَفسهُ بِحُسنِ الظّنِ فِي البَلاغَة ، وطِبَاعُهُ تَصْدُق عَنْهُ بِالتَخلّف ، فَهو يُشينُ اللّفظ ويُحيلُ المَعنَى ، فَأمّا شَينُه اللّفظَ فبالجَفوةِ والغِلْظَةِ والإخْلالِ والفَجَاجَة ، وأمّا إحالتُه فبالإبعاد عن حومة القصد والإرادة ، و العجب أنه يحفظ الطم والرم من النثر والنظم ؛ ثم إذا

(١) إحسان عباس ، أبو حيان التوحيدي ، دار بيروت ، بيروت ، ١٩٥٦ ، ص ١٣٨ ، ١٤٥ .

(٢) محمود إبراهيم ، أبو حيان التوحيدي في قضايا الإنسان واللغة والعلوم ، الدار المتحدة للنشر ، ص ٨٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ادّعاهما يقع دونهما سقوطا، أن يتجاوزهما فروطاً ؛ هذا مع الكبر الممقوت والتشيّع الظاهر والدعوى العارية من البينة العادلة "[١]

كما يقول إحسان عباس عن أبي حيان التوحيدي : "وكلّ من يدرس أبا حيان في طريقته الفنية يراه محتذيا طريقة أستاذه الجاحظ ، وقد أصبحت هذه الحقيقة إحدى القضايا المُسلمة التي لا يحتاج برهانا جديدا ، لكنها يجب ألا تحجب عن أنظارنا تفرد أبي حيان في أسلوبه "[٢]

ونلاحظ كثرة استخدام التوحيدي المحسنات اللفظية ، مثل الطباق كما في قوله :

سهل عليّ أن أقول : لم يكن في الأولين والآخرين مثلهما ، ولا يكون إلى يوم القيامة من يعشرهما ، اصطناعا للنّاس ، و حُلما على الجهال ، وقياما بالثواب والعقاب .

وقوله :

وأنهما كانا بالسياسة عالِميْن ، ولأولياء نعمهما ناصحين ، وإلى الصغير والكبير متحببين، وعلى القاصي والداني حَدّبَيْن .

وقوله :

ولي معك ، إن شاء الله نهار له ذيل ، وليل يتبعه ليل .

بعيد الفَيْئَة قريب الطِّيرة .

وقوله :

وذلك بأن يقال : مولانا يتقدّم بأن أُعَار شيئاً من كلامه و رسائل منثوره ومنظومه .

وقوله :

واحتجاجه من ابتدائها إلى انتهائها برهان فوق برهان .

---

(١) التوحيدي ، الإمتاع والمؤانسة ، ط١ ، ج١ ، ص ٤٠ .

(٢) انظر المصدر السابق ، ١٩٥٦ ، ص ١٣٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالكلمات التي ورد فيها الطباق : الأولين الآخـــرين ، الثـــواب العقـــاب ، الـــصغير الكبير، القاصي الداني ، نهار ليل ، بعيد قريب ، منثوره منظومه،ابتدائها انتهائها .

ومن المحسنات اللفظية التي وردت أيضاً الجناس ، الذي كان أغلبه ناقصاً ، و يظهر هذا في قوله :

يقول الشعر وليس بذاك ، وفي بديهته غزارة ، وأمّا رويّته فخوّارة .

وقوله :

أمّا الكتاب والمتصرفون فيخافون سطوته ، وأمّا المنتجعون فيخافون جفوته .

وقوله :

وهو مع هذا يخدعه الصبي ، ويخلبه الغبي .

وقوله :

ولئن كان ظنّ أنّ ما يصل إليّ من ماله ضائع ، إني لأيقن الآن أنّ ما يتّصل بعرضه من قولي شائع .

وقوله :

وأنّ العميد وإن كان مُقدّماً في الكتابة ، فقد كان الأمين مُعظّماً في الدّيانة .

وقوله :

ونحن نحيس لك الحيس ، ونصفك بالبابة والكيس .

فالكلمات التي ورد فيها الجناس الناقص : غزارة خوارة ، سطوته جفوتـــه ، الـــصبي الغبي، ضائع شائع ، مقدّما معظما ، الحيس الكيس .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما نلاحظ استخدامه للمشتقات التي لعبت دورها في كتابته مثل صيغ المبالغة كما في قوله :

كان مع ذلك سفّاكا للدماء ، قتّالا للنظراء والأكفّاء .

وقوله :

وكان جل حسده لمن كتب فأحسن الخطّ ، وأجاد اللّفظ ، وتأتّى للرسم ، وملّحَ في الاستعارة .

والصفة المشبهة في قوله :

وكان إذا سمع من إنسان كلاما منظوما ، ومعنى قويما ، ولفظا مسجوعا ، ونثراً مطبوعا ، وبياناً بليغاً ، وغرضا حكيما .

وقوله :

والذي ينبغي أن يُهجر رأساً ، ويُرغب عنه جملة في التّكلف و الإغراق ، واستعمال الغريب والعويص .

وقوله :

شديد العقاب : طفيف الثّواب : طويل العتاب ، بذيء اللّسان .

واسم التفضيل كما في قوله :

وأوقحهم وجها مع كل انسان ، وأحدّهم لسانا بكل خنى و فُحش ، وأحسدهم لنظير ، ولمن دون النّظير ، وأسعاهم بالفساد على الصغير والكبير ، وأخطبهم على الدّين ، وأضرهم للمسلمين ، وأفجرهم من بين العالمين .

واسم الفاعل كما في قوله :

ولأموالهما باذلين ، ولأعراضهما صائنين .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واسم المفعول كما في قوله :

وكان إذا سمع من إنسان كلاما منظوما ، ومعنى قويما ولفظا مسجوعا .

والتوحيدي يكثر من استخدام السجع ، وإكثاره هذا يدلّ على اهتمامه بجذب القارئ ، فهو يهتم بشكل الألفاظ أكثر من مضمونها ، ونجده يبالغ كثيراً في ذكر المساوئ الموجودة في شخصية الصاحب بن عباد وكأنه يجرد الصاحب من كل فضيلة ، كما اتبع التوحيدي الأسلوب الإخباري في كتابته أكثر من الأسلوب الإنشائي .

وقد لجأ التوحيدي في كتاب (مثالب الوزيرين) إلى سرد المواقف التي تبين معاملة الصاحب بن عباد مع غيره من الأشخاص ، ومن أمثلة ذلك سرده للكلام الذي وجّهه الصاحب لبعض الكتاب عندما قابلهم واجتمع بهم في ساوة ، مثل : أبي طاهر الحنفي ، وابن القطان القزويني، وأبي محمد ، وأبي القاسم الزعفراني ، وغيرهم ، كما أنه وضّح على كل عيب أو خلق حسن ذكره في الصاحب بن عباد بأمثلة ، وذلك عندما ذكره في حديثه عن صفاته وصفات ابن العميد ، وعندما تحدث عن ولوع ابن عباد بالسجع ، واستحقاره للناس ، واستهزائه بأشكالهم.

نلاحظ في كتابة التوحيدي عن الصاحب بن عباد تلك النزعة التصويرية الساخرة التي يصف فيها الصاحب بصورة ساخرة مستخدما ألواناً من المحسنات البديعية من جناس وطباق وسجع مما يضفي على النص جرساً موسيقياً ، ويتضح هذا عندما تحدث التوحيدي واصفاً الصاحب ، قائلاً :

"وهو في كل ذلك يتشاكى ويتحايل ، ويلوي شدقه ،ويبتلع ريقه ، ويردّ كالآخذ ، ويأخذ كالممتنع : ويغضب في عرض الرّضا ، ويرضى في لبوس الغضب ، ويتهالك ويتمالك ، ويتقابل ويتمايل ، ويحاكي المومسات ، ويخرج في أصحاب السماجات ، ومع هذا كله يظن أن

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذا خاف على نقّاد الأخلاق وجهابذة الأحوال،والذين فرّغهم الله لتتبع الأمور ، واستخراج مافي الصدور ،واعتبار الأسباب ".

كما تَبينَ من كتابة التوحيدي اختلاقه للحكايات المغرضة عن الصاحب التي لا يُعرف مدى صحتها ، ونجد هذا في قوله :

"ومن أحاديثه السّخيفة التي يتنزه عنها الرؤساء قال : قال عبادة:اختصم الحِر والجُحْر في الجلدة التي بينهما ، فكان كلٌّ يدّعيها فتقدّما إلى الأكبر فقال :ليست لأحدكما ، قالا :فلمن هي؟قال: هي لي إذا دخلت حططت عليها رَحلي ،وإذا خرجت استرحت عندها من كربي ".

ومن الحكايات التي اختلقها أيضا، قوله :

"خرج يوماً من دار مؤيد الدولة من باب غامض هربا من قوم كانوا يرقبونه على الباب المشهور من السحر الأعلى ، وهو وحده بين يديه رِكابي ، فعرفته عجوز فقامت في وجهه ودعت له ، ومدّت يدها بقَصَةٍ معها ، فقال ما تريدين يا بظراء ،يا بخراء ،ياعفلاء ،يا فقماء،على هذا إلى أن تباعد ، فبقيت العجوز مبهوتة و قالت :مسكين هذا الرّجل قد جن ،فقلت لبعض أصحابه :ماهذا الندل والفحش والخِفة والطَيْش؟فقال :هذا دأبه إذا جاع ! فقلت :أجاع الله كبده وسلبه نعمته "

٢- في نثر أبي قاسم الزعفراني

بين الزعفراني رأيه في الصاحب بن عباد مستخدما لغة قوية،وألفاظا سهلة ومألوفة لدى القارئ ،كما وازن بين جمله كما يَظْهر في قوله :

"سفهه ينفي حِكمة خالقه ،وغناه يدعو إلى الكفر برازقه ،كأنه خلق عَبثا ،مما ملئ خُبثاً"

ونلاحظ كثرة استخدامه للصفة المشبهة التي جاءت على وزن فَعِيل ،كما في قوله :

"وجدته كليل الكرم ،حاد اللؤم ،رقيع الظاهر ،مريب الباطن"

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالكلمات التي وردت فيها الصفة المشبهة : كليل ، رقيع ،مريب .

كما نلاحظ قلة استخدامه للمحسنات اللفظية كالطباق والجناس ،فقد ورد الطباق في قوله :

"رقيع الظاهر ،مريب الباطن "

وقوله :

"قد قلبت أمري ظهراً لبطن"

والجناس كما في قوله :

"كأنه خلق عَبَثا ، مما ملئ خُبثاً"

كما ركّز الزعفراني في كتابته على مضمون الجمل أكثر من شكل ألفاظها واعتدل في سجعه القصير ،كما اتبع في كتابته القصر والإيجاز ، ومثّل على ما يقول بأبيات من الشعر ، ومن المحسنات البديعية التي استخدمها التشبيه ، كما في قوله :

والـــــــرزق كالوسمي رُبْتَما عدا روض القطا وسقى مهامه جلق

حيث شبه الرزق بالمطر الذي يسقط في فصل الربيع ليجعل الأرض أكثر جمالا كذلك الرزق يأتي لكل انسان حسبما قسم الله له .

٣- في نثر المسيني

عبّر المسيني عن رأيه بلغة قوية ، وألفاظ جزلة ،وجمل واضحة ،ونثره مليء بالسجعات القصيرة والعبارات التي تحدث نوعا من الجرس الموسقي ، كما في قوله :

"وليس له في الكرم دلالة ولا في الإحسان إلى الأحرار آلة .فسبحان من خلقه غيظاً لأهل الفضل والأدب ،وأعطاه فيضاً من المال والنّشب"

كما وازن بين الشكل والمضمون ،وتسلسل في أفكاره .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما نلاحظ اعتداله في استخدام المحسنات اللفظية من جناس وطباق ، ومن الأمثلة عليها قوله:

"لا ينزع عن المساوئ إلا مللاً ، ولا يأتي الخير إلا كسلا ، ظـــاهره ضـــلالة ،وباطنـــه جهالة".

فالكلمات التي ورد فيها الطباق : ظاهرة باطنة ، والتي ورد فيها الجناس : مللاً كسلاً ، ضلالة جهالة .

٤-في نثر أبي الطيب النصراني :

عرض النصراني رأيه بلغة قوية ، وألفاظ جَزِلة ، وجمل متوازنة ، كما يظهر في قوله :

"وقل ما شِئْت ، وانصر ما أرَدْت"

وقوله :

"رَدعَهُ وحَاجّهُ ، ورَاجعَهُ وضَايَقَهُ ، وسَاكَعَهُ"

ويغلب على كتابته استخدامه للسجع القصير كغيره ممن ذكرنا ، ومن أمثلته :

"لو بُحتُ بما في نفسي من حديث هذا المأبون لتصدع الجبل ، ولتقلع الجَندل"

وقوله :

"فلستَ تجد عندنا إلا الإنصاف والإسعاف والإتحاف والإطراف ، والمقاربة والمواهبـــة ، والمؤانسة والمقابسة"

وقوله :

"واستحصدَ غَضباً ، وتلظّى لهبا"

وقوله :

"وما خلق الله العصا باطلا ولا ترك خَلْقَهُ هاملا "

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما اشتمل رأيه على الكثير من الجناس الناقص ، كما في قوله :

"ولا يهولك هذا الحشم والخدم ، وهذه الغاشية والحاشية ، وهذه المرتبة والمِسطبة ، وهذا الطاق والرواق ، وهذه المجالس والطَنافس"

وقوله :

"ووضع يده على النُكتَةِ الفاصلة ، والأمر القاطع ، تنمر له وتنغّر عليه"

وقوله :

"فإنه معاند ضد ، يحتاج إلى أن يشد بالقّد ، ساقط ،هابط ، كلب نبّاح ، متعجرف وقّاح"

فالكلمات التي ورد فيها الجناس : الغاشية الحاشية ، الطاق الرواق ، المجالس الطنافس، تنمر تنغر ، ضد قد ، ساقط هابط ، نباح وقاح .

ويظهر في نثره طغيان الشكل على المضمون ، وكثرة استخدامه لفعل الأمر ، كما في قوله :

"تقدم يا أخي وتكلم ، واستأنس ،واقترح ،وانبسط ولا تُرَعْ"

وقوله :

"يا غلام خذ بيد هذا الكلب إلى الحبس وضعه فيه بعد أن تصب على كاهله وظهره وجنبيه خمس مئة عصا"

٥- في نثر التميمي :

اتبع التميمي في عرض رأيه أسلوب الوصف ، واستخدم الصفة المشبهة كما في قوله :

"طويل العنان في اللؤم ، قصير الباع في الكرم"

وقوله :

"سفيها بالجملة ، خليعاً في التفصيل"

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما نلاحظ قلة استخدامه للطباق حيث لم ترد سوى ثلاث مرات في قوله :

"طويل العنان في اللؤم ، قصير الباع في الكرم"

وقوله :

"وثّاباً على الشّر ، مُقْعَدا عن الخير"

وقوله :

"كافراً بالنِعَم متحرشاً بالنِقَم "

فالكلمات التي ورد فيها الطباق : طويل قصير ، الشر الخير ، النِعم النِقم .

والجناس حيث لم يرد سوى مرة واحدة في قوله :

"كافراً بالنِعم متحرشا بالنِقم"

كما وازن بين الشكل والمضمون ، ولجأ إلى المقارنة عند حديثه عن الصاحب بن عبـــاد وابن كلس ، واستخدم لذلك اسمي الإشارة هذا وذاك ، كما في قوله :

"ذاك رجل له دار ضيافة وله زُوّارٌ كالقطر"

وقوله :

"وزارة ذاك نيابةٌ عن خلافة ، ووزارة هذا خلافة عن عَمالة"

كما وردت المشتقات في نثره مثل صيغة المبالغة كما في قوله :

"وثّابا على الشر " ، "جبّاها بالمكروه"

واسم المفعول واسم الفاعل ، كما في قوله :

"المال مصبوب ، والخازن قائم ، والمُفَرّق مُجَرّف ،والنداء عال ، والواصل موصـــول ، والمُؤَمَلُ مشكور ، والرّاحل شاكر"

ومن المحسنات اللفظية التي وردت أيضاً المقابلة في قوله :

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"وثّاباً على الشرّ ، مقعدا عن الخير "

كما نلاحظ في نثره وضوح الفكرة وجزالة الألفاظ ، وقوة الأسلوب .

٦- في نثر الجيلوهي :

صرح الجيلوهي برأيه في ابن عباد مستخدماً الألفاظ القوية التي توضح صفات الصاحب بن عباد ، واهتم بمضمون هذه الألفاظ أكثر من شكلها ، ومثّل على رأيه بالحكمة والشعر ، فمن أمثلة الحكمة قوله :

"والعرب تقول في حِكَمِها : المِنّةُ تزري بِالألبّاء"

والشعر مثل قوله : قال الشاعر :

وأنت كغيثِ السّوء من ير برقه يشمه ومن يحلل به فهو جادبه

كما وردت المشتقات في نثره مثل اسم المفعول ، كما في قوله :

"مغرور من نفسه لمواتاة جِدّه "

وقوله :

"إلا وهو مردود بالتنكد لأنه ما هنأ قطٌ بنعمته "

وقوله :

"أو ملعوباً به قُرّب على ظِنَةٍ ورَيبَة"

واسم الفاعل ، كما في قوله :

"وهذا طريق الجاهليين المغترين"

وقوله :

"وقد شاهدت النافقين عليه والمتقدمين لديه"

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد ورد الجناس في قوله :

"ولكنه يجري طَلِقاً ثم يكبو ، وينصلت للقِراع ثم ينبو ، ويتطاول إلى مالا يناله ثم يخبو"

وقوله :

"ويستدعي المقت ويقرب الموت"

وقوله :

"ومواصلة البكور والرَواح ، واستنشاق الغبار والريّاح"

ومن أمثلة السجع قوله :

"إما بأن لا يدّعي الكمال ، أو بأن لا يُبكّتَ الرجال"

وقوله :

"ومغالبة ذل الحُجّاب ، وسوء أدب البّواب"

٧- في نثر الغويري :

إن لغة الغويري تتصف بالسهولة والوضوح ، وقد استخدم في عرض نثره الألفاظ التـــي تحدث نوعا من الجرس الموسيقي ويظهر هذا في قوله :

"في ابن عبّاد قحة مأبون ، ولوثة مأفون"

وقوله :

"ولعله كان في قِس عرق من آبائك الفرس"

وقد اشتمل نثره على المشتقات مثل اسم الفاعل ، كما في قوله :

"ومن الحاذين على مثالك ، والآخذين عنك"

وقوله :

"والعاقل لا يلقي بيده إلى التهلكة"

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقوله :

"يريد منك ألاً تذكر فاضلا عنده "

كما وردت المحسنات اللفظية من طباق ، كما في قوله :

"ولا يعطيك شيئاً إلا إذا أخذ أكثر منه منك"

وقوله :

"ثم الويل لك إن أصبت في كلامك ، والويل لك إن أخطأت على أنّ الخطأ يعطفه عليك بالرحمة ، والصواب يحمله في معاملتك على الحسد والانتقام"

والجناس ، كما في قوله :

"أين أبو حنيفة عن هذا التحقيق والتدقيق ، وأين صاحباه محمد وأبو يوسف عن هذا التطبيق والتعميق".

فالكلمات التي ورد فيها الطباق : يعطيك أخَذ ، أصبت أخطأت ، الخطأ الصواب ، والكلمات التي ورد فيها الجناس : التحقيق التدقيق ، التطبيق التعميق .

ويكثر في نثره استخدامه للجمل الشرطية ، كما يظهر في قوله :

إن ذُكر الشعر ، فُقلْ أين مسلم بن الوليد منك

وإن ذُكر النحو ، فُقلْ وصلت إلى مالم يصل إليه سيبويه

وإن ذُكر البيان ، فَقُل فيك أعراق متواشجة من قص بن ساعدة .

٨- في نثر أبي راغب العتبي

لقد وضّحنا رأي العتبي في الصاحب بن عباد من خلال رسالة وجهها إليه وتعتبر هذه الرسالة من الرسائل الإخوانية ، والمُلاحَظ عليها اتصافها بالطول وكثرة سجعاتها ، ومن الأمثلة عليها قوله :

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"ولقد شَددتُ وَسْطِي في تعرف أخبارك ، واستعنت كلّ عين وأذن في معرفة ليلك ونهارك"

وقوله :

"فلم أجد في تفصيل ذلك إلا ما يعصب برأسك العار ، ويحشد عليك أسباب الدّمار ، ويكون عاقبتك منه دخول النار"

وقوله :

"وما أخوفني أن تكون جرأتك على هتك حرمات الدين ، ومعارضة الصالحين مع العكوف على الخسران المبين"

كما نلاحظ كثرة استخدام العتبي لفعل الأمر كما في قوله :

"حدثني ، أي أمرٍ أنت على رشد ، وآخذ منه باحتياط؟"

وقوله :

"انظر! أيّها الرجل أي سوء لك"

وقوله :

"ويُبسط الأيدي في الدّعاء عليك ، ويحشو القلوب تمني زوال دولتك ، فاتعظ بقول الشاعر"

كما أكثر من استخدام أداة الخطاب (أيّها) لأنه يوجه خطابه إلى شخص محدد هو الصاحب بن عباد ، ومن أمثلته قوله :

"فيا أيّها المُدّلُ بالتوحيد والعدل!"

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقوله :

"انظر ! أيّها الرجل أي سوء لك ، والله إنك شديد الثقة وقد قيل : ربّ واثق خجل ، أيها الرجل "

ويعتبر أسلوبه إنشائيا أكثر منه إخباريا لأنه أكثر من استخدام أدوات الاستفهام كما في قوله :

"أفما هذا بأمرك وعينك وأذنك ؟ فلِم تتكلف مالا تقر به ، ولم تدعي مالا تُسَلِّمُ فيه؟"

وقوله :

"أما تعتبر بما آل اليه ذو الكفايتين مع ذلك الثأو والخنزوانة . أما رأيتَ بعينك في هذه السنين ما يحدوك على الأخذ بالوثيقة لنفسك"

وقوله :

"أهذا كله في مذهبك أو في مذاهب أسلافك مثل واصل بن عطاء "

وقد مثّل على رأيه بالشعر والحكمة وأقوال لبعض السلف واتبع أسلوب الوعظ والإرشاد في توجيه النصيحة للصاحب بن عباد لذلك تعتبر رسالته رسالة وعظ وإرشاد ، فمن أمثلة الحكمة قوله :

"رُب واثق خجل"

وقوله :

"ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع"

ومن أمثلة الشعر :

يا أيها الباغي على الأحرار ثقة بلين مقادة الأقدار

لا تغترر بمدىً تطاول حينه فالظلم يقَصّر من خطى الأعمار

والعيش نهلة وارد ولربمّا سَرَتْ عليه مدارج الإصدار

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقول المتنبي :

ولم أر في عيوب الناس شيئاً كنقص القادرين على التمام

ومن الأمثلة على أقوال بعض السلف قول أحدهم :

"أحذركم الدّنيا ، وأخوفكم يوم لا يُعرف لخير أمد ، ولا ينقطع لشرّ أمد ، ولا يعتصم من الله أحد".

كما اهتم بطرح أفكاره وكانت لغته واضحة ومفهومة ، والمحسنات اللفظية في رسالته قليلة ، فقد ورد الطباق في قوله :

"بل كله تفضل في الأول ، واختيار في الثاني ، وثواب في الثالث "

وقوله :

"يوم لا يعرف لخير أمد ، ولا ينقطع لشر أمد"

والجناس كما في قوله :

"ومساهمة الفسقة الفجرة ، وخدمة الظلمة الغشمة"

وقوله:

"متعجب فيمن له إخلاص ، أو له بالدينونة اختصاص"

وقد بدأ رسالته بالبسملة وختمها بالسلام.

٩- في نثر أبي بكر الخوارزمي

وكتب الخوارزمي رسالة إلى الصاحب بن عباد عبّر فيها عن خالص حبه ووفائه له ، وذلك بلغة فصيحة ،ومَعانٍ واضحة ، وتتجلى في رسالته عاطفة الحزن على فراقه للصاحب والبعد عنه ، ويتضح هذا في قوله :

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"كما أن أيام فراقه ليال طوال وليلة فراقه تعد بليال وإني بعد صبري على فراقه لجَلِدٌ على وقع سهام الهجر واسع المجال في ميدان الصبر"

والتزم الخوارزمي القصر والإيجاز والسجع من أول الرسالة إلى آخرها ،و كانت جملـــه متوازنة أحدثت نوعاً من الجرس الموسيقي وهذا يظهر في قوله "لقد كانت أيامي بحضرة الوزير قصارا ، وكان ليلي بها نهارا، وساعاتي فيها أسحارا"

وقوله:

"وألقيت للخواطر والألسن شغلا طويلا ، وطرحت عليها عبئاً ثقيلا"

ونلاحظ في رسالته اعتدال المحسنات اللفظية حيث ورد الطبقات في قوله :

"ولقد كانت أيامي بحضرة الوزير قصارا وكان ليلي بها نهارا وساعاتي فيها أسحارا كما أنّ أيّام فراقه ليال طوال "

وقوله :

"لا يبيعني الوزير وقد اشتريته بأهل الدّنيا ولا يبعدني عنه وقد قربني الحب منه"

والجناس في قوله:

"كتابي إلى الوزير وأنا على بعد الدار سالم في جملته مستظهرٌ على الأيام بدولته"

وقوله :

"وأبقيتُ للخواطر والألسن شغلا طويلا وطرحتُ عليها عبئاً ثقيلا"

وقوله:

"ولا يبخل عليّ بكتبه فعهدي به لا يبخلُ عليّ بفضته ولا بذهبه"

فقد ورد الطباق في الكلمات : قصارا طوالا ، ليلي نهاري ، يبيعني اشتريته ، يبعدني يقربني ، والجناس في الكلمات طويلا ثقيلا ، جملته دولته ، كتبه ذهبه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونلاحظ في هذه الرسالة موازنة الخوارزمي بين شكل الألفاظ ومضمونها ، كما خلت من البسملة ، ويبدو أنه كتبها على عجلة من أمره ، لأنه شعر بالتقصير في الكتابة إلى الصاحب بن عباد ، ونلاحظ توافقاً بين الخوارزمي والصابئ في سبب كتابة كل واحد منها لرسالته ، فكلاهما يذكران السبب وهو التأخر في الكتابة إلى الصاحب لكنهما يختلفان في هدف الكتابة إلى الصاحب ، فالصابئ كتب إلى الصاحب رسالته طالبا مساعدته في التخلص من محنته ، أما الخوارزمي فكتب إلى الصاحب ليشرح له الألم والمعاناة التي يعيشها في بعده عنه ، كما أنهما يشتركان في خلو رسالتهما من البسملة .

ويقول زكي مبارك عن الخوارزمي :

"في نثره عقل قوي يمتاز عن العقول التي سبقته أو عاصرته . وليس معنى ذلك أنه يفوقها جميعا . فهو دون ابن العميد في سمو الغرض ، ودون بديع الزمان في حلاوة التعبير ، ودون التوحيدي في وفرة المحصول ، ولكننا نريد أن نقول إن له بلاغة خاصة تضمن له التفرد والاستقلال والنبوغ الأدبي هو ذلك : فليس يُطلب من الكاتب أو الشاعر أن يفوق جميع معاصريه ليوصف بالنبوغ ، ولكن يكفيه أن يكون ينبوعاً مستقلاً يشعر الناس بوجوده الخاص ويحسون فقده إن حجب عنهم فيضه النمير"[١]

١٠ – في نثر أبي اسحاق الصابئ

وكذلك الصابئ كتب رسالة استماحة وطلب واستنجاد بالصاحب بن عباد ، وكانت لغته في هذه الرسالة قوية ، وألفاظه معبرة ، وتتصف أفكاره بالتسلسل حيث بدأ رسالته بالاعتذار للصاحب بن عباد بسبب تأخره في الكتابة له ، ثم انتقل إلى مدحه ، وذكر الصفات التي أهلته

(١) زكي مبارك ، النثر الفني في القرن الرابع ، المكتبة التجارية الكبرى ، مصر ، ط٢ ،ج٢،ص٢٥٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

للوزارة ، ثم بين للصاحب ما تعرض له من محنة وطلبَ منه المساعدة والعون للتخلص منها وختم رسالته بالدعاء وتمنى من الصاحب تلبية طلبه وتحقيق مراده .

كما تتصف رسالته بالطول والتزامها بالسجع من أولها إلى آخرها ويظهر هذا في قوله :

"وصَادفَ ما تجدد عليّ منها في الوقت أشلاءً منهوكة وأعْظُماً مُبرية ، و حَشَاشَةٌ مُشفِية ، وبَقيةً مُوديَة ، وفارقت الإيثار ، وأطعت دواعي الاضطرار وجعلت أختار الجهات ،وأعتام الجنبات،لأنْحُو منها مالا يُعابُ سائله إذا سأل ولا يُخَيّب آمِلهُ إذَا أَمّل ، فكان سيدي أدام الله عِزّه أولُها إذا عُدَدْتْ ، وأولاها إذا اعتَمدت "

ويميل أسلوب الصابئ في هذه الرسالة إلى الأسلوب الإنشائي لما فيه من طلب واستعطاف وتمني كما وازن بين جمله ، ومن أمثلة الطباق في رسالته قوله :

"راجعاً بإجابتي بما ابتهج له من طيب خبره وحاله ، وامتثله من عالي أمره ونهيه"

ومن أمثلة الجناس قوله :

"فلما لاح لي أن الإجمام أنفق ، والترفيه أوفق "

وقوله :

"ونفس سامية ، وكف هامية ، وأوصاف لا تعبر عنها بلاغة الفصحاء"

وقوله :

"وخاصة من كانت له في نفسه المزية التي لي على غيري فيمن شَحَظَتْ دَارُه من أوليائه وأوّدائه بمشاهدتِي شَخصِه الشريف ، واعتلاقي حبله الحصيف " فالكلمات التي ورد فيها الطباق :تالد طارف ،أمره نهيه ، والكلمات التي ورد فيها الجناس :أنفق أوفق ،سامية هامية.

وقد خلت رسالته من البسملة وكذلك لم تنتهي بالسلام ، ولكنها انتهت بالدعاء والتمني والرجاء ويظهر هذا في قوله :

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"وسيدي أطال الله بقائه وليُ ما يراه فيما سألت واقترحت ، واشتططت واحتكمت جامعا لي من ماله وجاهه ،فإنّ تضاعف هذه المحن يقتضي مضاعفة ما يُطَوِقُنيه من المنن ، لأكون ما عشت طليقة من حبائلها وأسارها ،وعتيقه من مخالبها وأظفارها ،والإيعاز باجابتي بما ابتُهِجَ له من طيب خبره وحاله،وامتثله من عالي أمره ونهيه ،إن شاء الله "

ومن أمثلة الصفات في رسالته قوله :

"وأعتقد أنها في فنائه عمره الله مستقرة الوطن قاطنة ،وفي كثير من الأفنية قلقة الرّكاب ظاعنة".

وقوله :

"فإنّ نوب الدّهر تتردد منذ سنون عليّ وعلى أهل صناعتنا المنحوسة بالعراق ،منيخة بنوازلها،ملقية بكلاكلها ،كالحة بوجوهها كاشرة عن أنيابها "

وتحدث زكي مبارك في كتابه النثر الفني عن الصابئ قائلاً :

"وبالرغم من المؤاخذات التي واجهنا بها نثر الصابئ فإننا نعترف بأنه نجح في ناحيتين :

الأولى – ظهوره بمظهر التفوق في لغته الفنية الزاخرة التي وسّعت ماوسّعت من ضروب التعابير والأخيلة والصور في الموضوعات الكثيرة التي جرى فيها ، فإننا لا نكاد نجده يكرر معنى أو يعيد لفظاً إلا في أحوال قليلة تغتفر لكاتب يُحمل على القول ويساق إلى البيان،وكتابته مع ما فيها من التزام السجع سهلة يقلّ فيها التكلف ويغلب عليها الطبع ".

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١١- في نثر أبي الوفاء المهندس

يتصف نثر أبي الوفاء بقوة الألفاظ ، وكثرة وجود الصفة المشبهة ويظهر هذا في قوله :

"وهو مع هذا عند أصحابه رقيع طيب وعند الكتّاب أحمق وغليظ ، وعند سفلة المعتزلة واحد الدّنيا ، وعند الفلاسفة طائرٌ ظريف ،وعند الصالحين ظلوم قاسٍ ،وعند الله فاسق عاصٍ ،وعند أهل بلده أفّاك أثيم".

كما نلاحظ غلبة الصفة السيئة على الصفة الحسنة ، حيث وصفه بالرقاعة والحمق والفسق أكثر من الطيبة والظرافة .

ويظهر استخدامه لاسم الفاعل كما في قوله :

"ويقال لمثله عند إخواننا ببغداد :مادح نفسه يقرئك السلام "

وقوله :

"وعند الله فاسق عاص ،وعند أهل بلده أفاك أثيم "

أما آراء كل من الأنماطي ،وابن الجلبات المصري ،وابن أبي زرعة ،وأبي الفضل الهروي،وأبي صادق الطبري ،وأبي سليمان المنطقي ،وأبي سعيد الأبهري ،فتتصف بالقصر ، واشتراكهم في استخدام الألفاظ التي تصف الصاحب بن عباد بالجنون والحماقة مثل : جنون ، رقاعته،أحمق ،وقاحته ،ويشتركون كذلك في طرح نفس الفكرة وهي وصف الصاحب بالأخلاق السيئة من رقاعة و جنون ، وبخل ،وكذب،وآراء هؤلاء الأدباء وردت في كتاب مثالب الوزيرين ويبدو أن هذه الآراء قد نسجها التوحيدي ودبجّها بأسلوبه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٢- في نثر ابن العميد

إنّ من يقرأ رسالة ابن العميد التي وجهها إلى الصاحب بن عباد يُلاحِظ وضوح لغتها ومعانيها ورشاقة ألفاظها واشتمالها على المحسنات اللفظية مثل قوله :

"فإن الأمر مفتقر إلى كفالته ، ومحتاج إلى كفايته ، وما أقول ما أقوله وغرضي إنشاء كتاب ، أو عقد حساب ، أو تفريق مال وجمع . أو تقديم عطاءٍ ومنع ، لأن ذلك وإن كان مقصودا ، وفي آلات الوزارة معدوداً ،فإن في كتّابه من يفي به ويستوفيه ، ويوفي عليه بأيسر مساعيه ، لكنّ مولانا يريده لتهذيب من هو وليّ عهده ، ومن يرجوه ليومه وغده"

فقد ورد الطباق في الكلمات : تفريق جمع ،عطاء منع، يومه غده ، والجناس في الكلمات : كفايته كفالته ، كتاب حساب .

ويكثر في رسالته السجع لكنه سجع يحافظ على المعنى كما ذكرنا سابقاً ويظهر هذا في قوله :

"مولاي وإن كان سيداً بهرتنا نفاسته ،وابن صاحب تقدمت علينا رياسته ،فإنه يعدّني سنداً ووالداً ، كما أعده ولداً واحداً ، ومن حق هذا أن يعضد رأيي رأيه حتى يزدادا إحكاما وانتظاما ، ويتظاهرا قوةً وإبراماً "

وقوله :

"مولاي محكم بعد الإجابة إلى العمل فيما يشترطه ، وغير مُراجعٍ فيما يقترحه ، وهذا حظي منه ، وهو عن ولي النعمة حجة فيما يشترطه ، وسنصل المكاتبة بالمشافهة ، إما بالحضور لديه ،أو بتجشمه إلى هذا العليل الذي قد ألح النقرس عليه ".

وتعد رسالته من الرسائل الإخوانية ، وقد بدأ رسالته بالبسملة وختمها بالسلام ، كما اشتملت رسالته على مقدمة وعرض وخاتمة ،واتصفت لغته بالقوة من أول الرسالة إلى آخرها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد تحدث شوقي ضيف عن كتابة ابن العميد وأسلوبه في كتاب (الفن ومذاهبه في النثر العربي) قائلاً :

"وهذا الوزير المثقف ثقافة واسعة يعد أستاذ عصره في فن التصنيع ، وقد أقرّ له ببراعته وفصاحته وامتيازه في كتابته كل من تصدوا لترجمته ، و الكتّاب اصطلحوا منذ عصر المقتدر على أن يعمموا السجع في كل ما يكتبون ، واستمر ذلك من بعدهم . وكان ابن العميد يسجع في كتابته ولكن ليس هذا ما يلفتنا عنده ، إنّما الذي يلفتنا حقاُ هو أن مذهب التصنيع تماثل على يديه في الصورة التي كانت تنتظره منذ القرن الثاني ، ونقصد صورة السجع من جهة و الاحتكام إلى البديع فيما ينشئ الكاتب من جهة أخرى ؛ ومن أجل ذلك إذا قلنا : إن ابن العميد هو أستاذ مذهب التصنيع بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة لم نبعد ؛ لأنه أول كاتب ــ فيما نعرف ــ احتكم إلى السجع في كتابته ، كما احتكم إلى البديع من جناس وطباق وتصوير ، وهيأه لذلك أنه كان ذا عين تصويرية ، بل لقد كان ذا شغف بفن التصوير نفسه"(١)

"ولا شك أن النزعة التصويرية التي فيه كان لها أثر مهم في نثره ،اذ جعلته نثراً مصوّراً يهتم صاحبه بصنع الصور والرسوم في كتاباته :كما جعلته يهتم بألوان البديع الأخرى من طباق وجناس وغيرهما ، وكأنه كان يحس بأن هذه الألوان جميعاً من تصوير وغير تصوير تقوم من نثره مقام الألوان الحسية من لوحة الرسام "(٢) .

"فهو يعمد إلى زخرف البديع يُوشّي به لفظه ، وهو دائما – كما تصوره يتيمة الثعالبي – يتخذ لفظاً مرصعاً بالسجع ، وإنه ليحتال في تحسين سجعه والإكثار من وشي بديعه حيلاً مختلفة،أما سجعه فكان يحتال عليه بالقصر فإن كان طويلاً قصره بما مرن عليه من المعادلة بين ألفاظه حتى لكأنها تتشابك تشابك توقيعات الراقصين ، وأما بديعه فإنه كان يكثر منه ، وكان

(١) شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في النثر العربي ، دار المعارف ،ط٣ ، ص ٢٠٨-٢٠٩ .

(٢) انظر المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٢٠٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ما يزال يحتال على اللفظة حتى يحملها وشي الطباق من جهة ووشي التصوير أو الجناس من جهة أخرى . ومن أجل هذه الحيل كلها وما اقترن بها من مهارة وتفنن كان ابن العميد زعيم مذهب التصنيع في عصره غير مُدافع ولا مُنازع "[١]

وقال عنه الثعالبي في اليتيمة :

"هو عين المشرق ولسان الجبل ، وعماد ملك آل بويه ، وصدر وزرائهم ، وأوحد العصر في الكتابة وجميع أدوات الرياسة وآلات الوزارة ،والضرب في الآداب بالسهام الفائزة ، والأخذ من العلوم بالأطراف القوية ، يُدعى الجاحظ الأخير ، والأستاذ الرئيس ، ويضرب به المثل في البلاغة ،ويُنتهى اليه في الاشارة بالفصاحة والبراعة ، مع حسن الترسل وجزالة الألفاظ وسلاستها ، إلى براعة المعاني ونفاستها ، وما أحسن وأصدق ما قال له الصاحب وقد سأله عن بغداد عند منصرفه عنها : بغداد في البلاد كالأستاذ في العباد ، وكان يقال :بُدِأت الكتابة بعبد الحميد ، وختمت بابن العميد"[٢]

١٣- في نثر أبي منصور الثعالبي :

يتسم نثر الثعالبي بالقصر والإيجاز ، ووضوح المعنى ، وقوة الألفاظ ويظهر هذا في قوله:

"هو صدر المشرق ، وتاريخ المجد ،وغرّة الزمان ، وينبوع العدل والإحسان "

وقوله :

"ومجلسه مَجمعاً لصوب العقول ،وذوب العلوم ودرر القرائح "

---

(١) انظر المصدر السابق، ط ٣ ، ص ٢١٢.

(٢) الثعالبي ،يتيمة الدهر ،ج٣ ،ص ١٣٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما يَتّبِع في كتابته الحديث عن الصاحب أو أي أديب آخر الأسلوب الإخباري والوصفي، وذلك بذكر الصفات الموجودة فيه بالإطناب ،والترادف الجملي ، وبالمحافظة على الإيقاع والتنغيم كقوله:

"هو صدر المشرق ، وتاريخ المجد ، وغرة الزمان ، وينبوع العدل والاحسان"

وقوله :

"وصارت حضرته مشرعاً لروائع الكلام ، وبدائع الأفهام ، وثمار الخواطر ، ومجلسه مجمعاً لصوب العقول وذوب العلوم ، وسار كلامه مسير الشمس ونظم ناحيتي الشرق والغرب".

ويلاحظ على نثره اتصافه بالاعتدال في استخدام السجع القصير ، وقلة توظيف المحسنات اللفظية حيث ورد الطباق في قوله :

"ونظم ناحيتي الشرق والغرب"

والجناس في قوله :

"وصارت حضرته مشرعاً لروائع الكلام ، وبدائع الأفهام "

ويقول عنه زكي مبارك في كتابه (النثر الفني في القرن الرابع):

"إن أهمية الثعالبي من الوجهة الفنية لا ترجع إلى شغله بأزمات النفوس ، وشهوات القلوب ، ونزوات الرؤس ، وثورات العقول . وإن كان يظهر من ثنايا كلامه أنه رجل خَبِر النفس الإنسانية، وعرف ما تزرأ به من بلايا الحب والبغض ، والرغبة والإشفاق ،والطمع والإخفاق، وتَمَرّسٍ بأهوال الإقبال والإدبار ،والغنى والفقر ، والنعيم والبؤس ، وعرف كيف يصطرع الشك واليقين ، والهوى والضلال.

وإنما هو كاتب شُغِلَ بتدوين الفنون الأدبية واللغوية ، فقدّم لأهل عصره ولقرّاء اللغة العربية في مختلف الممالك وعلى اختلاف الأجيال غذاءاً قوياً للعقول والمشاعر والأذواق

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

،ووضَع أمام قرّائه صوراً مختلفة للقرائح والعبقريات التي عرفها بنفسه أو سمع بأخبارها . أو قرأ آثارها ،حتى ليمكن الحكم بأن القرن الرابع كاد يمحى أو يكاد لو لم يَظْفَر بذلك الحافظ الأمين".[١]

ثانياً :النصوص الشعرية

١- قصائد المدح:

بعد تناولنا لقصائد المدح التي نظمها الشعراء في مدح الصاحب بن عباد نلاحظ أن هذه القصائد تتحدث عن صفات الصاحب بن عباد وأخلاقه حيث بين البديهي أخلاق الصاحب من خلال صحبته له وقد عرف فيه الصبر وتحمل الصعاب والمعاملة الحسنة مع الآخرين ، كما وضّح الزعفراني اتصاف ابن عباد بالفضل والجود وذلك من خلال مساعدته له في ايصاله لمجلس فخر الدولة وجعله نديما له ،كما بين أبو طاهر بن أبي الربيع مدحه للصاحب بإخلاصه وحبه له ، و تحدّث العامري في قصيدته عن فضائل الصاحب بن عباد ووصفه بما يليق برتبة وزير قد امتن على الناس بفضله مرة في تسيير الجيوش وأخرى في بلاغته وفصاحته .

أما البناء العام لهذه القصائد فهو متنوع ، فكل شاعر من شعراء قصائد المدح نظم قصيدته متمثلا فيها بناءاً يختلف عن بناء الشعراء الآخرين فقد ابتدأ البديهي قصيدته بمقدمة غزلية واستخدم أسلوب الوصف في قصيدته عندما تحدث عن الرحلة التي رافق فيها الصاحب بن عباد ،وتمثل أبو طاهر بن أبي الربيع بناء القصيدة العربية في الوقوف على الأطلال والحنين للأيام السالفة والذكريات الجميلة والحنين إلى الخمر ، أما العامري فقد تمثل في قصيدته نهج المتنبي متحدثاً عن الحرب ، والفخر بالفروسية ، حيث جعل ذلك مقدمة لغرضه الشعري من

(١) زكي مبارك ،النثر الفني في القرن الرابع ، المكتبة التجارية الكبرى ، مصر ، ط٢ ، ج٢ ،ص ١٨١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قصيدته وهو مدح الصاحب وذكر فضائله ، أما قصيدة الزعفراني فكانت عبارة عن قصيدة خمرية تحدث فيها عن الخمر وأوصافها وجعلها وسيلة لمدح الصاحب وذكر أفضاله .

وقد تضمنت قصائد المدح بعض الصور الفنية ونلاحظ هنا قصيدة العامري عندما وصف مرض الصاحب بن عباد وما أحدثه في جسده من الألم و التعب ، ومن الصور الفنية التي تظهر في قصيدته تشبيهه المعالي بانسان سقيم يرتدي ثوباً من الحزن والكآبة على الصاحب ، وشبه الأدعية التي تلفظت بها الأرامل لشفاء الصاحب بن عباد ، بالضوضاء ويبدو أن أصوات هذه الأرامل كانت عالية عند دعائها ، وهذا دلالة على حبهن للصاحب بن عباد ، ومكانته في قلوبهم جميعاً ، ويظهر هذا في قوله :

فَدينَاكَ يَا كهفَ البَرّيةِ مَا الذّي أعَارَ المَعَالِي سَقْمَكَ المُتَنَاوِبُ

عَليهَا مِن الإشْفَاقِ ثَوبُ كَئابةٍ وخَطْبٌ يُدانِيهِ الضَنَى مُتقارِبُ

فِي كُلّ دَارٍ لِلأرامِلِ ضَجَةٌ بِأدعيةٍ ضَوضَائُها مُتجاوِبُ

ونلاحظ في قصيدة الزعفراني تصويره للخمر ووصف لونها الذي يشبه لون الشمس والتي تجلب السرور الذي قد يكون غير موجود عند الإنسان ، حيث وصف هذا السرور بأنه إنسان عقيم ، وعند شرب الإنسان الخمر يصبح مسرورا ، كما أن الإنسان لا يعرف النعاس والنوم عند شربها ويتضح هذا في قوله :

هَاتِها لا عَدمتَ مِثْلي نَديماً قَهوةٌ تُنْتِجُ السُرورَ العَقيمَا

قَرقَفاً تَنْتَمِي إلى الشمسِ لا تَعرِفُ فِي جِنسِهَا الكَرى والكُرومَا

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما اشتملت قصائد المدح على المحسنات اللفظية من طباق وجناس فمن أمثلـــة الطبـــاق كلمتي : أطعتُ ، فاعص ، وكلمتي : الحزون وسهولا التي نجدها في قول البديهي :

قَد أطعتُ الغَرامَ فاعْصِ العَذُولا مَا عَسى عَائِبُ الهَوى أنْ يَقُـــولا ؟

فَبلونَا مِنْهُ دَمَاثَةَ أخْـــــــــلا قٍ،أعادت تلك الحزون سهـــــولا

كما ورد الجناس في قصيدة البديهي أيضاً في كلمتي العذولا وعدولا وذلك في قوله :

قَد أطعت الغرام فاعص العذولا مـــــا عسى عائب الهوى أن يقولا

وأوينا الى رحـــــاب رحاب لـــــــــم نجد للعفاة عنها عدولا

ومن أمثلة الطباق أيضاً كلمتي : وصلتُ وهجرتُ ، وكلمتي : أبخل ، وكريما وكلمتـــي : جهل وعليما في قول الزعفراني :

وتَخطيْتُ تَوبَتِـــــــــي فِـــي هَواهُ فَوصَلْتُ الذّي هَجـــــرتُ قَديمـــا

كُرّمَتْ عُنْصُراً فَلو مُـــــتّ فِيها أبْخَلَ النّاسِ غَادرتْـــــــهُ كَريمـــَا

جَهلَ الرّزقُ مَوضِعِـــــــي ورَأى آثَارَ شَاهِنْشَاه فَصـــــــارَ عَليمـــَا

ومن أمثلة الجناس في قصيدة الزعفراني كلمتي : كروما وكريما وكلمتي هموما وجموما وكلمتي عقيما وعليما وذلك في قوله :

قَرقفاً تَنتَمِي إلى الشّمـــــــــــسِ لا تَعرِفُ فِي جِنسِهَا الكَرى والكُروما

كُرِّمَتْ عُنصُراً فَلو مُتّ فِيهـــا أبْخَلَ النّاسِ غَادَرَتهُ كَريمـــــــــا

كَم عُقارٍ صُلِيتُ مِنْها شُـــــرورا كَادَ يهْوي ، والجِلْدُ يُنْمِي هُمومـــا

قَد وَجدتُ الرّوض الأريـــــضَ حَميماً ووجَدْتُ الخَسيفَ عَاد جُموَما

هَاتِها لا عَدِمْتَ مِثْلي نَديمـــــا قَهوةٌ تُنْتِجُ السُرورَ الَعقيمـــــــا

أَرشَدَتْـــــهُ إليّ كَفٌ كَـــــريمٍ ألزَمَتهُ أنْ لا يَكـــــونَ لَئِيمـــــا

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن المشتقات التي وردت في قصائد المدح اسم المفعول الذي ورد في قصيدة الزعفراني في الكلمات :محتوما ، مخدوما ، محروما ،التي تتجلى في قوله :

قدْ أطَعتُ الأمِيرَ اذا سَامَنـــــــي الشّربُ ولمْ أعْصي أمْرَه المَحْتُوما

وكَأنّي لَمـــــــّا رَجَعتُ إليهَا كُنْـــــــتُ مِن كُل لَذةٍ مَحرومَـا

وبَلغتُ الذّي تَمنيتُ واستخدمتُ فاختـــــــرتُ مَجلساً مَخْدُومـــــا

والصفة المشبهة التي وردت في قصيدته أيضاً في الكلمات : لئيم ، لبيب ،كـريم ،علـيم ،قديم،غليظ ،وذلك في قوله :

وتَخطَيتُ تَوبتِي فِي هَـــواهُ فَوصلتُ التّي هَجـــــرتُ قَديمـا

خَالفَتْ دِنّهَا الغَليظَ فَرّقـــت واسْتفادتْ مِـــــنَ السُمومِ نَسِيمـا

كُرِمَتْ عُنصُراً فَلو مُتّ فِيها أبخَلَ النّـــــاس غَادَرتْهُ كَريمـا

ورَآنِي الأميرُ أيّده اللهُ لَبيبـاً فَقالَ : كُـــــن لِـــي نَديمـــا

جَهَلَ الرّزقُ مَوضِعِي ورَأى آثَارِ شَاهِنْشَاه فَصَـــــــارَ عَليما

أرْشَدَتْهُ إليّ كَفّ كَريـــــمٍ ألزَمَتْهُ أنْ لا يَكـــــونَ لَئيمـــا

واسم الفاعل في قصيدة العامري الذي نجده في الكلمات :شاكر ، خارب ، سارب ،لاهب ، ويتضح هذا في قوله :

وكُلّ نَعيمٍ لَم يُعوّذ بِشاكـــــــــرٍ تَفَنّن فِيهِ لِلذهـــــــابِ مَذاهـبُ

ولَو شِئتَ تَأديبَ اللّيالِي فَعَلتَـــــهُ فَلَمْ يُرَ مِنهَا فِـــي جَنابِكَ خَاربُ

ولَم تَقرَبِ الحُمّى حِمـــاكَ ولَم يَكنْ لِسورتِهَا فِي سَورةِ المَجدِ سَاربُ

ولاعِـــجُ تَدبيرٍ وجَائِشُ هِمّـــةٍ سَرى مِنْهَا بيـــنَ الجَوانِحِ لاهِبُ

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد اتصفت قصائد المدح بجزالة الألفاظ ، وقدرة الشعراء على التعبير عن مشاعر التقدير والحب والاحترام للصاحب بن عباد ، فمن الأمثلة على الألفاظ الجزلة :

شافهت ، القرم ،سامني ، فيافي ،في قول الزعفراني :

شَافَهتْ بِي مُناي بِالقـــــــــرمِ فَخْرَ الدّولةِ اليَومَ جَنةً ونَعيمـــــا

قَد أَطعتُ الأَمِيرَ إذ سَامَنِي الشر بُ ولَمْ أعْصِ أمْرَهُ المَحْتُومـــــا

وقول البديهي :

وصَحِبْنَاهُ فِي فَيـــــافٍ قِفـــــارٍ كَادَ فيهَا الخَلِيلُ يَجفو الخَلِيـــــلا

ونلاحظ غلبة عاطفة الحب والإعجاب في قصائد المدح ، كما نلاحظ تنوع الشعراء في استخدام القوافي التي جاءت عليها قصائدهم حيث كانت قافية قصيدة أبي الحسن البديهي (لا)، وكانت قافية قصيدة أبي القاسم الزعفراني (ما)وجائت قافية قصيدة أبي إسماعيل الشاشي العامري منتهية بحرف الباء ، أما قافية قصيدة أبي طاهر بن أبي الربيع حرف الجيم .

أما بالنسبة للبحر الذي استخدمه الشعراء في نظم قصائدهم فهو البحر الطويل والخفيف وذلك لاتصاف تفعيلاته بالخفة والعذوبة وإضفائه نوعاً من الإيقاع الموسيقي الجميل والرونقة والجمال على ألفاظ القصائد ومعانيها .

٢- قصائد الهجاء

إنّ السمة الغالبة على أبيات الهجاء هي القصر ، إذ لم يتجاوز هجاء الشعراء للصاحب البيت أو البيتين على الرغم من قوة الألفاظ التي استخدموها لهذا الغرض ،وقد ركّز الشعراء في أبياتهم على استخدام الألفاظ التي تبين معنى البخل واللؤم مثل غرفته خالية ، قذفت به الخطوب إلى لؤم ابن عبّاد ، يعطي ويمنع لا بخلا ولا كرما ، ونلاحظ أيضاً قلة المحسنات اللفظية حيث لم يرد الطباق سوى مرتين في قول الخوارزمي :

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فَإنّها خَطراتٌ مِن وَسَاوسِـــــهِ يُعطِي ويَمنَعُ لا بُخلاً ولا كَرَما

وورد الجناس في قول السلامي :

يابنَ عبّاد بن عبّـــــــــاسَ بن عَبـــــــــدِاللهِ حِرّهـــــا

تنّكِرُ الجبرَ وأخْرِجـــــــتَ إلى العَالَـــــــمِ كُرهَـــــا

وكلمتي عالية وخالية في قول الخوارزمي :

صَاحِبنَـــــــا أحْوالُـــهُ عَالِيـــة لكنّمـــــا غُرفَتُهُ خَاليـــــةَ

وكلمتي كافي وكافر ، وكلمتي الكفاة والكفار في قول الشاعر :

مُتلقبٌ كَافي الكُفـــــاةِ وإنّمـــــا هُـــــو فِي الحَقيقَةِ كَافِرُ الكُفّارِ

ومن المحسنات البديعية التي ظهرت في أبيات الهجاء ،التشبيه كما في قول الخوارزمي :

لا تَمدحنّ ابنَ عَبّادٍ وإنْ هَطلتْ كَفّاهُ بِالجُودِ سَحّاً يُخجِلُ الدّيمَا

حيث شبه كفّي الصاحب بن عباد بما تجودان به من كرم على الناس بالمطر الذي يهطل على الأرض مانحاً الخير والبركة ،كذلك التشبيه في قول الشاباشي:

يَامـــــــنْ تَبرّمتِ الدّنيا بِطلعَتِهِ كَما تَبرّمتِ الأجْفانُ بالرّمدِ

فقد شبه سئم الدنيا وتضجرها من رؤية الصاحب بتضجر العيون من الرمد الذي يصيبها .

وقد تنوع شعراء الهجاء في استخدام البحر الذي نظموا عليه أبيـــاتهم ، حيـــث نظمـــوا قصائدهم على وزن البحر البسيط ، والسريع ، والرمل .

٣- قصائد الرثاء

تتميز قصائد الرثاء التي أوردناها بقوة العاطفة وصدقها ، وقد ظهرت بشكل واضح فـــي قصيدتي أبي الفياض الطبري والشريف الرضي ، حيث تأثرا كثيراً بموته ،وهذا دلالة على شدة محبتهما له ، وقد اختار كل شاعر من شعراء الرثاء الألفاظ القوية والملائمة للتعبير عن شـــدة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حزنهم على وفاة الصاحب بن عباد ، ولم يهتموا فقط بشكل قصائدهم وقوافيها ، بل اهتموا كذلك بمضمونها وجوهرها الذي ترك أثراً كبيراً في نفسية القارئ .

ويمكننا القول إن الشريف الرضي ركز على الوصف في قصيدته، لأنه الأسلوب الـذي يتميز به في أغلب قصائده ؛ لذلك اشتملت قصيدته على الصور الفنية ، و قد اختار لذلك الألفاظ الملائمة التي تجعل قصيدته قوية وجزلة من حيث شكلها ، فمن الصور الفنية التي وردت فـي قصيدته ، وصفه الصاحب بالجبل الذي أرسى كل شيء حوله ، وبالكوكب الذي فـارق الـدّنيا وعاد إلى مداره أنفاً بها ورغبة بالخلود ، ويظهر هذا في قوله :

جَبَلٌ تَسنّمتْ البِلادُ هِضَابُـــهُ حَتّى إذَا مَـــــــلأ الأقالِم زَالا

مَا كُنْتَ أوّلَ كَوكبِ تَركَ الدّنا وسَمَـــــا إلى نُظرائِهِ فَتعَالى

أنفاً مِنَ الدّنيا بَتّت حَبالَهـــــا ونَزعَتْ عَنكَ قَميصَها الأسْمَالا

كما وردت صورة أخرى في قصيدته وهي صورة الرجال الذين طرحوا عمائمهم تفجعـاً وحسرة على ذهاب الصاحب وقد كانت تُطرح العمائم له إجلالاً ووقاراً له في حياته ، وذلك في قوله :

طَرحَ الرّجالُ لكَ العَمائمَ حَســـــرةً لمّـــا رأوكَ تَسيرُ ، أو إجْلالا

كما ورد تشبيه بقصيدة الأصبهاني في قوله :

لا يُعجِبُ النّاس مِنهم إنْ هُم انتَشروا مَضى سُليمانُ وانْحلّ الشَياطينُ

حيث شبه انفلات الشر بعد وفاة الصاحب بن عباد بانفلات الشياطين من عِقـالهم حـين تأكدوا من موت سليمان عليه السلام .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد أكثر الشريف الرضي من استخدام الفعل الماضي في قصيدته وذلك لأنه يتحدث عن شخص راحل ، مثل : خلع ، قلّص ، أقال ، خُضْتَ ، نكّس ، قَطّعَ ، تَرك َ ، ذَهبَ ، ونذكر مثالا عليها قوله :

خَلَعَ الرّدى ذاكَ الرِداءَ نَفاســـــةً عَنّا ، وقلّصَ ذلكَ السِربَـــــالا

كما مال الشريف الرضي في قصيدته إلى الأسلوب الإنشائي والإخباري موازنا بينهمـــا ، حيث أكثر من استخدام أدوات الاستفهام وأسلوب الخطاب مثل : أكذا ، أهَلاّ ، لِمنْ ، يَا أيّها .

وقد كان أسلوب الخطاب والإستفهام شائعاً عند شعراء الرثاء ، ومن أمثلته قول الشريف الرضي:

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أكَذا تُصابُ الأُسدُ وهِي مُذلّـــــــةٌ تَحمِي الشُبولَ وتَمنَعُ الأغْيالا

لِمنِ الضَوامِرُ عُرّيَتْ أمْطَاؤهَـــــا حَولَ الخِيامِ تُنازِعُ الأمْطَـــالا

هَلاّ أقَالتكَ اللّيالي عَثْـــــــــرةً يَا مَن إذَا عَثرَ الزَمانُ أقَـــالا

وقد أكثر شعراء الرثاء من استخدام الفعل بكى بصيغتي الفعـــل الماضـــي والمـــضارع (بكاك، بكتك ، تبكي عليك) ، وتكرارها يدل على التعبير عن شدة الحزن والبكـــاء علـــى فقـــد الصاحب بن عباد، ومن الأمثلة على ذلك قول الأصبهاني :

تَبكِي عَليكَ العَطايَا والصِـــــلاتُ كَمَا تَبكِي عَليكَ الرَعايَا والسَلاطينُ

وقَول الطبري :

بَكاكَ الدّينُ والدُنيا جميعـــــــاً وأهْلَهُمَا ، كَما يُبكى الحَمـــــــولُ

أما البحر الذي استخدمه شعراء الرثاء في نظم قصائدهم فقد كان متنـــوع بـــين البحـــر الخفيف ، والرمل ، والهزج ، والكامل ، وهي بحور عذبة تتناغم مع عاطفة الحزن .

٤- قصائد الديارات والبرذونيات والفيليات :

لقد وازن الشعراء في هذه القصائد بين الشكل والمضمون ، حيث اختاروا لهـــا الألفـــاظ الملائمة والطويلة ، والمعاني الجذابة ، وكانت السمة الغالبة والمشتركة بين هذه القصائد أسلوب الوصف ، لأن الصاحب بن عباد أمر أصحابه من الشعراء نظم قصائد في وصف داره ، والفيل الذي حصل عليه الصاحب في وقعة جرجان ، ورثاء البرذون الذي فقده أبو عيسى ، ويتبين لنا من خلال هذه القصائد أن الشعراء كانوا يصفون هذه الأشياء وصفا دقيقاً وملموساً .

وقد احتوت قصائدهم على التشبيهات ، فقد وردت في قصيدة أبي الحسن الغـــويري فـــي قوله :

شُرُفَاتُهَا هَيفُ الخُصـــــــــورِ لَهـــــا تحَاسينٌ وشَـــــاره

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حيث شبه الشرفات الموجودة في دار الصاحب بن عبّاد بخصر الفتاة الهيفاء الذي يتميز بالدقة دلالة على جمال هذه الشرفات ودقة تصميمها .

كما ورد التشبيه في قصيدة أبي بكر الخوارزمي في قوله :

رِحابٌ كَأنْ قَد شَاكلتْ صَدرَ ربّهـــا وبيضٌ كَأنْ قَد نَازَعَتْهُ الشَمائِلا

حيث شبه اتساع هذه الدار باتساع صدر الصاحب بن عباد ورحابته في سماع الناس وتلبية مطالبهم .

كما تجلّت عاطفة الإعجاب في قصائد الديارات خاصة عند أبي بكر الخوارزمي الذي أعجب بكل قسم موجود في دار الصاحب ، من صَحنٍ وبرك وساحات ، كما يظهر في قوله :

كَنائِسُ أضْحَتْ لِلغَمامِ عَمائِمـــا عُلواً وأمْستْ فِي الظّلامِ قنَادلا

رِحـابٌ كَأنْ قَد شَاكلتْ صَدرَ ربّها وبيـضٌ كأنْ قَد نَازعتهُ الشَمائِلا

وبَهوٌ تُباهِي الأرضُ مِنْهُ سَمائَهـا بِأوسَـعَ مَنْها أواخِرٌ وأوائِلا

ومن الصور الفنية في قصائد البرذونيات ، تصوير أبي عيسى كف الصاحب التي تجود بالخير على الناس بالمطر الغزير الذي ينزل على الأرض الجدباء فيرويها ، ويظهر هذا في قوله :

سِوى الصّاحِبِ المَأمولِ لِلْجُودِ مِن كفّهِ مِنْ صَيّبِ خَضْلٍ أنْدى

كما تجلت عاطفة الحزن والإحساس بالمصيبة الجليلة التي تعرض لها أبو عيسى المنجم عند فقده للبرذون ، وقد نظم هؤلاء الشعراء قصائدهم على وزن البحر الطويل ، وهو بحر يتّصف بخفة تفعيلاته ، ويضفي حركة موسيقية على أبيات القصائد .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يذكر الأستاذ نبيل أبو حلتم في كتابه اتجاهات الشعر العربي في القرن الرابع الهجري من خلال كتاب يتيمة الدهر عن وصف الشعراء لبرذون أبي عيسى ، والفيل الذي حصل عليه الصاحب بجرجان قائلاً :

"ولو ألقينا نظرة على أوصاف شعراء الصاحب بن عبّاد التي ذكروها عن برذون أبي عيسى المنجم لوجدنا أن أغلب صورهم وتشبيهاتهم التي أوردوها وجاءوا بها لهذا الحيوان الأليف جديدة ومبتكرة ، وهي إضافة إلى طابعها المجوني وصبغتها الدعابية مكتظة بالصور الجميلة التي تثبت قدرة شعراء الصاحب وشعراء القرن الرابع بصفة عامة على النظم في أي موضوع شعري مهما كان نوعه وهدفه .

غير أن الأوصاف التي جاء بها الشعراء عن هذا البرذون ، لا مقارنة بينهما وبين ما قدموه من أوصاف وصور عن الفيل الذي وقع بيد الصاحب وهو بجرجان ، فوجد فيه مغنما له ومكسبا لشعرائه ليتسلوا به ويداعبوه من خلال أستاذهم ويضيفوا لونا جديدا من ألوان الوصف وزاداً مضمونياً لشعر الحيوان لم يسبق لشعراء العربية أن التفتوا له وتعرضوا في شعرهم الوصفي لفيل كما فعل شعراء القرن الرابع إضافة إلى ذلك فإنه لم يسبق أن رأينا شعراء قبل هذا العصر يجتمعون في حلقة شعرية يصفون فيلا أو حيواناً كالبرذون ، فهذه الأخرى بلا شك لفتة جديدة وظاهرة وصفية مستحدثة تحسب لشعراء القرن الرابع ." [١]

(١) نبيل خليل أبو حلتم ، اتجاهات الشعر في القرن الرابع الهجري من خلال يتيمة الدهر ، دار الثقافة ،الدوحة ، ١٩٨٥ م ، ص ٧٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخاتمـــــة

تنبع أهمية هذه الدراسة من خلال طرحها لآراء الكتّــاب والــشعراء الــذين عاصــروا الصاحب بن عبّاد ، وسمعوا به ، حيث لم يجد الباحث من خلال اطلاعه على الدراسات السابقة دراسةً قد تناولت هذا الموضوع ، سوى دراستين كانتا في تحليل معجم(المحــيط فــي اللغــة) للصاحب بن عبّاد ، وكتاب (الصاحبي) في فقه اللغة الذي أهداه ابن فارس للصاحب بن عبّاد .

وجائت هذه الدراسة مكونة من تمهيد وثلاثة فصول ، فقد عرضت في تمهيدها لترجمــة موجزة عن حياة الصاحب بن عبّاد ، وذكر بعض مؤلفاته في الأدب واللغة ، والنحو والشعر ، كما ذكر سنة الولادة والوفاة ، وشيئاً بسيطاً عن وزارته ، وانتقلت الدراسة فــي فــصلها الأول لإبراز نظرة الكتّاب لشخصية الصاحب بن عبّاد ، وكان التوحيدي أكثرهم حدّةً فــي توضــيح نظرته في الصاحب ، وقد عرض الفصل لنظرة الكتّاب من خلال رسائل خطّوها بأقلامهم .

أمّا الفصل الثاني فقد وضّح نظرة الشعراء المشهورين والمغمــورين الــذين عاصــروا الصاحب أو اجتمعوا بحضرته ، وذلك من خلال قصائد نظموها في مدحه وهجائــه ورثائــه ، وقصائد أخرى نظموها بناءاً على طلبه في وصف داره ، والفيل الذي حصل عليه فــي وقعــة جرجان،ورثاء البرذون الذي فقده أبو عيسى ، حيث تضمنت هذه القصائد ذكراً للــصاحب بــن عبّاد وفضائله .

وعرض الفصل الثالث من هذه الدراسة لدراسة فنية للنصوص النثرية والــشعرية التــي وضّحت صورة الصاحب في نظر الكتّاب والشعراء ، وقد حاول الباحث في هذا الفصل تحليــل ما في هذه النصوص من مضمون وأساليب وألفاظ ، واستخراج ما فيها من محــسنات لفظيــة وصور فنية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد عانت هذه الدراسة من عدم توفر ترجمة عن بعض الكتّاب والشعراء مثل ، أبي راغب العتبي ، والمسيني ، والأنماطي ، وأبي طاهر بن أبي الربيع ، وأبي العبّاس العلوي الهمذاني، حيث لم يجد الباحث من خلال اطلاعه على كتب المصادر سوى ذكر لاسم الكاتب أو الشاعر من خلال خبر أو حادثة معينة ، كما عانت من عدم توفر دواوين بعض الشعراء ، ولعلّ عدم شهرتهم قد تكون السبب في ذلك .

هذه أبرز المشاكل التي واجهت الباحث أثناء دراسته لهذه الأطروحة .

هذه هي خلاصة الدراسة ، ويتمنى الباحث أن يكون قد أضاف نتاجاً جديداً يفيد المكتبة العربية، ويكون مرجعاً لطلاب العلم ، ويوصي الباحث بدراسة آراء الكتّاب والشعراء التي وضّحها في الصاحب بن عبّاد دراسةً نقدية ، وهذا ما تمكن الباحث من الوقوف عليه ، ويتمنى من الله التوفيق والسداد .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المصادر والمراجع

(١) إحسان عباس ، أبو حيان التوحيدي ،دار بيروت ، ١٩٥٦ م .

(٢) بدوي طبانة ، الصاحب بن عباد الأديب الوزير العالم ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر،١٩٦٣ م .

(٣) التوحيدي ، أبو حيّان علي بن عبّاس ، ت(٤١٣) هـ، الإمتاع والمؤانسة ، دار المعرفة، بيروت ، ٢٠٠٤ م .

(٤) التوحيدي ، أبو حيّان علي بن عبّاس، ت(٤١٣)هـ ، البصائر والذخائر ، دار المعرفة، بيروت ، ٢٠٠٤ م .

(٥) التوحيدي ، أبو حيّان علي بن عبّاس، ت(٤١٣)هـ ، مثالب الوزيرين ، أخلاق الصاحب بن عبّاد وابن العميد ، تحقيق إبراهيم الكيلاني ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٩٧م .

(٦) الثعالبي ،أبو منصور عبد الملك الثعالبي النيسابوري ، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، ط١ ، تحقيق إبراهيم صقر، مكتبة مصر ، القاهرة .

(٧) الجوزي ، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي القرشي البغدادي ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، دائرة المعارف العثمانية ، ١٩٩٠م.

(٨) الحموي ،ياقوت أبو عبدالله بن عبدالله الرومي الحموي – معجم الأدباء ، تحقيق إحسان عبّاس ، دار الغرب الإسلامي ، ١٩٩٣م ، ط١ .

(٩) الخطيب البغدادي ، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت ، تاريخ بغداد ، ت (٤٦٣) هـ ،دار الكتاب ، بيروت ، ١٩٩٩م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(١٠) خلكان ، أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان ، وفيات الأعيان ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٨ م .

(١١) الخوارزمي ، أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي ،رسائل الخوارزمي، المطبعة العثمانية – ١٣١٢هـ .

(١٢) الذهبي ، شمس الدّين أبو عبدالله محمد بن عثمان (ت٧٤٨) هـ، مؤسسة الرسالة ، ط٩،بيروت ،١٩٩٣م .

(١٣) زكي مبارك النثر الفني في القرن الرابع ، المكتبة التجارية الكبرى ، مصر ، ط٢ .

(١٤) الزهيري ،محمود غناوي الزهيري ،الأدب في ظل بني بويه ،مطبعة الأمانة،القاهرة،١٩٤٩م.

(١٥) الشريف الرضي ، ديوان الشريف الرضي ، حققه د.محمود مصطفى حلاوي ، دار الأرقم بن أبي الأرقم ، ١٩٩٩ م .

(١٦) شوقي ضيف ، رسائل الصاحب بن عبّاد ، دار الفكر العربي ، ط١ .

(١٧) الصاحب بن عباد ، الكشف عن مساوئ شعر المتنبي ،تحقيق : محمد حسن آل ياسين ، مطبعة المعارف ، بغداد ، ط١ ، ١٩٦٥ .

(١٨) الصاحب بن عباد ، ديوان الصاحب بن عباد ، تحقيق : محمد حسن آل ياسين ،مكتبة النهضة ، بغداد ،طبع على مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٩٦٥ م ، ط١ .

(١٩) العاملي ، السيد محسن الأمين ،أعيان الشيعة ،ط١ ، تحقيق ولده حسن الأمين ، مطبعة الإنصاف ، بيروت ،١٩٦١ م .

(٢٠) العسقلاني ، الإمام الحافظ أسمر علي بن حجر العسقلاني ،لسان الميزان ، اعتنى بإخراجه وطباعته سلمان عبد الفتاح أبو غدّة ، مكتبة المطبوعات الإسلامية ، ط١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(٢١) غرس النعمة، أبي الحسن محمد بن هلال بن زهرون الصابئ ، المختار من رسائل الصابئ ، تحقيق الأمير شكيب أرسلان ، دار النهضة الحديثة ، بيروت – لبنان .

(٢٢) نبيل خليل أبو حلتم ، اتجاهات الشعر في القرن الرابع الهجري من خلال يتيمة الدهر ، دار الثقافة ، الدوحة .

(٢٣) النديم ، محمد بن إسحق بن محمد بن إسحق بن النديم ، الفهرست ، المكتبة التجارية ، القاهرة ، ١٩٢٩ م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

The Image of Al-Sahib Bin Abbad as Viewed by the Authors of His Age

By

Hawazan Omar Salameh

Supervisor

Dr. Yaseen Ayash

ABSTRACT

This letter focused on clarifying the opinions of writers and poets about Al Saheb Bin Abbad، and it consisted of an introduction where the researcher talked briefly about Al Saheb Bin Abbad، mentioned some of his writings، also talked about his position as a minister. After the introduction، come three chapters; the first two showed the writers and poets' opinions about the character of Al Saheb Bin Abbad، Al Tawheedi was the writer who wrote the most about Al Saheb، clarifying his opinion through his books; "Mathaalib Al Wazir" and "Al Imtaá wal Muoáanasa". As he was in contact with Al Saheb and knew his morals and the way he deals with others.

The second chapter cleared the views of poets about Al Saheb through their poems، which varied between laudation، satirizes and lament; described his virtues and main characteristics through their poems: Al deyarat، Al Filieyat، and Al berthouneyat، in which they wrote describing

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

his home and the elephant he's got، and lamenting the mull that Abu Issa lost، a lament they wrote responding to Al Sahib's demand.

The letter ended after the third chapter، in which the researcher dealt with a technical study for the texts in prose and poetry، in addition to showing what there texts contained of style، vocabulary and verbal conditioners.

Thus، the researcher used while writing this letter both the historical and social approaches، and relied a bit on the reading texts approach. The letter came up with the following results:

1. In the researcher's perspective، Al Saheb Bin Abbad is a person who has collected science، literature، politics، good ethics، and is not free of defects; but his defects are not as bad as Al Tawheedi and others have described، as they denied his good ethics and his distinguished character. The defect that characterized him is that he greatly admired his ability to write in the various fields of literature، science، and to act in political matters. And there is another defect in his writings، which is the frequent and very often use of the coo، despite the beauty of his words، and good expression of ideas.
2. In some writers' points of view، like Al Khawarizmi، Al Sabeá، Ibn Al A'meed and Al Thaálibi، Al Sahib Bin Abbad is a person of high standing in society، has ability to assume the difficult

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

responsibilities، and that was because he was assuming the office of the ministry، and was interested in science and literature، and stressed their importance as well as writing in such fields. And that is apparent in the letters they wrote to him praising، showing his standing، as we saw when Ibn Alámeed nominated him to refine Moáyyed Al Dawlah، and how much he meant to Al Khawarizmi when he left him، and when Al Sabeá called him for help.

3. It differs، the way poets see Al Saheb Bin Abbad according to the reason they are writing for. For example، when praising we see that Bin Abbad in the perspective of praising poets as a minister who has good ethics، and who was convivial with his friends.
4. Through what have been mentioned from opinions of writers and poets about the personality of Al Saheb Bin Abbad in the previous two chapters، we see that the two parties do agree in describing Al Saheb Bin Abbad، that he is generous، able to assume in political and social matters، encouraging for literature، and for getting knowledge in all life and scientific fields، and they considered him as a distinguished friend. Then they differed in describing his defects، as writers stressed on describing him as a crazy person، self-conceit، has haughtiness in front of others، and has all vices.

The researcher wishes that this letter would be a reference for students in the future.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit